

مثنان.. الطريق إلى الريادة في الحلقات القرآنية

مثنان

الطريق إلى الريادة في الحلقات القرآنية

تأليف:

فايز بن سعيد الزهراني

ح

مجلة البيان، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهران، فايز سعيد

مثاني الطريق إلى الريادة في الحلقات القرآنية. / فايز سعيد

الزهراني:- الرياض، ١٤٣٧هـ

٣٨٢ ص؛ ١٤×٢٠ سم

ردمك: ٤-٨٣-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تحفيظ - تعليم ٢- القرآن - تعليم - طرق التدريس

أ. العنوان

١٤٣٧/٧٤

ديوي ٩٠٧، ٢٢٨

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٧٤

ردمك: ٤-٨٣-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨

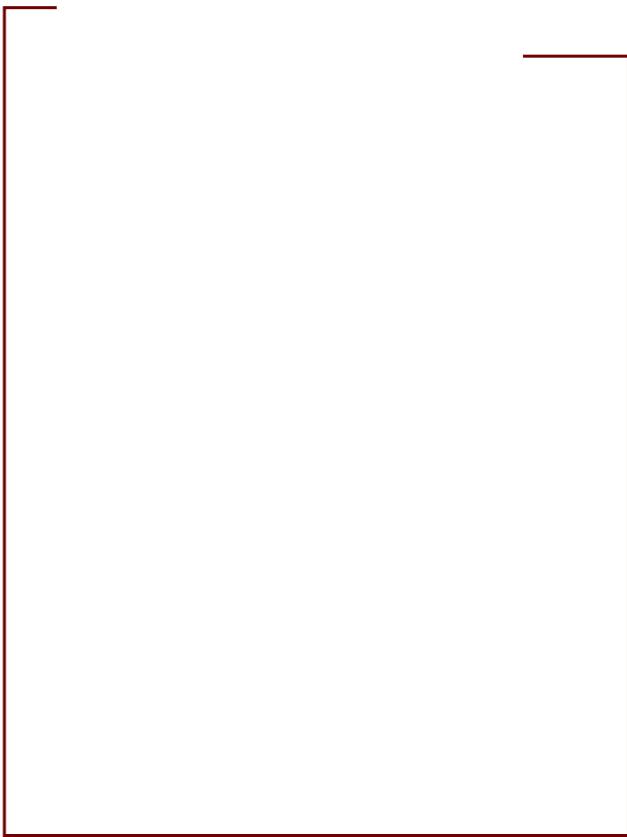


فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٧	فهرس الموضوعات
٩	المقدمة
٢١	تمهيد
٣٥	الفصل الأول: التربية القرآنية في الحلقات
٣٧	- الحلقات القرآنية والتربية بالمثاني
٥٧	- لماذا ندعو إلى التربية القرآنية في الحلقات؟
٨٠	- التربية القرآنية في العهد المكي
١٢٣	الفصل الثاني: المعالم التربوية للحلقة القرآنية
١٢٥	- منهج التربية والتعليم في الحلقات
١٥٣	- الحلقات القرآنية ورعاية الحفاظ
١٧٨	- معلمو القرآن الكريم: التأهيل والإعداد
٢٠٤	- أنماط المتعلمين في الحلقات القرآنية
٢٢٧	- التربية القرآنية في حلقات البنات

- ٢٥٧ الحلقات القرآنية في شهر رمضان
- ٢٧٢ حلقاتنا والتربية على تلاوة القرآن الكريم
- ٢٩١ الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة
- ٢٩٦ جمع القرآن في خلافة أبي بكر الصديق
- ٣١٠ المدارس القرآنية في خلافة عمر بن الخطاب
- ٣٤٢ جمع المصحف في خلافة عثمان بن عفان
- ٣٤٩ ملحوظات عامة على المشاريع الراشدة
- ٣٦٠ المشاريع القرآنية التي نريد
- ٣٦٧ قائمة المراجع

مُقَدِّمَةٌ



الحمد لله الذي أنزل على الناس كتابًا يهديهم للتي هي أقوم، ويقص عليهم التي هي أحسن، ويدلهم على التي هي أصوب.. أحمدده حمدًا لا ينقطع صداه، وأشكره راجيًا بالشكر رضاه، وأثنى عليه واللسان يعجز عن بلوغ ثناه.

وأصلي على سيدي وحبيبي محمد النبي الأمي، الذي يؤمن بالله وكلماته، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، أنصار الله وحمله الرسالة، الذين لم يألوا جهدًا في الجهاد والبلاغ، وأسلم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فبينما كنت أقلب ناظري في المجموعة الموسومة بـ «آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي» رحمه الله تعالى وأعلى نزهة في جنات النعيم، باحثًا في طيات آثاره عمًا كتبه عن التعليم إذ فجأتني مقالة كتبها في جريدة البصائر في ٣١ أكتوبر ١٩٤٩م بعنوان: «مدارس جمعية العلماء»؛ فجأتني تلك المقالة بسببها وحبكها، وأظن أنه لم يكتبها بيده، وإنما كتبها قلبه ووجدانه ومشاعره؛ لقد كانت قطعة أدبية أملاها الفؤاد أكثر من كونها فكرة نهضوية يطررها المفكر المصلح. وأنقل منها قوله: «تبنى الأمم ما تبني من القصور، وتشيد ما تشيد من المصانع،

وتنسق ما تنسق من الحدائق، وتحف ذلك كله بالسور المنيعة، فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة؛ ولكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب، وإذا ذلك كله إرواء للغرائز الحيوانية، وإرضاء للعواطف الدنيا بالمتع واللذات، والتباهي وطلب الذكر؛ أما إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى، فالتمسهما في المدرسة لا في القصر ولا في المصنع؛ ولو تباهت الأبنية المشيدة بغاياتها، وتفاخرت بمعانيها لأسكتت المدرسة كل منافس.

تعالى خلفاء بني العباس في تشييد قصورهم، وعمروها بأسباب الترف المادي، ووسائل اللذات الجسمانية، وأسبغوا عليها كل ما يستهوي من جمال وفن؛ وتسامت همم الخلفاء إلى إظهار جلال الخلافة في البناء والتشييد، فما قصر في ذلك منهم أوّل ولا أخير، وباهت بغداد بتلك القصور أمصار العالم كله؛ ولكنهم لم يهتدوا إلى البنية التي تُحمّل كل بناء، ولم ينفقوا في تشييد المدرسة بعض ما ينفقون في تشييد القصر من مال وعناية وذوق، إلى أن جاء أحد وزرائهم فسبق للمنقبة التي تغطّي المناقب فشاد المدرسة النظامية؛ هنالك علمت بغداد أن كل ما

حازته من جمال كانت تنقصه نقطة الجمال، وأن كل ما وصلت إليه من عظمة كان ينقصه سر العظمة، وأن كل ما كتب عنها التاريخ ودون وصفها الشعرُ خيالٌ أيدته هذه الحقيقة، وأن كل ما حوى الجانبان [يقصد جانبي بغداد، وهما العهد والرصافة] بناءً تنقصه لبنة التمام.

كانت تلك القصور تزخر بالترف الذي يفضي إلى الرذيلة، وتؤوي في أكنافها أمماً من الجوارى والغلمان والفجرة والغدرة، وتخفي في أقبائها الموت والظلم، وتحاك في أروقتها المكائد والحيل، وتهدر في ساحاتها الأعراض والدماء والفضائل، ويقرب إليها ناسكوها قرابين المصانعة والنفاق.

أما مدرسة الوزير نظام الملك فقد أصبحت تزخر بطلاب العلوم، ويسطع في آفاقها من أئمة الإسلام نجوم، ويشع شعاعها فيجاوز النهر إلى خراسان، والبحر إلى الأندلس. ناهيك بابن الصباغ، وأبي حامد الغزالي، وأبي إسحاق الإسفرائيني.

تبارك الذي أسند البناء إلى نفسه؛ فأرشدنا بذلك إلى أن البناء من صفات الكمال، ودلنا على أن العظيم يبني العظيم،

فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]»^(١).

أعذر إليك أيها القارئ الكريم عن هذا الاقتباس المطول، ذلك أنني أردت أن تشاركني متعة الحرف حين ينبض به القلب.

ولكن ما شأن الوزير نظام الملك؟ وما شأن مدرسته؟

في الحقيقة إن هذه الشخصية محل دراسة واعتبار، وبحاجة إلى تأريخ يسبر حقبته ويعالج ظروفها.

نظام الملك هو أبو علي الطوسي، الحسن بن علي (ت ٤٨٥هـ)، كان خيرًا دينًا محبًا للعلم وأهله. وكان وزيرًا لسلطان السلاجقة ألب أرسلان في المشرق، ومن بعده لابنه ملكشاه، في وقت كانت فيه شمس الإسلام في أفول، حيث العدوان البيزنطي من جانب، ومن جانب آخر أشد وأقسى: تصدير الرافض الذي رفعت شعاره دولة العبيديين، وكانت حركة الحشاشين الإسماعيلية الباطنية في المشرق تهدد الوجود السني في علمائه وسلطنته.

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٣/ ٢٥٨.

الوزير نظام الملك كان ينظر إلى ظروف واقعه بحس المسؤولية، فبدأ يرتب الأمور جيداً: ما هو من قبيل «مهم وعاجل» وما هو من قبيل «مهم وغير عاجل»، يقول ابن شامة: «فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيئة إلى أحسن حالاتها»^(١).

ومما هو من قبيل «مهم وغير عاجل» أو بعبارة أخرى: من الأفكار الإستراتيجية التي عمل على تشييدها الوزير نظام الملك في مواجهة الضعف والانحلال اللذين حلا بالأمة فكرة بناء المدارس السنية في الحواضر والشغور، لإعادة الهوية إلى الأمة، ولبناء جيل يحمل هذا الدين ويدافع عنه ويرفع رايته، فكانت المدارس النظامية.

المدارس النظامية هي منشآت تعليمية مبنية على هذا الأساس، يدرّس فيها القرآن والسنة والعقيدة والفقهاء على المذهب الشافعي. قال الذهبي: «وهو أول من بنى المدارس في الإسلام، بنى نظامية بغداد، ونظامية نيسابور، ونظامية طوس،

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ١/١٢١.

ونظامية أصبهان»^(١). وإذا كان ما ذكره الذهبي يعد من المدارس العظيمة إلا أن مشروع بناء المدارس السننية عم تطبيقه في كل مكان، قال ابن شامة: «ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة»^(٢).

كل ذلك كان سبباً لمواجهة العدوان على الدولة المسلمة القائمة، ولذلك كان هذا المشروع محل ارتياح لدى الدولة، لأنها المعنية الأولى بهذا العدوان. دخل نظام الملك على الإمام المقتدي بالله، فأذن له في الجلوس، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك كر ضاً أمير المؤمنين عنك»^(٣).

هذه لقطة من المشروع الكبير الذي أقامه نظام الملك في سبيل وحدة الأمة وتقويتها وتربيتها على الإسلام.

إن التعليم هو السلاح الإستراتيجي في وجه أعداء المسلمين، ولهذا رفعت جمعية العلماء الجزائريين شعار: «إصلاح التعليم

(١) تاريخ الإسلام ١٠/٥٤٣.

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين ١/٩٨.

(٣) تاريخ الإسلام ١٠/٥٤٣.

أساس الإصلاح»^(١)، غير أن الفرق بين المشروعين أن الأول كان استباقياً في ظل وجود الدولة الإسلامية والآخر أقيم في ظل الاحتلال الفرنسي الغاصب، وكلاهما أدى مفعوله وآتى أكله.

لقد كان من نتاج هذا المشروع الكبير - أعني المدارس النظامية - أن تصدر العلماء المشهود الاجتماعي والثقافي، وأصبحت الحركة العلمية ذات تأثير حقيقي في الناس، وظهر للناس علماء مربون كأبي حامد الغزالي وعبد القادر الجيلاني وأبي الفرج بن الجوزي، وتوسع نطاق الصحوة المباركة فكان من آثارها تحقيق الوحدة الإسلامية وطرد الصليبيين من بلاد المسلمين على يد البطلين نور الدين وصلاح الدين.

وتنتشر اليوم في مساجد المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي الحلقات القرآنية، التي تعنى بتعليم النشء الصاعد كتاب الله تعالى، متخطية الظروف التي تكتنف محيطها.. فتية يأتون إلى المساجد طواعية كل يوم، يحفظون ما تيسر لهم من القرآن الكريم، ويتأدبون بأدابه.

(١) التجربة الدعوية، للشيخ عبد الحميد بن باديس، ص ١٠١.

هذه الحلقات القرآنية أسهمت بشكل كبير في بناء جيل مؤمن يستهدي بكتاب الله تعالى، ويتسامى فوق الشهوات والمغريات والملهيات، ويتخطى الكمائن والحيل التي صنعها له عدو الإسلام.

هذه الحلقات القرآنية كانت ولا تزال صمام أمان المجتمعات، وسدًا منيعًا أمام طوفان الشبهات والأفكار، يقوم عليها خيرة الناس وأفاضلهم، أولئك الذين تجردوا من حظوظ الدنيا، وطلقوا الصفق في الأسواق، وفاتهم الكثير الكثير من مباحج الحياة المادية.

هذه الحلقات القرآنية ثغر من ثغور المسلمين، يجب على الأمة أن تكون للمرابطين فيها سندًا وظهيرًا، تمدهم بالمال وتكلؤهم من ورائهم وتجود عليهم بالنصح والتسديد.

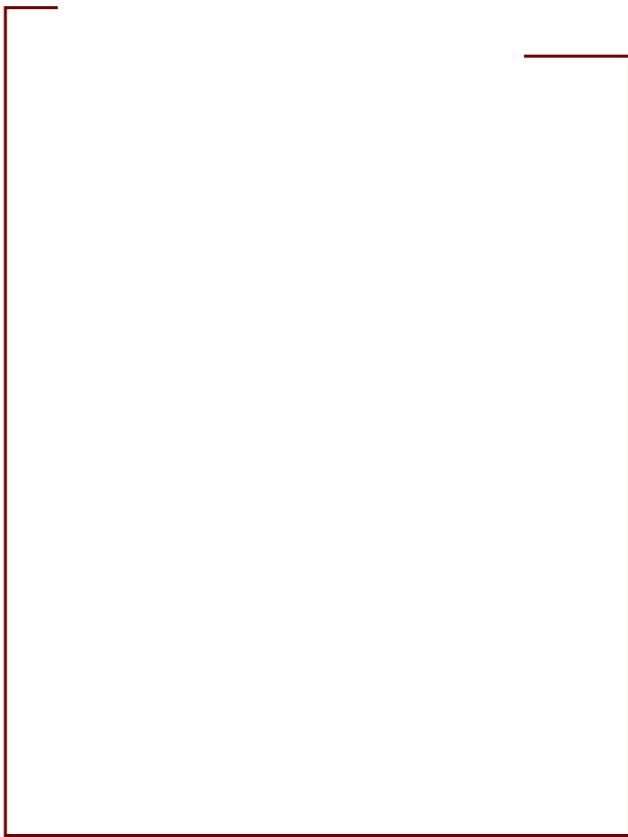
هذه الحلقات القرآنية تقوم بالدور الذي قامت به المدارس النظامية من قبل، فكان الأثر كالأثر، ونرجو أن يصل إلى أبلغ الأثر.

وقد كان يجول في خاطري أن أنسج رسالة نافعة لتلك
الثلة المباركة القائمة على هذا الثغر العظيم، وفاءً بحقها عليّ
وعلى أبنائي، وعملاً بقوله تعالى: **(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ)** [العصر: ٣]. ومحاولة لفتح بعض الآفاق التي أطمح أن
تكون محل نقاش وإثراء وتحسين وتنفيذ، فيسر الله لي من يعينني
على ذلك، أعني أسرة البيان المباركة، والله وحده المسؤول أن
يعيننا على أنفسنا ويزقنا الإخلاص والتوفيق والقبول.

فايز بن سعيد الزهراني

ثالث أيام التشريق ١٤٣٦ هـ

مَهْيَدٌ



إن تعليم كتاب الله تعالى من أعظم القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ومولاه؛ حيث إن شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم هنا هو القرآن الكريم الذي تكلم الله عز وجل به وأنزله على رسوله الأمين ﷺ ليكون للعالمين هدى وشفاء ونذيراً، لا يأتيه الباطل أبداً: ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

وفي المأثور ما يدلُّ على فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه عموماً، وما يدل على فضل تعليمه في الحلقات خصوصاً. وستتناول شيئاً من هذه النصوص بما يفي بالمقصود ويغني عن الإطالة إن شاء الله.

فضل تعلم القرآن وتعليمه:

روى التابعي المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي - رحمه الله - عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)، فأقرأ أبو عبد الرحمن السلمي القرآن الكريم في فترة طويلة امتدت من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى زمن

(١) البخاري ٣/٣٤٦ ح (٥٢٠٧).

ولاية الحجاج العراق لعبد الملك بن مروان حينها، وقال: «وذاك [أي هذا الحديث] الذي أقعدني مقعدي هذا»^(١). قال أبو إسحاق السبيعي: «إنَّ أبا عبد الرحمن السلمي كان يقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة»^(٢).

وكان ﷺ يذكّر أصحابه بفضل تعلّم القرآن ويغرس فيهم عظمته، وأنه مهما فاتهم من مباحج الدنيا وأمواها، فلا يعدُّ شيئاً مع فوات تعلّمهم لكلام الله عز وجل.

في مؤخر المسجد النبوي مكان مظلل كان فقراء المهاجرين يأوون إليه؛ حيث لا مأوى لهم ولا أهل، منهم عقبة بن عامر الجهني ﷺ، يقول: «خرج إلينا رسول الله ونحن في الصفة، فقال: (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين [أي عزيمة السنام] في غير إثم ولا قطع رحم) قلنا: يا رسول الله! نحب ذلك. قال: (أفلا يغدو أحدكم

(١) قال الحافظ في الفتح ٦٩٤ / ٨: بين أول خلافة عثمان ﷺ وآخر ولاية الحجاج العراق: اثنتان وسبعون سنة إلا ثلاثة أشهر. وبين خلافة

عثمان ﷺ وأول ولاية الحجاج العراق ثمان وثلاثون سنة.

(٢) معرفة القراء الكبار ١ / ١٤٧.

إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له من ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له من أربع، ومن أعددهن من الإبل»^(١). هذا الفضل وعد به رسول الله ﷺ من تعلم آيتين من كتاب الله تعالى أو ثلاثاً أو أربعاً أو أكثر، وهو يخاطب الفقراء من أهل الصفة، ويقارن لهم بين تعلم الآية والحصول على ناقة، لصالح الآيات، فكيف سيكون ثواب من علم هذه الآيات وكان سبباً في تعلمها؟!

إن تعليم القرآن الكريم يفضي إلى ديمومة كسب الثواب من الله الكريم طيلة حياة معلّم القرآن الكريم وبعده ماتته، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله، إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»^(٢). قال العلماء: معنى الحديث، أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها^(٣).

(١) مسلم ١/٥٥٢ ح (٨٠٣).

(٢) مسلم ٣/١٢٥٥ ح (١٦٣١).

(٣) شرح النووي ١١/٨٧.

قال ابن جماعة الكناني رحمه الله: «وأنا أقول: إذا نظرت وجدت معاني الثلاثة موجودة في معلّم العلم، أما الصدقة فأقراؤه إياه العلم وإفادته إياه؛ ألا ترى إلى قوله ﷺ في المصلي وحده: من يتصدق على هذا؟ أي بالصلاة معه لتحصل له فضيلة الجماعة... وأما العلم المنتفع به فظاهر، لأنه كان سبباً لإيصال ذلك العلم إلى كل من انتفع به. وأما الدعاء الصالح له فالمعتاد المستقرأ على ألسنة أهل العلم والحديث قاطبة من الدعاء لمشاينهم وأئمتهم، وبعض أهل العلم يدعون لكل من يذكر عنه شيء من العلم، وربما يقرأ بعضهم الحديث بسنده فيدعو لجميع رجال السند، فسبحان من اختص من شاء من عباده بما شاء من جزيل عطائه»^(١).

بل يتعدى مصدر دخول الأجر إلى معلّم القرآن إلى جميع سلسلة الذين استفادوا بسببه، عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من علّم آية من كتاب الله كان له ثوابها ما تُلِيَتْ»^(٢)، فتأمل هذه الأجور العظيمة التي يحسن

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٥٨.

(٢) السلسلة الصحيحة ٣/ ٣٢٣ ح (١٣٣٥).

التنبية إليها في عصر طغت فيه المادة وأصبحت مهيمنة على حسابات التكسب.

وقد ورد في بعض الأحاديث الأمر الصريح بتعليم القرآن، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنناً فقال: «ما معك يا فلان» قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. قال: «أمعك سورة البقرة؟» فقال: نعم. قال: «فاذهب فأنت أميرهم» فقال رجل من أشرافهم: والله يا رسول الله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا القرآن فاقرووه وأقرووه. فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريجه كل مكان، ومثل من تعلمه فتركه وهو في جوفه كمثل جراب وكى على مسك»^(١).

وكان تعليم القرآن هدي شريحة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كان يأمرهم بذلك، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله شُغِل، فإذا قدم الرجل وقد أسلم على يد رسول الله

(١) الترمذي ١٥٦/٥ ح (٢٨٧٦) وقال: هذا حديث حسن.

دفعه إلى رجل منا ليعلمه القرآن»^(١).

وبعث رسول الله ﷺ معاذًا وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن يأمرهما أن يعلما الناس القرآن^(٢).

كما كان تعليم القرآن هديه ﷺ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «والله لقد أخذت من في رسول الله بضعا وسبعين سورة»^(٣).

وقد أفاض أهل العلم في بيان حكم تعليم القرآن ومنزلته، قال النووي رحمه الله: «تعليم المتعلمين [أي القرآن الكريم] فرض كفاية، فإن لم يكن من يصلح له إلا واحد تعين عليه، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم، وامتنعوا كلهم أثموا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن الباقيين، وإن طلب من أحدهم فامتنع، فأظهر الوجهين أنه لا يَأْتُم، لكنه يُكره له ذلك إذا لم يكن له عذر»^(٤).

(١) مستدرک الحاكم ٣/٤٠١ ح (٥٥٢٧).

(٢) مسند الإمام أحمد. الفتح الرباني ١٨/٨.

(٣) البخاري ٣/٣٤١ ح (٥٠٠٠).

(٤) التبيين في آداب حملة القرآن ص ٣٣.

وقد كان تعليم القرآن أصل التعليم وأساسه، قال الميموني: «سألت أحمد: أيما أحب إليك، أبدأُ ابني بالقرآن أو بالحديث؟ قال: لا، بالقرآن القرآن. قلت: أعلمه كله؟ قال: إلا أن يعسر عليه فتعلّمه منه. ثم قال: إذا قرأ أو لا تعود القراءة ولزمها»^(١). وقال ابن خلدون: «اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهل الملّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعده من الملكات»^(٢).

إن ما ورد في النصوص من فضل تعلّم القرآن الكريم وتعليمه إنما هو غيض من فيض. ولكن أردت التذكير بفضل ذلك والتنبيه على رفعة معلّم القرآن الكريم عند الله عز وجل.

(١) طبقات الحنابلة ١/ ٢١٤.

(٢) المقدمة ص ٤٦١.

فضل تعليم القرآن الكريم في الحلقات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكروهم الله فيمن عنده»^(١). ففي هذا الحديث تبيان لفضل الاجتماع بغرض مدارس القرآن وتلاوته في جماعة، في المسجد، قال ابن الأثير في معنى المدارس: أي اقرؤوه وتعهدوه لئلا تنسوه، وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء^(٢). وقال النووي رحمه الله: «وفي هذا دليل لفضل الاجتماع على تلاوة القرآن في المسجد. وهو مذهبنا، ومذهب الجمهور ويلحق بالمسجد في تحصيل هذه الفضيلة الاجتماع في مدرسة ورباط ونحوهما إن شاء الله تعالى، ويدلُّ عليه الحديث الذي بعده [يقصد: لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة... الحديث] فإنه مطلق يتناول جميع المواضع، ويكون التقييد في الحديث الأول خرج

(١) مسلم ٤/٢٠٧٤ ح (٢٦٩٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث ٢/١١٣.

على الغالب»^(١).

لقد كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بأموالٍ منها تعليمهم القرآن الكريم، عن أنس بن مالك ﷺ قال: «أقبل أبو طلحة يوماً فإذا النبي ﷺ قائم يقرئ أصحاب الصفة، على بطنه فصيلٌ من حجر يقيم به صلبه من الجوع»^(٢).

ولقد كان بعض الصحابة والخلفاء على هذا العمل، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن زيد قال: «كان عمر بن الخطاب إذا صلى السبحة وفرغ، دخل مريداً له، فأرسل إلى فتیان قد قرؤوا القرآن؛ منهم ابن عباس وابن أخي عيينة. فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف»^(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وعلى هذا السماع [أي سماع القرآن الكريم] كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يستمعون. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأبي موسى: يا أبا موسى ذكرنا

(١) شرح النووي ١٧ / ٢٤.

(٢) حلية الأولياء ١ / ٣٤٢.

(٣) تفسير الطبري ٢ / ٣١٩.

ربنا. فيقرأ وهم يستمعون»^(١).

الإقراء والعرض والتسميع سنة متبعة:

السُّنَّة في تعليم القرآن الكريم هي التلقين والمشافهة، عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعتُه، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكُذِّبْتُ أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلبَّيْتُهُ بردائه، فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: كذبت، أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها، فقال: أرسله،

(١) مجموع الفتاوى ١١/٥٥٩.

(٢) البخاري ٣/٣٣٩ ح (٤٩٩١).

اقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعته، فقال رسول الله ﷺ: كذلك أنزلت ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت التي أقرأني. فقال: «كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فقرأوا ما تيسر منه»^(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان يعرض على النبي القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه»^(٢). قال ابن حجر رحمه الله في حديث ابن عباس رضي الله عنه في قوله: «يعرض القرآن»: «أي يقرأ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إياه. والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت بحمص فقال لي بعض القوم: اقرأ علينا، فقرأت عليهم سورة يوسف. فقال

(١) البخاري ٣/٣٣٩ ح (٤٩٩٢).

(٢) البخاري ٣/٣٤١ رقم (٤٩٩٨، ٤٩٩٧).

(٣) فتح الباري ٨/٦٥٩.

رجل من القوم: والله ما هكذا أنزلت. قال: قلت: ويحك، والله! لقد قرأتها على رسول الله ﷺ فقال لي: أحسنت»^(١).

ومن سنن الإقراء أن يكون في حلقة تعليمية داخل المسجد، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «احشدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» قال أبو هريرة رضي الله عنه: فحشد من حشد ثم خرج النبي ﷺ فقرأ: **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ثم دخل... الحديث^(٢).

وكذلك يسنُّ الإقراء في حلقات خارج المسجد، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان إذا صلى السبحة وفرغ؛ دخل مربداً له، فأرسل إلى فتيان قد قرؤوا القرآن؛ فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرف.

وقد وردت إشارة عن دار القراء بالمدينة، وكانت قائمة بعد بدر الكبرى - على الأقل - واسمها يدل على الاهتمام بقراءة القرآن الكريم^(٣).

(١) البخاري ٣/ ٣٤١ ح (٥٠٠١).

(٢) مسلم ١/ ٥٥٧ ح (٨١٢).

(٣) عصر الخلافة الراشدة ص ٢٦٧.

الفصل الأول: التربية القرآنية في الحلقات

- الحلقات القرآنية والتربية بالمشاني.
- لماذا ندعو إلى التربية القرآنية في الحلقات؟
- التربية القرآنية في العهد المكي.

الحلقات القرآنية والتربية بالمثاني

الحلقات والمؤسسات القرآنية قدمت نموذجاً رائعاً في العالم الإسلامي في استنقاذ الأجيال من مخالب الاستعمار الثقافي والفكري، وذلك حين أعادت كتاب الله العزيز إلى اهتمامات الأطفال والشباب من خلال حلقات القرآن الكريم المنتشرة طويلاً وعرضاً. وهو جهد عظيم مشكور، لكن واقع الممارسة التعليمية في كثير منها بحاجة إلى مزيد تأصيل وتنظير، للارتقاء بأداء العملية التعليمية داخل هذه الحلقات والمؤسسات القرآنية.

وفيما يلي عرض لمنهجية **المثاني**، وهي مستمدة من كتاب الله تعالى وتطبيق رسول الله ﷺ لها وأصحابه الكرام ﷺ.

« كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي »:

يقول المولى الكريم: (اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي نَقَشِعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾)

[الزمر: ٢٣]

«مَثَانٌ»..

ما معنى «مَثَانٌ»؟

قال الراغب الأصفهاني: «الثنى والاثنان أصلٌ لتصرفات هذه الكلمة. ويقال ذلك باعتبار العدد، أو باعتبار التكرير الموجود فيه، أو باعتبارهما معاً»^(١).

وقال الطاهر ابن عاشور: «يطلق على معنى التكرير؛ كني عن معنى التكرير بمادة التثنية لأن التثنية أول مراتب التكرير، كما كني بصيغة التثنية عن التكرير في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [المك: ٤]»^(٢).

هذا تحليل لغوي لكلمة «مَثَانٌ» من الراغب الأصفهاني وابن عاشور. فماذا قال أئمة التفسير في معناها والمراد منها؟

قال ابن عباس والسدي: «كتاب الله **مَثَانِي**، ثنى فيه الأمر مراراً». وقال السدي أيضاً: «(مَثَانِي) ثنى في غير مكان».

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٩٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٣٨٦/٢٣.

وقال ابن زيد: «مردّد؛ ردّد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء في أمكنة كثيرة»^(١).

وقال الضحاك: «ترديد القول، ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى»^(٢).

مما سبق من أقوال المفسرين يتضح أن لفظة **مَثَان** تدلُّ على التكرار، أي تكرار الأمر في أكثر من موضع، وأياً كان هذا الأمر، سواء كان حكماً تكليفيّاً، أو خبراً، أو توجيهاً، بغرض الإفهام وإبلاغ الرسالة المقصودة. وهذا يقتضي أن **مَثَانِي** تعني شيئين متلازمين: التكرار، والإفهام.

لوطبّقنا ذلك على العديد من الموضوعات القرآنية، لوجدنا أنّها - في عمومها - تتكرر متخذة أساليب متنوعة وطرائق مختلفة، بغرض التأكيد والإقناع والإفهام. وبهذا التكرار وذلك التنوع أثنى الله تعالى على كتابه العزيز فقال عنه: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾، ومن حُسْنِه وجماله وإحكام نظمه وإتقان سرده أن يكون **مَثَانِي** تكرر فيه القصص والأحكام والحدود. هذا

(١) تفسير الطبري ٢٣/٢١٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/٩٣.

أمرٌ أخفقت القوانين الوضعية والدساتير والنظم الاصطلاحية في مجارة القرآن الكريم فيه أو الاقتباس منه.

القرآن الكريم لا ينطق بالحكم مرّة واحدة كنصّ مادةٍ في لائحة تنظيمية أو جزائية. كلا! إنه يتكرّر وبأشكال مختلفة: إنه في سورة ينطق بالحكم مرّة، وفي سورة أخرى ينطق ثانية، وفي سورة ثالثة ينطق ثالثة، وفي سورة رابعة يضمّن الحكم في كلام عام.. وهكذا.

والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن القرآن حين يبيّن حكم الله فإنه يلتفت إلى هذه الطبيعة البشرية الضعيفة والمرهفة، فيخاطب فيها الوجدان ويحرك الضمير ويتفاعل مع المشاعر، بينما تلك القوانين تخاطب الإنسان لا على أنه إنسان، بل على أنه جماد.. مادة صلبة مفرغة من الروح والمشاعر.

قال ابن عاشور: «وهذا يتضمن امتناناً على الأمة بأن أغراض كتابها مكرّرة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل. ويتضمن أيضاً تتيهاً على ناحية من نواحي إعجازه، وهي عدم الملل من سماعه وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكراره قبولاً وحلاوة في نفوس السامعين»^(١).

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٨٧/٢٣.

تطبيق على المثاني:

تأمل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الحكم الشرعي الصريح هنا: تحريم أكل الربا، لكن هذا الحكم المحكم جاء ضمن خطابٍ موجَّهٍ إلى الوجدان وحديثٍ مع العقل وحديثٍ مع المشاعر؛ الأمر الذي يجعل المؤمن الصادق يبتعد - متحرِّياً في ذلك قدر الإمكان - عن أكل الربا والطرق الموصلة إليه، في وقت زعموا أن الربا ضرورة اقتصادية! وكل شيء حولك يدعوك إلى اليسير من الربا والكثير منه، المصارف تلاحقك وتغريك لكن ضميرك ووجدانك يمنعانك من أكل الربا.

القرآن الكريم تعرّض لهذا الحكم في غير موضع:

« ﴿يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الرِّبَا وَالصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

[البقرة: ۲۷۶]، ففي هذه الآية مقارنة بين الربا والصدقات

من وجه، وهي عملية نقدية تخاطب العقل.

« ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتِمْ

فَلَکُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِکُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩)

[البقرة: ۲۷۸-۲۷۹]، هذه الآية فيها أمر صريح بالترك،

مصحوباً بالأمر بتقوى الله، والتهديد في حال ترك

الامثال لأمر الله ونهيه بحرب الله تعالى، وهذا خطاب

وجداني تكاد القلوب تنفلق من هيئته. كما أجابت الآية

على سؤال مفترض وهو: لو تُبنا يا ربنا فكيف نفعل

بأموالنا؟ فهي خطاب للعقل بإيضاح الإجراء المناسب

في حال تاب العبد من الربا.

« ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۗ

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

[آل عمران: ١٣٠-١٣٢]؛ اشتملت هذه الآية على نهي صريح عن أكل الربا، وسانده بخطاب وجداني يتحدث عن النار ورحمة الله بمن أطاعه ورسوله ووعدت بالفلاح لمن اتقى الله.

كل هذا الحشد من النصوص غرضه الأخير: أن يتجنب الناس تعاطي الربا، ولكن لحاجة هذا الإنسان إلى الاقتناع من داخل عقله وضميره جاءت بهذا التنوع.

ويمكنك تطبيق ذلك على سائر الموضوعات التي عاجلها القرآن الكريم: كالإيمان باليوم الآخر، والتعامل مع المخطئين، على سبيل المثال لا الحصر.

قال ابن سعدي رحمه الله: «لما علم الله احتياج الخلق إلى معانيه المُرَكَّبَةِ للقلوب، المكَمَّلَةِ للأخلاق، وأنَّ تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار؛ فكما أن الأشجار كلما بَعُدَ عهدُها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرَّر سقيها حسنت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب

يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مدة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعاً تحصل النتيجة منه»^(١).

العلامة ابن سعدي رحمه الله يركّز هنا على الحاجة إلى المعاني، ثم هو يشير إلى أهمية تكرر هذه المعاني، لتحقيق هدفٍ تربوي؛ وهذا بالضبط هو مفهوم **المثاني**.

منهجية المثاني تُربي الضمير والوجدان:

النص القرآني يربي في الإنسان الضمير والوجدان، ويضيئها بنور الوحي ويجعلها حاكمة على تصرفاته، وبالتالي لا يكون الإنسان بحاجة إلى الرقيب الخارجي أو إلى تلك النظم الكثيرة التفاصيل لكي تحدّ من مخالفاته؛ هكذا يربي القرآن الكريم المؤمنين ويجعل كلّ فردٍ منهم قرآناً يمشي على الأرض.

إن من أهم النتائج التي ينبغي التنبه لها أن القرآن الكريم يسلك مسلك التكرار المتنوع الأساليب ليحصل المقصود منه، وهو تربية النفس الإنسانية على ما يريد الله تعالى:

(١) تفسير ابن سعدي ٤/١٥١٦.

﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ [ص: ٢٩] ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا
التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

ويمكن تلخيص أغراض **المثاني** بقول الضحاك السابق:
«ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى».

وحين نتحدث عن «التربية القرآنية في الحلقات» فنحن نتحدث عن ثلاثة أشياء: الطلاب، وكتاب الله، وتعليم كتاب الله. ولا يمكن أن تتفاعل هذه الأشياء الثلاثة لتخريج قراء يفهمون مراد الله من كتابه ويعملون به إلا بوسيط يعرف الكتاب ومعانيه، ويقوم بتربية الطلاب عليه: ذلكم هو معلم القرآن.

مُقَرَّرٌ مُرَبٌّ:

مع كون هذا القرآن الكريم نزل من عند الله، والله قادرٌ على أن يجعل كتابه مربياً بذاته، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ فَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، ومع كونه نزل بلغة العرب، يخاطبهم وهم في أوج فصاحتهم، ومع كونه **مثاني** من طبيعته التكرار والإفهام

ومراعاة النفس الإنسانية، ومخاطبة الوجدان والضمير... مع ذلك كله، إلا أن الله تبارك وتعالى جعل في الناس رجالاً منهم يقوم بمهمة تعليم القرآن: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، أما الآية الثالثة فهي تفيد ثلاث وظائف لهذا الذي يعلم الناس ما أنزل الله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الأولى: الإقراء، الثانية: التزكية والتربية، الثالثة: تعليم الأحكام. قال ابن سعدي: «فكانوا [أي الصحابة] بعد هذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين»^(١).

(١) تفسير ابن سعدي ٤/ ١٨٢٧.

ولو استدعينا المثال التطبيقي على **المثاني** في هذا الموضوع لوجدنا أن المعلم هو من يقوم بمنهجية **المثاني** فيقري ويربي ويعلم: يقوم بحشد النصوص الموجهة للمفاهيم ويستخرج من كل نص فيها ما يريد الله، ويتعلم من القرآن التنوع والتكرار في غرس المفاهيم.

إن إقراء كتاب الله تعالى وترك التربية على معانيه وأحكامه خللٌ منهجي، ومخالفةٌ لنا موسى القرآن **المثاني**، وابتعادٌ عن منهج رسول الله ﷺ وصحابته الكرام في تعليمهم وتعلمهم للقرآن الكريم (يتلو - يزكي - يعلم).

إنَّ إقراء القرآن الكريم والتربية عليه، وإن كانا أمرين يختلف أحدهما عن الآخر، إلا أنه يجب الإقراء والجمع بينهما، ولا يكون ذلك إلا من خلال مقرئ يمارس الدور التربوي.

تفاضل في الفهم والرسوخ:

لا يستوي التلاميذ والمتعلمون بعد وقوع التربية عليهم في التلقّي والاستجابة والتأثر والانتفاع، وهذا أمر طبيعي.

وليس شرطاً من قيام عملٍ تربوي يستمد منهجيته من كتاب الله تعالى أن يكون الجميع في مستوى واحد، أو مستوى متوقع. ولقد كان الرعيل الأول كذلك، مع أن القرآن نزل بين ظهرانيهم، والذي قام بتربيتهم عليه هو رسول الله ﷺ إلا أنهم متفاوتون في مستويات وطبقات بحسب رسوخ معاني القرآن وأحكامه في قلوبهم: فسيدهم أبو بكر خير رجل طلعت عليه الشمس بعد الأنبياء عليهم السلام، ثم سائر الخلفاء الراشدين على التوالي، ثم سائر العشرة المبشرين بالجنة، والبدريون وأصحاب بيعة الرضوان؛ هذا هو قانون التربية على القرآن.

ولذلك نبّه القرآن الكريم على هذا الأمر؛ ففي السياق ذاته لقوله تعالى: ﴿مَثَانِي﴾ قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَاتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، قال ابن عاشور: «إنزال الماء من السماء تشبيهٌ لإنزال القرآن

لإحياء القلوب، وإسلاك الماء ينابيع في الأرض تشبيهه لتبليغ القرآن للناس، وإخراج الزرع المختلف الألوان تشبيهه لحال اختلاف الناس من طيب وغيره، ونافع وضار، وهياج الزرع تشبيهه لتكاثر المؤمنين بين المشركين... وقريب من تمثيل هذه الآية ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

وقال القرطبي في أحد الأقوال في: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: «أي ديناً مختلفاً بعضه أفضل من بعض، فأما المؤمن فيزداد إيماناً و يقيناً، وأما الذي في قلبه مرض فإنه يهيج كما يهيج الزرع»^(٢).

(١) تفسير التحرير والتنوير ٣٧٦/٢٣. والحديث أخرجه البخاري ٤٥/١ ح (٧٩). ولا يفوتني هنا أن أشير إلى قول قوي في هذه الآية، وهو القول الذي يشير إلى التشبيه بالبعث يوم القيامة.

(٢) تفسير القرطبي ١٦٠/١٥.

المثناني منهج تربوي:

منهج **المثناني** بما يحويه من إيضاح المفهوم وتكراره بطرق مختلفة وبما يحتاجه من معلّم مقررٍ مربّب، وبما ينتج عنه من قراء متفاوتين يعد منهجية تربوية تُلزم معلّم القرآن الكريم في الحلقات القرآنية وغيرها من المؤسسات التي تعلّم القرآن الكريم، وهذه المنهجية في تعليم القرآن الكريم هي التي كان يتبعها أصحاب النبي ﷺ في مسيرتهم التعليمية.

لم يكن إقراء القرآن بدون الإفهام والتكرار والتربية عليه أمرًا متبّعًا عند الصحابة رضي الله عنهم بل هو أمرٌ طارئٌ وحادثٌ، وسيمرُّ معنا في الحديث عن حلقات ابن مسعود وأبي الدرداء رضي الله عنهما شيء من ذلك. قال الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهنَّ إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم العلم والعمل به. وسيرتُ بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم»^(١) بل نصَّ ابن مسعود على

(١) معرفة القراء الكبار ١/١٤٨.

هذه المنهجية؛ فعن شريك عن عطاء عن أبي عبد الرحمن عن ابن مسعود قال: «كنا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيه» قيل لشريك: من العمل؟ قال: نعم^(١). الجدير بالذكر أن أبا عبد الرحمن السلمي قرأ القرآن على عدد من أصحاب النبي ﷺ: عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت^(٢).

ابن عمر ﷺ له رواية توثيقية في منهجية تعليم القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ، يقول: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فيتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده فيها كما تعلمون أنتم القرآن. لقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته؛ ما يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه، ينثره نثر الدقل»^(٣).

(١) مستدرک الحاكم ١/٧٤٣ رقم (٢٠٤٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) معرفة القراء الكبار ١/١٤٧.

(٣) مستدرک الحاكم ١/٩١ رقم (١٠١)، وصححه ووافقه الذهبي.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين، فذلك إنما قبلوه لأنهم قد علموا أن الصحابة بلغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعاً، كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يُعلم بالضرورة من عاداتهم، فإن الرجل لو صنّف كتابَ علمٍ في طب أو حساب أو غير ذلك، وحفظه تلامذته، لكان يعلم بالاضطرار أن هممهم تشوّق إلى فهم كلامه ومعرفة مراده، وإنه بمجرد حفظ الحروف لا تكتفي به القلوب، فكيف بكتاب الله الذي أمر ببيانه لهم، وهو عصمتهم وهداهم وبه فرق الله بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغبي، وقد أمرهم بالإيمان بما أخبر به فيه والعمل بما فيه، وهم يتلقونه شيئاً بعد شيء، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وهل يتوهم عاقل أنهم كانوا إنما يأخذون منه مجرد حروفه وهم لا يفقهون ما يتلوه عليهم، ولا ما يقرأونه، ولا تشتاق نفوسهم إلى فهم هذا القول، ولا يسألونه

عن ذلك، ولا يتدئ هو بيانه لهم؟! هذا مما يعلم بطلانه أعظم مما يعلم بطلان كتابهم مما تتوفر المهمم والدواعي على نقله»^(١).

ومنهجية **المثاني** تقتضي الظرف الزماني الطويل في حفظ القرآن الكريم وتعلمه وتعليمه. هذا يجيى بن وثاب التابعي الجليل، أخذ القراءة عرضاً عن علقمة ومسروق والأسود والشيباني وأبي عبد الرحمن السلمي، قال الذهبي عنه: «والثبت أنه قرأ القرآن كله على عبيد بن نضلة صاحب علقمة، فحفظه كله عليه، كل يوم آية فيما قيل»^(٢). وقال ابن عمر: «تعلّم عمر [يعني ابن الخطاب] البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمّا تعلّمها نحرَ جزوراً»^(٣). وإن على الحلقات والمؤسسات القرآنية اليوم أن تلتفت إلى هذا الأمر وأن تنسّق جهودها التعليمية القرآنية مستضيئة بما كان عليه سلف الأمة. يقول د. محمد لطفي الصباغ في تحليله لرسالة ابن تيمية في أصول التفسير:

- (١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد ص ٣٣٠.
- (٢) معرفة القراء الكبار ١/ ١٦٠.
- (٣) تاريخ الإسلام ٢/ ١٤٦.

«يبدأ ابن تيمية في رسالته القيّمة في أصول التفسير بفصل يعالج موضوعاً مهماً من موضوعات هذا العلم وهو تدبر القرآن وكيفية دراسته. وينبّه إلى أن تدبر القرآن ودراسته ينبغي أن يختلفا عن دراسة غيره من الكتب البشرية، ذلك لأن هذا الكتاب إنما أنزل ليعمل به الناس وليحكم حياة المسلمين. والعمل به مفتقر إلى فهمه وتدبره.

وذكر ابن تيمية رحمه الله أن السلف الصالح كانوا يسيرون على هذا المنهج: كانوا يتدبرون القرآن ويفهمونه، مستعينين بتبيين النبي ﷺ الذي بيّن لفظه ومعناه لهم، وأنهم كانوا يعملون به، وأورد تلك الآثار المشهورة، من أن الصحابة من أمثال عثمان بن عفان ؓ وعبد الله بن مسعود ؓ وغيرهما كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات يتوقفون فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يعملوا، فتعلموا القرآن علماً وعملاً جميعاً.

وهذا يفسّر لنا الأخبار التي تذكر بقاء أحدهم مدة طويلة في حفظ سورة من سوره، فابن عمر ؓ يبقى ثمانين سنة في حفظ سورة البقرة.

هذا أمر طبيعي جداً، لكن المسلمين في العصور التي تلت عصر الصحابة لم يقوموا بهذا التدبير، ولعلَّ السبب الأهمَّ في هذا هو أنهم تركوا منهج الصحابة في قرن العلم بالعمل، بل أصبح من يدرُس القرآن منهم يدرسه على أنه كتاب ثقافة فيها الفقه والنحو والكلام وما إلى ذلك.. وما كان الناس مستعدون لدراسة هذه العلوم ولم يُطلب من الناس كلهم ذلك، بينما نزل القرآن للعمل، ومطلوب من الناس كلهم أن يعملوا به»^(١).

من خلال مناقشتنا لمنهجية **المثاني** يمكننا تلخيص طريقة الصحابة في حفظ القرآن وتعليمه في ثلاث نقاط على التوالي:

« التؤدة في الحفظ والتعليم وعدم الاستعجال.

« يقرنون الحفظ بالفهم.

« يقرنون الفهم بالعمل.

وكأنَّ العلامة القاري يستدرك على مفهوم خاطئ في تعلُّم القرآن وتعليمه، فقال في المرقاة في شرحه لحديث «خيركم من

(١) بحوث في أصول التفسير، د. محمد لطفي الصباغ، ص ٨٣.

تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»: «ولا يتوهم أن العمل خارج عنهما لأن العلم إذا لم يكن مورثاً للعمل ليس علماً في الشريعة، إذ أجمعوا على أن من عصى الله فهو جاهل»^(١).

إنها دعوة للمؤسسات القرآنية المباركة أن تتبنى منهجية **المثنائي** في مسيرتها التعليمية، وأن تبني إشرافها التعليمي على هذا الأساس، فإنها منهجية أصيلة، والعمل على إحيائها من التجديد المحمود والمطلوب، لا سيما في عصرنا هذا الذي وفدت علينا فيه ثقافات تربوية متعددة.

(١) انظر: تحفة الأحوذى ٨/ ١٧٩.

لماذا ندعو إلى التربية القرآنية في الحلقات؟

أولاً: لأنها منهج رباني ارتضاه الله تعالى لنبيه ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فلم يكن النبي ﷺ مقتصرًا في رسالته على تلاوة ما نزل من كتاب الله ليحفظه أصحابه الكرام، بل كان شارحًا لمراده، مبينًا لأحكامه، بوحى من الله يأمره بذلك. فهو ﷺ يجمع - كما نصّت الآية - بين العناية بالحفظ وباللفظ ومعناه (يتلو)، وبين تربية الناس عليه (يزكيهم)، وبين تعليم أحكامه (يعلمهم).

أي عملية تعليمية تُعنى بحفظ الحروف دون الإفهام وتعليم الأحكام وتزكية النفوس هي عملية تعليمية ناقصة، لقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ذلك، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي في الأثر السابق ذكره: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به».

ولعلَّ ذلك هو المعلل لنزول القرآن الكريم مفرقًا بحسب الأحداث والمواقف والوقائع، ليكون مؤثرًا على قلوب من يتلقونه ويسمعونه ويحفظونه، ويقع منها موقعًا عميقًا، يغيّر من سلوكهم ويهدّب نفوسهم: تنزل الآية من كتاب الله فيحفظونها، ويعرفون معناها، ويعتقدون توجيهاها.

تأمّل حال الصحابة ﷺ حين رجعوا من الحديبية كسيري النفوس، قد صدّوا عن المسجد الحرام، وبالكاد حلّقوا رؤوسهم ونحروا بطنهم.. أعينهم ترمق مكة، وقلوبهم هوت إلى البيت العتيق، وأماهم تعانق الفتح الكبير.. حينها نزل قول الله الكريم: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]؛ تأمّل كيف استثمر القرآن الحالة الوجدانية لأصحاب النبي ﷺ ليغرس في أعماق وجدانهم مفهومًا مهمًا عن حقيقة الفوز عند الله، وأنّ دخول الجنة وتكفير السيئات هما أعظم المرباح وأحسن الجوائز، وأنها أكبر من الانتصار على الكافرين، وأنها يكونان بالإيمان وطاعة الرسول ﷺ.

لقد رجع أصحاب النبي ﷺ من هذا الموقف ومن هذه الآيات بمفاهيم تربوا عليها وازدادوا في هذا الدين رسوخاً؛ الأمر الذي دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن يعمل أعمالاً صالحة يرجو بها تكفير مراجعته للنبي ﷺ في الحديبية.

إن منهج النبي ﷺ في تعليم القرآن الكريم - المنهج الذي يجمع بين التعليم والتزكية والتلاوة - هو المنهج المؤثر وهو المنهج الذي ارتضاه الله لرسوله ﷺ.

ثانياً: يتلونه حق تلاوته:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحلّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقراه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله». وعن مجاهد قال: «يتبعونه حقّ اتباعه»^(١).

هذه الآية يتبين أنّ المدح والرفعة والشأن كل الشأن ليس لمن يقرأ القرآن ويحفظه فحسب، بل الشأن كل الشأن لمن فعل

(١) تفسير ابن كثير ٤٠٧/١.

ذلك ثم اتبع أحكامه وعمل بما فيه، وهذا هو حق التلاوة. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن لفظ التلاوة إذا أُطلق في مثل الآية السابقة تناول العمل بالقرآن كما تقدم عن ابن مسعود وغيره^(١).

إن تعليم القرآن الكريم تلاوة ولفظًا دون تعليمه أحكامًا وأدبًا ضعفٌ في المهمة التعليمية، ولا يكون تعليم القرآن في الذروة من الفضل والأجر والتأثير إلا إذا أُتبع إقراء القرآن بتعليم العمل به، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران»^(٢).

فإذا كان هذا فضل أهل القرآن العاملين، فكيف بفضل معلّمي القرآن الذين يرثون التلاميذ على العمل بما فيه!

كيف بفضل معلّمي القرآن الذين خرّجوا تلاميذ يتلون كتاب الله حقّ تلاوته!

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٦٧.

(٢) مسلم ١/ ٥٥٤ ح (٨٠٥).

وإننا بحاجة في هذا الزمان إلى حلقات تخرِّج طلابًا يتلون القرآن حق تلاوته، يحلون حلاله ويحرمون حرامه، ولا يكون ذلك إلا بالتربية القرآنية التي يمارسها معلم القرآن الكريم.

ثالثًا: ذمُّ من يحفظ القرآن الكريم دون أن يفهم معانيه أو يعمل بأحكامه:

جاءت الشريعة بدم حافظ القرآن المضيِّع لأحكامه والمفرط في العمل به والمنتهك لحدوده، ففي سياق امتنان الله على هذه الأمة بأن بعث فيها الرسول ﷺ معلمًا ومزكيًا ومفهمًا نَبَّه القرآن على أن من صفات اليهود المعرفة دون العمل، محذرًا من سلوك سيئ لهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْدَةَ كَمَثَلِ الْجَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. قال القرطبي: «وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلَّم معانيه ويعلم ما فيه لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء»^(١).

(١) تفسير القرطبي ٦٢/١٨.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرؤيا التي رآها، قال: «أمّا الذي يثلغ رأسه بالحجر، فإنه يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن المكتوبة»^(١) وفي رواية: «والذي رأيت يشدخ رأسه فرجلٌ علّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل به في النهار»^(٢).

ونعى الله تعالى الذين لا يتدبرون القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ونعى الله تعالى قوماً آخرين فقال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] قيل في تفسيرها: إلتالوة^(٣). فلم يعلموا ما فيه، ولم يعملوا بما فيه. قال الفيضيل: «إنما نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً»^(٤).

العديد من الآيات والأحاديث تذم الاكتفاء بقراءة القرآن وحفظه دون فهمه والعمل به، فليس لقارئ القرآن حظ من

(١) البخاري ٤/ ٣١٠ ح (٧٠٤٧).

(٢) البخاري ١/ ٤٢٦ ح (١٣٨٦).

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥.

(٤) أخلاق حملة القرآن للأجري ص ٣٧.

الرفعة والأجر دون أن يُتبع ما حفظه بفهم وعمل.

قال الحسن البصري رحمه الله: «إن هذا القرآن قد قرأه عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، وما تدبّر آياته إلا باتباعه، وما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، ما يرى القرآن له في خُلُق ولا عمل، حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ السورة في نَفْس! والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة. متى كانت القراء مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس أمثالهم»^(١).

ويقول ابن عمر رضي الله عنهما: «كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها. ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به»^(٢).

(١) الزهد لابن المبارك ص ٢٧٦.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٣٩.

ولذا كان لزامًا على معلّم القرآن أن يشفع تعليم حروفه بتعليم حدوده، وإلا فسيخرج طلابًا يقرؤون القرآن ولا يعملون به، يلحقهم الذم وينالهم الإثم فيما بعد.

رابعًا: الحلقات القرآنية من أقوى المحاضن في الجاهزية التربوية:

يعدّ المحضن التربوي أحد الركائز الأساسية في العمل التربوي، حيث الوسط الذي يتفاعل فيه التلميذ مع أقرانه ونظرائه، ويتلقى فيه المفاهيم التربوية، وتعالج فيه أخطاؤه وتصحح فيه انحرافات. وهو البيئة التي يتمكن المربي فيها من غرس القيم والمفاهيم، ويتعاهد سقيها ورعايتها، وينقح فيها هذه المفاهيم والقيم مما يشوبها. وهو المكان الذي يلبي التلميذ فيه كافة احتياجاته الشخصية: الوجدانية والجسدية والعقلية والاجتماعية والثقافية.. يبدع وابتكر، يشارك ويقود.

ولو قمت بمقارنة بين المحاضن التربوية من جهة أثرها في العمل التربوي لوجدت أن الحلقات القرآنية من أقواها تأثيرًا، إن لم تكن هي الأقوى، لما في هذه الحلقات من الجاهزية التربوية

التي تعين المعلم على أداء دوره التربوي بكفاءة وفاعلية.

وتتمثل الجاهزية التربوية في حلقات تعليم القرآن الكريم في عدة جوانب، كل واحد منها يعدُّ كافيًا لإنجاح عمل تربوي، فكيف بها مجتمعة! منها: تأثير البيئة وهي المسجد بيت الله، مكان مقدَّس مبارك حيث ضيافة الرحمن. عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله! أي البلدان أحب إلى الله؟ وأي البلدان أبغض إلى الله؟ قال: «لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام» فأتاه جبريل عليه السلام فأخبره أن «أحب البقاع إلى الله المساجد، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق»^(١).

وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من توضأ وجاء إلى المسجد فهو زائر الله، وحقُّ على المَـزُورِ أن يُكرَم الزائر»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما توطنَ رجل المساجد إلا تبشَّش الله إليه كما يتبشَّش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم»^(٣).

(١) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٨ ح (٣٢٥).

(٢) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٤٨ ح (٣٢٢).

(٣) صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٢٥١ ح (٣٢٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكروهم الله فيمن عنده»^(١).

هذه الآثار التي سردتها في فضل المسجد والجلوس وفيه، وغيرها كثير، تدلُّ في مجموعها على الأثر الجميل على التلميذ في الحلقة، حيث الأمان النفسي، والهناء الداخلي، والسعادة القلبية، والسرور والبهجة؛ بركة المكث في المساجد والجلوس بين يدي أهل القرآن، حيث تتعاقب الكفوف على حمل المصاحف.

هذه المعاني الدافئة والعميقة التي يجدها التلميذ في بيت الله وهو متطهر يقرأ كلام الله، تجعل منه قلبًا مفتوحًا للتوجيه التربوي المصاحب لتلاوة آيات القرآن الكريم.

إن التلميذ حين تملؤه المخاوف، ويكتنفه الاضطراب، لا يستطيع استيعاب التوجيهات ولا التطلع للسير نحو الكمال. لهذا كان المسجد، وهو يحتضن الحلقة القرآنية مصدرَ طمأنينة،

(١) مسلم ٤/٢٠٤٧ ح (٢٦٩٩).

وفرصَةً لأهل التربية ليرتقوا بتلاميذهم إلى الكمال البشري فيعلّمونهم مراد الله من كتابه، ويؤدّبونهم بأدابه.

أصحاب النبي ﷺ والتابعون وأئمة العلم والسنة والفاتحون والمعلمون... كل هؤلاء تخرجوا في المساجد، وتلقوا فيها القرآن وتربوا عليه، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح أولها.

ومن جوانب الجاهزية التربوية في الحلقات القرآنية: الاختيار، إذ يغلب على تلاميذ الحلقات القرآنية أنهم التحقوا بها رغبة واختيارًا دون ضغط أو إكراه، ودون عقوبة أو حرمان. هناك دوافع متعددة تجذب التلميذ إلى الحلقة، يشملها إطار «الاحتياجات النفسية» في الغالب، وبذلك يكون التلميذ قد أعطى زمام قلبه لمعلّمه، ليقوده إلى روح القرآن.

خامسًا: المنهج المتفرد:

المنهج المتوافر في حلقات تعليم القرآن الكريم منهج متفرد: متفرد في الأهداف، متفرد في المحتوى، متفرد في الوسيلة.

الأهداف التي يسعى إليها معلمو ومشرفو الحلقات القرآنية أهداف نبيلة وغايات سامية، وأهم أهداف تعليم كتاب الله تعالى أن يكون الإنسان متوجهاً بقلبه وبعوارحه إلى الله في كل حركاته وسكناته: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وهذا هدف عام وغاية عظيمة يمكن الوصول إليها إذا صنع المعلمون والمشرفون أهدافاً واتبعوا السبيل نحوها، ويمكن أن تشمل هذه الأهداف تعظيم الشعائر التعبديّة والورع عما يكرهه الله ويسخطه، والأخلاق الحسنة، والآداب العمليّة... وغيرها من الأهداف التي تحقق معنى العبودية لله.

والمحتوى الأساس في الحلقات كتاب الله، وهو الكتاب المحكم المفصل، لا يأتيه الباطل، معصوم؛ لا أقول معصوم من النقص فحسب، بل هو معصوم من شوائب الكمال والجمال والجلال. والتربية على منهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن منهج معصوم، يقي التلميذ من كل عقيدة فاسدة أو فكرة هدامة أو سلوك منحرف: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إنها فرصة المربين في الحلقات أن يستقوا من هذا المعين لِيُشِئُوا الأجيال الصاعدة على فهم كتاب الله تعالى والعمل بأحكامه والتأدب بآدابه، وهم آمنون من زلل المنهج واضطراب الفكر.

والوسيلة المتبعة هي تعليم القرآن تلقيناً وتسميعاً وتوجيهاً. كل حرفٍ له به حسنة إلى عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف. وثبت في الدراسات والأبحاث المتعددة أن ملازمي القرآن هم الأوفر تحصيلاً والأكثر ذكاء والأقوى في مهارات التفكير، وهذا سيكون له الأثر الكبير في غرس المفاهيم والقيم والتربية عليهما.

سادساً: الآثار السلبية المترتبة على خلو الجو القرآني من الجانب التربوي:

في البناء عناصر تصل به إلى الجودة وعناصر تصل به إلى ما فوق الجودة وهو الإبداع، وبفقد شيء من عناصر الجودة يصبح البناء مشوهاً فيه ضعف وتواء. وهكذا الجانب التربوي؛ فهو عنصر جودة للحلقة القرآنية، وبفقدته تفقد الحلقة جانباً رئيسياً من عناصرها. وعندما تفقد الحلقة أجزاء من بنائها، لاسيما

التربوي، فإن عددًا من المفاسد والأمور السلبية ستتنتج جراء ذلك، منها:

« بناء منهجية غير صحيحة لحفظ القرآن، حيث يكتفي التلميذ بحفظ سور القرآن دون التربية على العمل بما فيها؛ هنا سنتشأ أجيال تعتقد أن طريق القرآن هكذا، وأن حفظه أولى من تدبره والعمل به، وهذا أحد مسببات اختلال التوازن في بناء الفرد المسلم القارئ للقرآن اليوم.

« تنشأ صورة ذهنية لدى التلميذ أن القرآن الكريم لا يمكن العمل به أو تحكيمه في شؤون الحياة، أو على الأقل أن ذلك غير مطلوب من المسلم، حيث تمرُّ الكثير من الآيات التي تأمر وتنهى دون أن يكون لذلك أثر على حياته الخاصة، ودون أن يكون للمعلم تنزيل للآيات على واقع حياته.

هذه الصورة الذهنية تتسع يومًا بعد يوم.

وهذا منهج خفي غير مقصود، وهو الأخطر في تشكيل المفاهيم وتكوينها - على المدى البعيد - حيث يضعف اليقين بما أنزل الله لدى الأجيال الناشئة.

« يتفاجأ المجتمع بين الفينة والأخرى بسلوك وأعمال تصدر من بعض طلاب الحلقات لا تليق بأهل القرآن وطلابيه، وهذا يلقي بظلاله في التنفير من كتاب الله ومن مجالس تعليم كتاب الله. وحين يشب التلاميذ ويكبرون وهم على هذا الحال فسيكونون مثلاً سيئاً لحامل القرآن. وأذكر أنني وبعض زملائي ذات مرّة، وبينما نحن في رحلة تربوية رأينا مجموعة من الشباب من المرحلة المتوسطة والثانوية وما فوقها، يطبّلون ويطربون بلون شعبي من الغناء، فقدّمنا إليهم منكرين ومبينين لهم حرمة ما يفعلون، وكانت المفاجأة أنهم طلاب حلقة قرآنية! ومعهم معلمهم!

إنها الحلقات حين تخلو من الجانب التربوي.

ولقد لمست من خلال تتبعي لآثار السلف في تعليم القرآن الكريم تشديداً وحرصاً على ربط الحفظ والتسميع بالتربية والتأديب والتعليم، لقد كانوا أنفذ بصيرة في هذا الشأن، كما هو الحال في كل شؤونهم.

سابعاً: التباين في المخرجات بين التلاميذ في الحلقات التي تربي والحلقات التي لا تربي:

من واقع الخبرة في الإشراف على الحلقات هناك فرق كبير وواضح بين التلاميذ الذين تلقوا تربية في حلقاتهم، والتلاميذ الذين لم يتلقوا تربية بالقدر الكافي في حلقاتهم، من حيث الأدب، والسمت، والاستقامة على منهج القرآن، والمبادرة إلى الطاعات. بل ثمة فرق أيضاً بينهم في الإبداع، والحفظ، وحسن الأداء، وغير ذلك.

إنه القرآن الكريم، حين تصنع آياته النفس البشرية، فإنها تصهرها وتزكيها، ولا يحتاج إلى شيء إلا إلى معلم ماهر ومؤدب بارع، هو من يقوم بصهر التبر ليصنع منه سبائك ذهب تبهج الناظرين.

وقد شهد المجتمع بهذا التباين، وشهدت المدارس بوجوده، وأصبح شيئاً ظاهراً.

ثامناً: حاجتنا في هذا الزمن إلى التربية أشد من ذي قبل:

إذا كان السلف الصالح رحمهم الله ورضي عنهم حرصوا أشد الحرص على المنهجية المتكاملة في تعليم القرآن، والتي تجمع بين الحفظ والفهم والعمل، لما لها من أثر، ولما في التفريط فيها من خطورة، فإننا في هذا الوقت أشد حاجة، بل الحاجة ملحة، حيث كثرت وتنوعت قنوات التواصل مع التلميذ، وكثيرها غير منضبط، واتسعت رقعة التوجيه السلبي، فأصبح لزاماً على كل المحاضن الشبابية أن تقدم دوراً تربوياً وجهداً قيمياً، تحفظ في النشء مفاهيم الإسلام وتربيهم عليها.

ثم إن هذا النشء أحوج ما يكون إلى أن يتلقى توجيهاً سلفياً على منهج النبوة، يتحرزون به من الفكر الغالي، ويتحصنون به من الأفكار الهدامة والمذاهب الإباحية.

ضحُّ هائل على مدار الساعة، مليء بالشبه والأفكار الدخيلة والثقافات الأجنبية، يراد منه صياغة جيل لا يحمل من الإسلام إلا اسمه ولا يعرف من القرآن إلا رسمه، يزيح الدين عن شؤون الحياة ويقترف الآثام، وعلى معلمي الحلقات - كغيرهم

- أن يكونوا سداً منيعاً ضد هذا الوافد، وجبهة مقاومة وممانعة ضد هذا الدخيل.

وإن تأصيل مبدأ الاسترشاد بالقرآن وجعله مصدر هداية وتلقّ في نفوس الناشئة لمن أهم الواجبات المحتتمات على الحلقات القرآنية في هذا الزمان.

تاسعاً: المرحلة العمرية مرحلة تعلّم وتلقّ:

الأغلبية العظمى من التلاميذ الذين التحقوا بالحلقات القرآنية هم في مرحلة تعلّم وتلقّ، في مرحلة تكوين الشخصية وبنائها: الطفولة والمراهقة. هذا باب خير ومفتاح خير، وفرصة ثمينة، حيث التربية على كتاب الله في هذه المرحلة أسهل وأعمق من التربية في غيرها من المراحل العمرية.

وإذا كانت المؤسسات الرسمية في الدول تعتني بتطوير تعليمها لهذه المرحلة، وتصرف لأجل ذلك الكثير من المال، وتتيح لتحقيق أهدافها الكثير من الموارد فإن القائمين على المؤسسات القرآنية هم أولى بهذا التطوير والتجويد، لأن بين أيديهم أعظم منهج وأفضل منهج.

يجب عليهم أن يطوروا أساليب ومقررات تربيتهم لتلاميذهم على كتاب الله، وألا يأخذوا المسألة على أنها ثانوية بل هي أساس.

وإذا أوجدنا المنهج الرائع، وقدمناه للتلاميذ المتهيئين، فإن الأمل كبير بأن تكون مخرجاتنا جواهر آدمية، وجديرة بأن تكون قرآنًا يمشي على الأرض.

عاشراً: التربية على القرآن لها دورها الكبير في وحدة المجتمع وانسجامه:

التربية على هدي القرآن أعظم مؤثر في وحدة المجتمع، «فالتربية على الأخلاق الإسلامية والآداب القرآنية في بيئات الحلقات القرآنية تقوي انتماء الفرد لمجتمعه وتحقق له الأمن والأمان والطمأنينة النفسية في الحلقات القرآنية، حيث يتعلم الأخوة والإيثار والعدل والأمانة وغير ذلك من القيم الإسلامية التي يشعر معها بالأمان، وهذا يجعله يعمم هذا الشعور الإيجابي لدى الناس، فيحب لهم ما يحب لنفسه، ومن ثم يتعاون معهم، ويكون عطوفًا على الآخرين.

إن التربية في الحلقات القرآنية تقوي التواصل بين طلابها وبين المجتمع؛ لأن تعاليم القرآن تؤكد التواصل بين الناس وتوثيق الروابط بينهم وإشاعة المودة والحب والتعاون وإبعاد عوامل الشقاق والتقاطع والتدابير، وهذا ما يحتاجه المجتمع البشري في كل زمان ومكان، وتزداد الحاجة إليه في واقعنا المعاصر الذي سادت فيه قيم الحضارة الغربية وطغيان المادة في حياة الناس، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا^٤ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]«^(١).

حادي عشر: التربية على القرآن لها دورها الكبير في تنمية الطاقات وعمارة الأرض:

حيث التوجيهات الربانية التي حثت على عمارة الأرض واستثمار الطاقات بما ينفع عند الله في الدارين. ولا أدل على ذلك من التغيير الهائل الذي أحدثه القرآن في نفوس تلك الثلة المؤمنة التي صحبت النبي ﷺ فتحولت من عبادة للأصنام مختلي التفكير

(١) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٤.

محبطي الهمم إلى قادة للأمم تصنع الممالك والأمصار، تنشر العدل وتبعث الحياة في الناس. ربع قرن من الزمان، هو الوقت الذي استغرقتة التربية القرآنية لصناعة حضارة تهتم بالإنسان وتصنع الإنسان وترفع الإنسان.

إن التوجيهات القرآنية إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود، تبعث الطاقات المتنوعة التي أوجدها الله في كل إنسان، بما يناسبه، وكلٌ ميسَّر لما خُلق له، حيث حثت على العمل الصالح بمعناه العام، وحثت على فعل الخير بمعناه الشامل؛ فُتُبِنى شخصية التلميذ على العمل والمبادرة والمثابرة واستثمار الوقت، مما سيؤثر على مستوى النهوض بالأفراد والأمة.

إن التوجيهات القرآنية - إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود - تفتح عقل التلميذ وتنمي فيه كل أساليب التفكير الإيجابي وأنماطه، وتكسبه منهجية علمية سليمة؛ فهو ناقد ومبدع ومحلل، وتنمي فيه مهارة الاستدكار والحفظ؛ فهو حافظ متقن.

إن التوجيهات القرآنية - إذا تلقاها التلميذ عبر منهج تربوي مقصود - تحث التلميذ على الإسهام في بناء الحضارة، وتبني فيه حسَّ المسؤولية الحضارية وعمارة الأرض ورفاهية الناس الروحية فيصبح بانيًا للإنسان وحضارته.

ثاني عشر: التربية على هدي القرآن لها أثرها في حماية المجتمع:

التربية على هدي القرآن في الحلقات القرآنية له أثرها في حماية المجتمع من الجنوح والجريمة وبهذا يتحقق القول: افتح حلقة قرآنية تغلق سجنًا. ولو تتبعنا السيرة الذاتية للجانحين والمجرمين في دور الرعاية الاجتماعية والسجون فسوف نجد أن الملتحقين بالحلقات القرآنية لا وجود لهم غالبًا ضمن قائمتهم^(١).

وفي دراسة ميدانية حول أثر حلقات القرآن الكريم في تقويم سلوك السجناء، أعدها الباحث: سليمان العجيل عام ١٤٢٢هـ خرج الباحث بعدة نتائج، منها:

(١) أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي ص ١٣.

« أن ٨٢٪ من المتممين للحلقات وجدوا أن الحلقات غيّرت مواقفهم من أشياء معيَّنة وأعادت تصحيح مسار حياتهم.

« أن ٩١, ٦٪ من المتممين للحلقات واطبوا على قراءة القرآن واستغلال وقت الفراغ، بل إن ٨٩, ٢٪ يرغبون في حفظ القرآن كاملاً^(١).

والتربية على هدي القرآن في الحلقات القرآنية لها أثرها في حماية المجتمع من العدو الأجنبي حيث تنص توجيهات القرآن على ضرورة الاجتماع وعدم التفرق وتوفير منهجاً سليماً في التعامل مع الأعداء، يتفق الجميع عليه، وبالتالي سيكون هذا المجتمع الذي تربي على هدي القرآن وتعاليمه صفّاً واحداً لا يستطيع العدو اختراقه لا فكرياً ولا عسكرياً.

(١) انظر علاقة التحاق الطالب بحلقة تحفيظ القرآن الكريم ببعض المتغيرات التربوية دراسة ميدانية ص ٨٢.

التربية القرآنية في العهد المكي

تالله! إنَّ للحديث عن العهد المكيِّ رهبةً في القلب،
وخشوعاً في النفس! فلهه أعْبُدْ وإِماءُ وَصَحَّتْهُم شَمْسُ مَكَّة،
وأَنهَكَ أجسادَهُم العذابُ في سبيلِ الله!

وَفِدًا لذلِكَ الصَوْتِ الجهورِي المنبعثِ من تحتِ دروعِ
الحديدِ وقد صهرها وهج الصيف: «أحدٌ أحدٌ». وسُحِقًا وألْفُ
لعنةٍ على ذلك الشقي المجهال حين أنفَذَ الحَرْبَةَ في جسدكِ
الطاهر لأنكِ آمَنتِ باللهِ يا «سَمِيَّة».

جبالٌ من المتربِّين:

مؤمنٌ مكيٌّ ثالثٌ: سعد بن أبي وقاص الزُّهري رضي الله عنه، أسلم
في أيام الإسلام الأولى، وهو شاب في السابعة عشرة من عمره^(١)،
يقول: «مكثت سبعة أيام وإني لثلث الإسلام»^(٢). وكان على رأسِ
فريق من المسلمين يتخفَّون في شعاب مكة لإقامة الصلاة، وفيه
وفي غيره نزل قول الله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٩٦.

(٢) البخاري ٣/ ٢٧ ح (٣٧٢٧).

فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْحَظَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيْدِكُمْ بِبَصَرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[الأنفال: ٢٦]﴾، وعندما اصطدموا بالمشركين كان أول دمٍ أهرىق في سبيل الله على يديه، وحين أشار نبي الله ﷺ على أصحابه الذين لم يستطع أن يمنعهم من أذى قريش بالهجرة الأولى إلى الحبشة بقي سعدٌ ﷺ في صحبة النبي ﷺ في مكة، ولم يهاجر متحملاً في سبيل الله ما يلقاه من الأذى، وقد اجتهدت أمه في ردّه عن الإسلام بطريقة قاسية، لكنه استعصى على ذلك، مع برّه بها، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[العنكبوت: ٨]﴾.

هاجر مع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وشهد المشاهد كلها معه، ومنها بدر والحديبية، وبلاؤه في أحد لا يخفى، وكان من فرسان المسلمين، ومن حراس النبي ﷺ، وحين أصابه مرضٌ استأذن النبي ﷺ أن يوصي بماله كله، فأشار عليه النبي ﷺ بالثلث، ومات النبي ﷺ وقد شهد له بالجنة، وفي دولة أبي بكر الصديق ﷺ كان سعدٌ صاحب الرأي والمشورة.

وأمره عُمر بن الخطاب رضي الله عنه على جيش المسلمين في معركة القادسية، فكسر الفرس، وفتح المدائن، وأمره على العراق، فعمر الكوفة، ثم اتهمه أهلها زوراً وجهلاً بأنه لا يُحسن الصلاة! وهل مثل سعدٍ يجهل الصلاة! فرجع إلى المدينة، وجعله عمر من أصحاب الشورى الستة، وأمر بأن يستعين الخليفة من بعده به، ثم أمره عثمان رضي الله عنه على الكوفة مرّة أخرى.

وحين وقعت الفتنة اعتزلها هذا الأمير العملاق، وسكن حمراء الأسد وبقي فيها، وأثنى على موقفه هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم مات سنة خمس وخمسين محسناً ظنه بالله، فقال لابنه وهو على فراش الموت: «لا تبك؛ فإن الله لا يعذبني أبداً، وإني من أهل الجنة»^(١).

تأمل أيها القارئ الكريم الخط الزمني لحياة هذا الصحابي المكّي؛ فبرغم التحولات الحادة في حياته إلا أنّ جذوة الإيمان مستمرة الوهج، لا تحبو ولا تنطفئ في أي مرحلة منها. فتجده في مرأته متخفياً في شعاب مكة صافاً قدميه يصلي لله، ثم هو صابراً صامداً أمام موقف والدته منه، ثم هو جندي

(١) سير أعلام النبلاء ١/١٢٢.

في جيش المسلمين كأحسن ما ترى في الجندية إخلاصًا وثباتًا وإقدامًا، ثم هو الرجل المتواضع الذي لم تغرّه فتنة المال، فهو ينفقه في سبيل الله، ثم هو صاحب الرأي في دولة الإسلام، ثم هو القائد العسكري في المعارك، ثم هو الأمير المدني وباني الأمصار، ثم هو يترك الإمارة لشعب الرعية عليه، ثم هو الأمير مرّة أخرى، ثم هو صاحب الغنم في الشعاب بعيدًا عن الفتنة متورعًا عن الدماء، ثم يقضي بقية حياته عابدًا متنسكًا بعيدًا عن الأضواء.

لقد كان الإيمان في قلب سعد رضي الله عنه دليلاً له في كل أحواله، وثباته عليه كان سمةً له في كل ظروف حياته، لا الأذى صده عن دين الله، ولا فتنة الجاه ولا المال ولا الأضواء خطفته عن مستلزمات إيمانه، ولم تكن البيئات المختلفة التي عمل بها مؤثرة على مستوى إيمانه.. لقد عاش سعد وهو متمسك راسخ الإيمان في حين استضعاف المسلمين وفي حين قوتهم وفي حين دولتهم وفي حين فتنتهم.

رحمك يا رب!

لم يكن هذا الأمر محصورًا في شخصية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وإنما هو شيء مشترك في كل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين رباهم في مكة، حتى لقوا الله تعالى، وإن هذا الأمر ليستدعي التأمل والنظر إذا اعتبرنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد مخرجات التربية القرآنية في العهد المكي. وفي هذه الأسطر بإذن الله؛ سنسلط الضوء على ركائز التربية القرآنية في العهد المكي التي أخرجت لنا سعدًا والثلة المباركة التي على أكتافها نهض هذا الدين واستوى على سوقه.

ركائز التربية القرآنية في العهد المكي:

الركيزة الأولى: التربية على توجه القلب إلى الله:

كانت قريش تزعم أنها وريثة دين إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت تفاخر العرب بذلك، وساعدها على هذا الفخر توقعها حول الكعبة بمكة، ثم إنها أضافت إلى ذلك تشريعها لبعض الأنسك والشعائر، وتشريعها مخالفة العرب وتفردها ببعض الأمور في الحج.

لكنها في حقيقة الأمر تخلت عن جوهر دين إبراهيم، أي الحنيفية السمحة، ثم أشركت بالله الشرك الأكبر، وأعملته في قضايا رئيسية كمسألة الحاكمية، والتحليل والتحريم، واعتقاد النفع في غير الله، واستحالة بعض الأمور على قدرة الله، وابتغاء الرزق عند غير الله، واعتقاد أن البشر يملكون لبعضهم الحياة والموت.

عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فكان مما قال في خطبته عن الله عز وجل: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالهم الشياطين عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظرَ إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»^(١).

فجاء القرآن ليوحد توجهات القلب فتصبح توجهًا واحدًا لله: في عباداتك، ومعاملاتك، وأخلاقك، وسائر شؤون حياتك:

﴿وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا

(١) مسلم ٤/٢١٩٧ ح (٢٨٦٥).

حِبَارَةٌ أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا
 قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ فَسَيُعْذِرُونَ لِيكَ رءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ۗ قُلْ
 عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن
 لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

- ﴿٥٠﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا
 يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَيْتِلٍ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
 بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم
 بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا
 جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
 الْحَقُّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلْمَتِ الْبَرِّ
 وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِن أَنجَانَا مِن هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ
 اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ
 عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيُوعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ
 بَعْضٍ ۗ أُنظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٥].

حتى في دقائق المواقف وخلجات المشاعر كان القرآن الكريم
 يتعرض للتجرد، فحين أثنى الله عز وجل على أبي بكر الصديق ؓ في

إنفاقه المال على مصالح المسلمين لفت الانتباه إلى نيّة هذا الشيخ الفاضل، فقال سبحانه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ [الليل: ١٩-٢١]، عن قتادة قال: «نزلت في أبي بكر أعتق ناسًا لم يلتمس منهم جزاءً ولا شكورًا، ستة أو سبعة: منهم بلال، وعامر بن فهيرة»^(١). كان أبو بكر رضي الله عنه يعتق على الإسلام بمكة، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن، فقال له أبوه: أي بني! أراك تعتق أناسًا ضعفاء، فلو أنك تعتق رجالًا جلدًا يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك. قال: أي بتي! إنما أريد ما عند الله^(٢).

إنها تربية على التجرد والخروج من عبودية الذات، فقد تستطيع التخلص من كثير من المعبودات والأوثان والأصنام، أما التخلص من عبودية الذات فهي الخطوة الأصعب في توحيد الله والإخلاص له، وما الرياء وحب الشهرة والترؤس إلا بعض مظاهر عبودية الذات.

(١) تفسير الطبري ١٥/٢٢٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٥٦.

تنتشر اليوم الثقافة القانونية: «خذ حَقَّك»، هذا جيد، أمَّا أن تفضِّلها على معاني العفو والتجرد واحتساب الأجر فهذا يعني أن ثمة وثناً صغيراً يقبع في صدرك.

لقد خرج أصحاب النبي ﷺ الذين تربوا على كتاب الله تعالى من ذواتهم، فقدموا للإسلام كل ما يمكن تقديمه، وبإطالة على سيرة صحابي كجعفر بن أبي طالب ﷺ توقن أن هذه الثلة لم تكن تنظر إلا إلى الآخرة، ولم تكن تترقب شيئاً غير رضا الله سبحانه.

الركيزة الثانية: التربية على استصحاب مشاهد الآخرة:

عن يوسف بن ماهك، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه [أي: القرآن] سورة من المُفَصَّلِ، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية أعب ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦] ما نزلت

البقرة والنساء إلا وأنا عنده»^(١).

قال ابن حجر: «قولها: (حتى إذا ثابَّ الناسُ إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام) أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: (ولونزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها)، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»^(٢).

لقد اهتمَّت التربية القرآنية في العهد المكي اهتمامًا واضحًا بيئًا بموضوع اليوم الآخر، فلقد كانت سور القرآن الكريم المكية تنزل حافلة بتصوير اليوم الآخر وأهواله وحسابه وجزائه. ولقد كان النبي ﷺ يلفت انتباه أصحابه على الدوام إلى ما أعدّه الله في الآخرة لهم وما أعدّه لغيرهم، وإلى أن دار الدنيا ما هي إلا المرحلة الأولى من حياة الإنسان ستعقبها حياة البرزخ ثم المرحلة الأخيرة الآخرة، فإمّا جنة أو نار: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ

(١) البخاري ٣/ ٣٤٠ ح (٤٩٩٣).

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٥٦.

إِذَا بُعِثَ رَءَا فِي الْقُبُورِ ﴿١﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ [العاديات: ٩- ١١]، وولفت انتباههم إلى أن الحياة الآخرة تتم صياغتها في الدنيا من خلال الإيمان والعمل والسلوك ﴿أَلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا أَلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا أَلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْتُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَكَوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيمَةٍ ﴿١١﴾﴾ [الفارعة: ١- ١١]، مما جعل الصحابة يحاسبون أنفسهم ويدققون في سلوكياتهم وأعمالهم.

إنَّ الإيمان العام باليوم الآخر في إجماله يعدُّ مطلبًا عامًّا للدخول في دائرة الإيمان الواسعة، لكن الإيمان بحقائق اليوم الآخر ودقائقه ومواقفه كان مطلبًا في التربية القرآنية في العهد المكي، وكانت السور المكية تنزَّل بهذه الحقائق والدقائق لتجرّد القلوب من التوجه إلى غير الله.

وحين كانت قريش تتسلط على المستضعفين من الذين آمنوا في سنوات الدعوة الأولى نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[الجاثية: ١٤] حيث يأمر الله سبحانه المسلمين بمكة أن يتجاوزوا عن إساءات المشركين لهم؛ على وعدٍ بقصاصٍ عادلٍ في الآخرة، فكانت التربية القرآنية تذكّرهم بأن هذه الآلام وتلك العذابات ستزول قريباً بمجرد أن ينتقلوا إلى الدار الآخرة: «صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة»، حيث كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه ﷺ إذا حميت الظهرية، يعذبونهم برمضاء مكة^(١). إن الحياة لا تنتهي عند شهادة الحاضر القريب المملوء بالمعاناة والمأساة، فهناك - في الآخرة - سيشهد أولئك المستضعفون النصر والفرج والتنكيل بالطغاة الذين لا يريدون سوى الصد عن هذا الإيمان حين امتلأت به قلوب المستضعفين: ﴿سَيَصِلَنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ٣- ٥]، ﴿وَدَرَنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهْمُ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الزّمل: ١١-١٤].

إنّ من يؤمن بأنّ بعد الموت حياة أخرى سيعمل لها ولا شك، أما إذا استقرّ الإيمان بالآخرة في قلب المؤمن فإنه لن ينظر

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٥٦.

إلى الدنيا بكل ما فيها من نعيم ومتاع وأموال وقصور وشهوات ولذائذ، وبكل ما فيها من معاناة ومأساة وعذابات وتجويع واستضعاف، لن ينظر إليها بعينٍ سوى عين الاحتقار، ولن تنصبَّ اهتماماته وطموحاته وحساباته على شيءٍ سوى الآخرة ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وحين يكون الإيمان باليوم الآخر حاضرًا في قلب المؤمن فإن سلوكه سيستقيم طلبًا لرضا الله وجنته، حيث يرى المؤمن أن حياته الدنيا هي الفرصة الوحيدة لنيل ما أعدّه الله في الجنة، وأن كل سلوك يصدر عنه سيحاسب عليه في اليوم الآخر.

كان ربط السلوك والمواقف باليوم الآخر سمة غالبية في القرآن المكي؛ تأمل معي حديث القرآن عن التطفيف في الكيل والميزان: ﴿وَتِلْكَ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

في مكة وفي سنوات الدعوة الأولى قَدِمَ أفرادٌ قلائل في أوقات متفرقة يريدون مبايعة نبي الله ﷺ على الإسلام ونبذ الشرك،

وهم يعلمون تبعات هذا القرار من أذى وتخفٍّ ومفارقة قومهم وغيرها، فيسألون رسول الله ﷺ: وما لنا؟ فلا يزيد عن أن يقول: لكم الجنة! لا عوض في مكة، ولا مرغبات ولا محفزات سوى الوعد بالجنة والنجاة من النار، فقد كانت قضية اليوم الآخر حاضرة في التربية القرآنية للمسلمين في العهد المكي.

أفاضت السور المكية التي كانت تنزل تبعاً في العهد المكي بأحوال الآخرة ومشاهد القيامة، ولم يكن سبب ذلك إنكار المشركين للبعث والحساب فحسب، بل كان السبب الآخر أيضاً؛ وهو التذكير الدائم للمسلمين بهذه الأحوال والمشاهد لتكون ضابطةً لسلوكهم محفزةً لهم على مزيد من العمل الصالح والثبات عليه، ولتكون حاضرة في أذهانهم حين يصبحون وحين يمسون.

ولقد كان للتربية القرآنية لأصحاب النبي ﷺ على الإيمان باليوم الآخر تأثيراً كبيراً، وكانوا على قدر عالٍ من اليقين بها. إنَّ التربية القرآنية المكية المتعلقة باليوم الآخر أورثت سلوكاً رائعاً مبهرًا من أصحاب النبي ﷺ؛ فلم يكن الواحد فيهم يخطو خطوة إلا وهو يعلم أين تقع من الجنة والنار.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأصحابه من التابعين: «لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ولكنهم كانوا خيراً منكم؛ كانوا أزهدي في الدنيا وأرغب في الآخرة»^(١). وظهر الفرق الكبير فيما بعد في السلوك بين أولئك الذين أشربوا الإيمان باليوم الآخر في قلوبهم وبين أناس آمنتم ألسنتهم لا غير: ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنْتَقِينَ﴾^(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ لَا يَوْمُنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَبُهِمَتْ فِي رَبِّبِهِمْ يَرْدَدُونَ ﴿٤٥﴾ [التوبة: ٤٤-٤٥].

هناك العديد من المفاهيم الإيمانية ستترسخ بشكل تلقائي إذا نجحنا في التربية على الإيمان باليوم الآخر؛ كما يريد القرآن الكريم، كالخوف من الله والرقابة الذاتية ومحاسبة النفس والإحسان إلى الخلق والتزود من النوافل... إلى غيرها من المفاهيم التي لسنا بحاجة إلى الإكثار من التطرق إليها.

قال ابن القيم رحمه الله: «قالوا: وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار، ورجاء هذه والهرب من هذه فترت عزائمه، وضعفت همته، ووهى باعته، وكلما كان أشد طلباً

(١) حلية الأولياء ١/١٣٦.

للجنة، وعملاً لها كان الباعث له أقوى، والهمة أشد، والسعي أتم؛ وهذا أمر معلومٌ بالذوق»^(١).

لعلَّ بعض المربين يتساءل بعد هذا العرض مستشعرين القصور الموجود في تربيتهم لطلابهم على الإيمان باليوم الآخر: كيف إذن نربي الطلاب على الإيمان باليوم الآخر؟

لا إجابة عندي غير القول بأن أفضل طريقة للتربية على الإيمان باليوم الآخر هي الطريقة القرآنية التي تربط المواقف والأحداث والسلوكيات باليوم الآخر، والتي تعمق العلم بأنَّ لكل سلوكٍ امتداداً أخروياً لا ينفك عنه من حسابٍ وجزاءٍ.. تأملوها يا معشر المربين في كتاب الله وسنة نبي الله ﷺ.

الركيزة الثالثة: التربية على الالتزام بالصلاة وتعظيم قدرها:

منذ الدقائق الأولى التي يدخل فيها المسلم في دين الله يأمره النبي ﷺ بالصلاة ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها، ثم فرضت الصلوات الخمس في حادثة الإسراء والمعراج، فالصلاة من أول ما فرض على المسلمين بمكة،

(١) مدارج السالكين ٢/ ٧٩.

قال الواقدي: «أجمع أصحابنا أن أول من استجاب لرسول الله ﷺ من أهل القبلة: خديجة، ثم كان أول شيء فرض الله من شرائع الإسلام عليه بعد الإقرار بالتوحيد والبراءة من الأوثان: الصلاة»^(١).

ونالت الصلاة مزيد عناية إلهية حيث قام جبريل بتعليم النبي ﷺ الوضوء والصلاة، وكانت تعدُّ العمل الأكثر دلالة على صلة الإنسان بربه ووجه إياه وخوفه منه وتعلق قلبه به. وكان النبي ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب ﷺ مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا^(٢). قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب

(١) الكامل في التاريخ ١/ ٥٧٧.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٨٣.

سعد بن أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بلحى بعير، فشجّه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»^(١).

ويتملكك العجب حين تتخيّل أولئك الثلثة المؤمنة ﷺ وقد حضرتهم الصلاة، وهم في خوف وسرّية، فيتسللون إلى الشعاب والأودية عبر مجموعات صغيرة، يتلفتون يمنة ويسرة، فيقوم أحدهم يرقب الأوضاع من مسافة؛ ليصفّ الباكون أقدامهم لله تعالى، خاشعين ذاكرين، ثم يصلي هو نوبته! إنها مشاهد يخفق لها القلب وترتجف لها الجوارح إجلالاً ومهابة. قال سعيد بن زيد رضي الله عنه: «استخفينا بالإسلام سنّة، ما نصلي إلا في بيتٍ مغلق أو شعب خالٍ، ينظر بعضنا لبعض»، وفي رواية للبلاذري أن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه كانوا إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فصلوا، فرادى ومثنى، فبينما رجلان من المسلمين يصليان في أحد شعاب مكة إذ هجم عليهم رجلان من المشركين كانا فاحشين فناقشوهما ورموهما بالحجارة ساعة، حتى خرجا فانصرفا^(٢).

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٠٠.

(٢) انظر: دراسة في السيرة لعماذ الدين خليل ص ٦٣.

فلما اتخذ النبي ﷺ دار الأرقم مقرًا لدعوته، أصبحت الصلاة أحد الأعمال المقامة فيها.

هذا الجهد والترقب والتخوف والتسلل والتحري كله لأجل إقامة الصلاة التي كتبها الله عليهم فرضًا لازمًا.. إنها التربية على الشعيرة الأساس التي تربط الأرض بالسماء، والعبد بسيده، والمخلوق بخالقه، فيستمد منها الأمن والقوة والاستقرار والهداية والثبات والتوفيق ويستمد منها الحياة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ [المؤمنون: ١-٢].

في الوقت الذي وصلت فيه قريش إلى مستوى سيء من التنكّر لدين إبراهيم الخليل، فساءت قيمها وأخلاقها وتصوراتها. في الوقت ذاته كانت تلك الثلثة تنخلع من الأرض لترتبط بالسماء فتبني تصوراتها وإيمانها وقيمها وأخلاقها. لقد كانت تلك الصلاة تصنع منهم ذواتًا أخرى وشخصًا غير تلك التي كانت قريش تعرفها وتألّفها. كانت تلك الصلاة تبني قيمهم وإيمانهم وتشرّبهم الفضائل والمعالي: ﴿أَنْتُمْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولقد كان منظر رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي

عند الكعبة ملهًماً لأصحابه مثلها كان موجعاً لقريش.

وحين واجهت المسلمين موجةً قويةً تريد صدّهم عن هذا الدين الجديد الذي غيّرهم؛ كانت التربية على إقامة الصلاة هي ذلك السد المنيع من الانجراف في هذه الموجة: ﴿كَلَّا لَا نُطِئُكُمْ وَأَسْجُدُ وَأَقْرَبُ﴾ [العلق: ١٩].

وحين كان المسلمون مأمورين بالعفو عن أذى قريش وعدم الاصطدام بهم أو الانتقام منهم: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧] كانت التربية على إقامة الصلاة تسهم بشكل كبير في تخفيف تلك المعاناة والضيم، من خلال ترشيد انفعالات المسلمين وتسكين نفوسهم وتهدئة ثائرتهم. لقد كانت إقامة الصلاة - ولا تزال - تخفف من الضغوطات وتعيد النفس إلى خطها الانفعالي المعتاد: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١١) ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرْجُ رُجُوعًا﴾ (٢٠) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (٢١) ﴿إِلَّا الْمَصْلِينَ﴾ (٢٢) [المعارج: ١٩-٢٢]، ذلك أن الاستقرار النفسي له تأثيره الإيجابي في رفع مستوى التدين والارتقاء في سلّم الإيمان؛ الأمر الذي كانت الصلاة تصنعه في نفوس أهلها.

إنَّ طالب الحلقة القرآنية يواجه جَوْاً مشحوناً يُقْفِر قلبه ويرهق جَنانه: في المدرسة، والبيت، والحارة، والأصدقاء، والقنوات، والجوال، والإنترنت... فإذا لجأ إلى الصلاة بقلبه وأولها اهتمامه فإن كل ذلك القفر سيستحيل خصباً لذيذاً يشعر بحلاوته في قلبه.

حين تخرِّج تربيئنا طلاباً يحافظون على الصلاة على وجهها الصحيح مع نقصٍ في جوانب أخرى فإن ذلك أحبُّ إلى الله من طلابٍ يلتزمون بكثير من السنن مع نقصٍ في قدر الصلاة في قلوبهم. فإن الأولين أمسكوا بعمود الخيمة (الدين) فلا خوف على خيمتهم، بينما الآخرون ممسكون بأطراف الخيمة (الدين) مفرطون في عمودها؛ وهنا سنبقى قلقين على خيمتهم خوفاً عليها من السقوط.

إن التربية على تعظيم الصلاة المفروضة والعناية بها وإقامتها لم تكن في العهد المكي مفردة من مفردات التربية الإيمانية، وإنما هي منطلق للتربية الإيمانية وركيزة من ركائزها، ومنها تتفرع المفردات التربوية. لقد كانت مصدرًا من مصادر التربية الإيمانية، غير أنها مصدر رباني يترقى المصلي فيه سلم العبودية

والإيمان وتسمو به نفسه في سماء الطهر والزكاء والنقاء. وإن على المرّبين اليوم أن ينظروا إلى الصلاة المفروضة من زاوية الركائز؛ وليس من زاوية المفردات، وأن يعيدوا التأمل جيّدًا في الشواهد والدلائل على ذلك. قال يونس بن عبيد رحمه الله: «خلصتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما من أمره: صلّاته، ولسانه»^(١).

الركيزة الرابعة: التربية على التآخي في الله:

جاء الإسلام للناس كافة، لم تحمله عشيرة دون أخرى، ودعا النبي ﷺ الناس من جميع القبائل إلى الإيمان؛ فأبو بكر من تيم، وعثمان بن عفان أموي، والزبير بن العوام أسدي، وعبد الله بن مسعود هذلي، وعثمان بن مظعون جمحي، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة، وبلال بن رباح عبد حبشي، وأسماء بنت عميس خثعمية، وعمار بن ياسر مذحجي.

لقد شعر المؤمنون حين دخلوا في الإسلام أن المجتمع الذي يعيشون فيه تحت راية العشيرة والقبيلة والمدينة ليس صالحًا لأن

(١) حلية الأولياء ٣/ ٢١.

تربطه بهم وشائج وأواصر، فأبدلهم الله بالأخوة الإيمانية، حيث ربط الإيمان بينهم بروابط أرقى وأعمق من روابط المجتمع والنسب. ولقد كان اجتماعهم ببعضهم ومحبتهم لبعضهم متعلّقاً بسبب واحد ورباط واحد وهو الإيمان، ولا شيء غير الإيمان.

إن التربية القرآنية المكيّة لم تُغفل الجانب الإنساني في أولئك الثلاثة المؤمنة التي قطعت وشائج القربى والعشيرة، بل إنها لتؤكد أن هذا الجانب الإنساني له أثره الكبير في تقوية الإيمان بالله، وذلك أن المؤمن يجد سنده النفسي والاجتماعي في باحة إخوانه المؤمنين. وحين تُلبى الحاجة النفسية للاجتماع والحب والأخوة؛ فإنّ ما يتلقونه أثناء ذلك من مسائل الإيمان يجد قلباً مفتوحاً وعقلاً قابلاً لها، فيلتقون على طاعة الله ورسوله ﷺ، ويتناصرون على ذلك. لقد كانت اجتماعاتهم معمورة بالطاعة، قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]: «نزلت ورسول الله محتفٍ بمكة [فدته أرواحنا]، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به»^(١)،

(١) تفسير البغوي ٢/ ٧٢٣.

ولم تكن تلك الأخوة لمجرد الإيناس والترفيه.

وهنا تبدو ظاهرتان في العهد المكي:

الأولى: المؤاخاة. وهي - والله أعلم - أقل رتبة من عقد المؤاخاة المشهور بعد الهجرة، أي إنها مؤاخاة مقصورة على المؤازرة والمواساة والعون والتذاكر والمدارسة لكتاب الله، دون التوارث وتقاسم المال. قال ابن حجر رحمه الله: «قصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر رضي الله عنهما: أخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان، وذكر جماعة؛ قال: فقال علي: يا رسول الله! إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ قال: (أنا أخوك) وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به»^(١). وفي قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب كان يتردد عليهما خباب بن الارت رضي الله عنه يقرئهما القرآن^(٢). وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه السابقة أنه ذهب وبعض الصحابة يصلون في الشعاب. إن لهذه الأخوة الخاصة

(١) فتح الباري ٧/ ٣١٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٨١.

دورًا كبيرًا في الثبات على الإيمان، والتقوية والعزيمة على طاعة الله ورسوله ﷺ، حيث تشكّل تلك المؤاخاة لدى الأفراد انتماءً قويًا للفكرة التي انضوا تحت رايتها والمعتقد الذي ألف بينهم، فتقوى العزائم وتشتد الأواصر ويطرسخ الثبات.

الثانية: دار الأرقم بن أبي الأرقم. وهو الأرقم المخزومي رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ومن عقلاء قريش وشبابها، كان عمره حين بعث الله نبيه سبعة عشر عامًا تقريبًا، وداره تقع بالقرب من الصفا، حيث تكثر هناك حركة الحجاج والزوار^(١)، اختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرًا، فيتلوا عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله ﷺ وهم في أمن وسلام؛ وليدخل من يدخل في الإسلام ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة^(٢).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٢) الرحيق المختوم ص ٩٧. وللاستزادة عن تاريخ دار الأرقم يراجع: الطبقات ٣/ ٢٢٤.

كانت دار الأرقم ﷺ محضناً يجمع بين دفء الأخوة من جانب، وعمق التربية من جانب آخر، حيث يجتمع النزاع من العشائر والقبائل في مكان خاص لا يجمعهم سوى الإيمان وواجباته، فيتلقون دروس التربية القرآنية، ويقىمون العبادات والأعمال، ويواسي بعضهم بعضاً بما يحتاجونه. لقد كان ذلك المحضن القرآني هو البديل عن كل صلوات القربى وروابط العشيرة وعلائق القبيلة.

لا تربية قرآنية دون محضن يستنشق فيه المتربي نقاء الإيمان، ويتروى فيه من شريعة الإسلام، ويتدثر فيه بلحاف الأخوة الإسلامية؛ إنه المجتمع الصغير الجديد، البديل عن مجتمع الرذائل والخطايا، ومهما احتاج المؤمن إلى مجتمعه الكبير: مجتمع القبيلة أو العشيرة أو الحيي؛ فلا بد من محضن يأوي إليه يتزود فيه من الإيمان، ويقتبس فيه من وهج الأخوة؛ والآيات المكية جاءت تحث على ذلك في إشارات متفرقة: ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ [الكهف: ٢٨].

إنَّ الرابطة الإيمانية في مكة أسهمت في ترسيخ مفاهيم الإيمان وواجباته في قلوب أصحابها، وأحدثت نتائج مبهرة طوال تاريخ الدعوة.

الركيزة الخامسة: التربية على اجتناب الفواحش والكبائر:

قال رسول الله ﷺ: «اتق المحارم تكن أعبد الناس»^(١). طريق مختصرة في التربية الإيمانية، ووسيلة محققة لغاية العبودية.

لقد كان واضحاً من بداية شروق شمس الإسلام أن الله سبحانه وتعالى يكره الفواحش والكبائر، وأن تركها واجتنابها من سمات المؤمنين البارزة، ومن علامات المهتدين والمحسنين التي تميزهم عن المشركين: ﴿وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣١-٣٢]. ولقد ظللت مندهشاً من وضوح صورة الإسلام لدى أصحاب

(١) الترمذي ٥٥١/٤ ح (٢٣٠٥)، قال الألباني: «حسنٌ على أقل الأحوال» الصحيحة ٦٠٣/٢ ح (٩٣٠).

النبي ﷺ في مكة بينما لا يزال في سنواته الأولى من التكوين، يبدو ذلك جلياً في قول جعفر بن أبي طالب ؓ، وهو يخاطب النجاشي، فكان مما قاله: «وأمرنا بالكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات»^(١). وكانت قريش آنذاك قد غرقت في وحل الفواحش والموبقات، واستطاعت أن تشرعن جزءاً منها: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] قال البغوي: وإذا فعلوا فاحشة فنهوا عنها قالوا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢).

إن مقارفة الفواحش والموبقات لتأتي على جبال الإيمان فتنقصها أو تنسفها، وإن استمرها وإلها يعني جفاف القلب وخواء

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٣٧٣.

(٢) تفسير البغوي ٢ / ٩٧. وقد ذكر في سبب نزولها أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة، ولا بأس فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الروح، ولا يستطيع من هذه حاله أن يقاوم موجة الطغيان؛ كيف يقاومها وهو لم يتحرَّر من أسار شهوته! كما لا يستطيع أن يقوم بواجبات الإيمان من طاعة الله ورسوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ (١٥) [المطففين: ١٤-١٥].

إن هجر الكبائر والفواحش بمثابة إماطة الأذى عن طريق الإيمان، وبمثابة القبض على قطاع الطريق إلى الإيمان، وبذلك تصبح الطريق سالكة مهياة لمرتاها.

الركيزة السادسة: التربية على المداومة على ذكر الله:

الحصن الإيماني والسياح الرباني للمؤمن هو ذكر الله سبحانه، فهو حصن له من الشيطان الرجيم، وحصن له من سهام الشهوات والشبهات، وحصن له من المضاعفات السلبية التي تفرزها المعاناة والآلام. لذلك تكرر كثيرًا الأمر بذكر الله، واقترن في كثير من مواضعه بالصبر:

- ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَصِيْقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (١١) [الحجر: ٩٧-٩٩].

- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠].

- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

- ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

إنَّ ذِكرَ الله تعالى يفضِّل الكثير الكثير من الأعمال الصالحة في الأجر قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: بلى. قال: «ذكر الله تعالى»^(١).

ذِكرَ الله تعالى حربٌ معلنة على النفاق والرياء: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]؛ إذا أردت أن تنفي

(١) الترمذي ٥/٤٥٩ ح (٣٣٧٧)، وصححه الحاكم في المستدرک ١/٦٧٣ ح (١٨٢٥) ووافقه الذهبي.

عن نفسك النفاق: أكثر من ذكر الله تعالى. والمداومة على ذكر الله تعالى قرينة بحبه سبحانه، لذلك جاء القرآن بالأمر بالذكر كثيرًا في العهد المكي.

الركيزة السابعة: التربية على بر الوالدين:

منذ البداية كان حث الإسلام على الإحسان إلى الرحم وصلتها ظاهرًا جليًا لا ارتياب فيه، فقد كانت الآيات تنزل بذلك: ﴿وَأَمَّا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦].

أن يركّز القرآن الكريم في الفترة التي كانت الأسر الكافرة من قريش منهمكة في تعذيب أبنائها وحبسهم وتصفيدهم في الأغلال.. أن يتحدث القرآن الكريم بلغة حازمة عن بر الوالدين.. فهذا مما جعلني مندهشًا واجمًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وحين اشتدَّ الأذى على المسلمين في السنة الأخيرة من العهد المكِّي ونزلت سورة العنكبوت التي تحدثت صراحة عن موضوع الابتلاء وعالجته وناقشته لم تغب عن السورة مسألة بر الوالدين:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

أي معنى للتجرد والخروج من الذات ونبذ حظوظ النفس وتوحيد العبودية لله وحده أكثر من هذا؟ وهل هناك فكرٌ أو نظامٌ أو كيانٌ يملك من العظمة كما يملك هذا الدين حين يضبط سلوكك ومشاعرك وأنت في أوج انفعالاتك؟ وما هو المُخرج التربوي الذي تكون التربية فيه بهذا المستوى من عمق المعالجات؟

إنَّ التوجيه الرباني بالبر بالوالدين الكافرين في مكة تربية للقلب على التجرد لله وصدق التوجه إليه، وتربية على ضبط المشاعر والوفاء بالإحسان القديم، وتربية على ضبط السلوك، فلا يصدر إلا بموضوعية وفكرة، وتربية على ثبات الأخلاق الحسنة. برغم المعاناة. فكم بالله عليك في هذا التوجيه الرباني

من عمق تربوي؟!!

ألا يتطلب منهجنا التربوي في الحلقات القرآنية أن تكون
التربية على البرِّ ركيزة نطلق منها في فضاء العبودية الأرحب؟

العوامل المؤثرة في التربية القرآنية في العهد

المكي:

حين تسبر عهد الدعوة الإسلامية في مكة؛ فإنك ترى بوضوح ثلاثة عوامل رئيسية كان لها كبير الأثر في سير الدعوة وتربية النبي ﷺ لأصحابه على الإيمان:

العامل الأول: الحضور القرآني للأحداث والمواقف:

لقد كانت الآيات حاضرة في المواقف والأحداث تثبت النبي ﷺ وتثبت أصحابه ﷺ وتوجههم إلى الأرشد والأصوب، وتطمئنهم وتسليهم، وتبشرهم وترضيهم، وتساعدهم وتعينهم:

- فبينما المستضعفون من المؤمنين يناههم أذى السادة والكبراء وسخريتهم والاستخفاف بهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي حِمِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

- وحين أبى العاص بن وائل أن يعطي خباباً ﷺ حقه، وقال ساخرًا: فإنني إذا متُّ ثم بعثتُ جنتني ولي ثم مال وولد، فأعطيتك؛ أنزل قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا

وَقَالَ لَأَوْ تَبْتَكَ مَا لَأَ وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا
 ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا
 يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ [مريم: ٧٧-٨٠] ^(١).

- وحين بلغ العذاب من عمار بن ياسر رضي الله عنه مبلغه
 وأتى على ما يريدون من كلمات الكفر قال الله تعالى: ﴿مَنْ
 كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ
 وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] ^(٢).

- وحين عمدت قريش إلى أن تعلن إسلامها المشروط
 بالإجابة على تساؤلاتهم وتنفيذ مطالبهم نزلت سورة الإسراء.

- وحين كثر التعذيب والاضطهاد وتقاطر المسلمون
 نحو الحبشة هربًا بدينهم أنزل الله تعالى سورًا أمثال القصص
 والعنكبوت والروم.

لقد كان القرآن المكي حاضرًا شاهداً.

(١) تفسير ابن كثير ٥ / ٢٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٦٠٥.

ولا تزال نصوص القرآن حاضرة شاهدة، وإن على المرين يردُّوا مواقفهم التربوية إليها، وأحسب أن هذا الأمر تجديدٌ في التربية القرآنية يحتاج إلى مزيد دراسة وعمق.

العامل الثاني: المعيشة النبوية:

أمَّا نبي الله ﷺ فمنذ أن أرسله الله فإنَّ قلبه لا يغضو عن أصحابه الذين اتبعوه على الخوف الذي عينوه والأذى الذي لاقوه، لقد كان ﷺ معهم يشبههم ويشرهم ويذكرهم بما أعدَّ الله لهم ويمنحهم التفاضل، لقد كان دفئاً لهم في زمهرير الابتلاء، وموجَّهًا لهم في الشدائد والمحن، ومثبِّتًا لهم على إيمانهم:

- فهو يمرُّ على آل ياسر ﷺ والسياط تحرق ظهورهم فيقول: صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة^(١).

- وحين أتاه خبابُ بن الأرت ﷺ شاكيًا يطلب منه الدعاء قعد ﷺ وهو محمَّرٌ وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم يمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضِّع المنشار على مفرق رأسه فيشَّق باثنين، ما

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/٣٥٧.

يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه»^(١).

- وحين جاء عبد الرحمن بن عوف وأصحابه رضي الله عنهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله! كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمنَّا صرنا أذلة! فقال: «إني أمرت بالعبو، فلا تقاتلوا»^(٢).

- ولقد كانت دار الأرقم محضًا يجمع المربي الكبير صلى الله عليه وسلم بأصحابه أتباع دعوته، فيصلون ويتلون القرآن ويتلقون التوجيه ويفضون بهمومهم ومشاعرهم.

العامل الثالث: فرض قيام الليل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»^(٣).

(١) البخاري ٣/ ٥٥ ح (٣٨٥٢).

(٢) تفسير الطبري ٥/ ١٧٠.

(٣) مستدرک الحاكم ١/ ٤٥١ ح (١١٥٦) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

هذا الحديث يختصر فضائل قيام الليل، فهو شعار الصالحين من الأمم وعاداتهم، وهو قربة لله تعالى يرفع الله به الدرجات ويحط به السيئات، وهو كذلك ينهى عن الإثم؛ وهذه الأخيرة هي المقصودة هنا من الاستدلال، فإن قيام الليل بالصلاة وقراءة القرآن والذكر والدعاء والاستغفار يسهم في الارتقاء الإيماني وتهذيب النفس واستقامتها وتورعها عن المآثم والخطايا. إنه يرفع من مستوى الرقابة الإيمانية الذاتية، وتزيد من قدرة المؤمن على التجرد والإخلاص، وتغرس في قلبه حبَّ الله وحبَّ طاعته وكرهية ما يبغضه الله من المعاصي والآثام؛ إن النفس التي تستسهل هجر الفرش الوثيرة والزوجة الأثيرة للتهجُّد ليلاً يصعب عليها اقرار الخطايا والآثام نهائياً.

كانت الوصية بقيام الليل من السنوات الأولى للدعوة الإسلامية. قال جابر بن زيد: أول ما أنزل الله من القرآن بمكة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، ثم ﴿تَ وَالْقَلَمِ﴾، ثم ﴿يَتْلُهَا الْمُرْمَلُ﴾... (١).

جاء الأمر الرباني في العهد المكي بفرض قيام الليل على النبي ﷺ وأصحابه: ﴿يَتْلُهَا الْمُرْمَلُ﴾ (١) ﴿قُرْآنًا لِّأَقْلِيَالٍ﴾ (٢) نَصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ

(١) الإتيان في علوم القرآن ١ / ٥٣.

مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ [المزمل: ١-٤] قالت عائشة رضي الله عنها: «إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام النبي الله وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة»^(١).. إنك تتحدث عن سنة كاملة من ثلاث عشرة سنة كان قيام الليل فيها فرضاً واجباً، إنه أمر مهم للغاية في تربية الصحابة على الإيمان وتثبيتهم عليه. والله حكمة جلييلة في ذلك، أبانها في كتابه حيث قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] أي إن هذا القرآن بما فيه ثَقِيلٌ في نزوله، ثَقِيلٌ في العمل به^(٢)، قال الحسن: «إنَّ الرجل ليهتدُ السورة، ولكن العمل بها ثَقِيل»، وقال قتادة: «ثَقِيلٌ والله فرائضه وحدوده»، وقال مقاتل: «لما فيه من الأمر والنهي والحدود»^(٣)؛ فاحتاج المؤمن إلى ما يعينه على القيام بواجبات القرآن الإيمانية والأخلاقية فوجَّه ربنا سبحانه إلى قيام الليل؛ ذلك أن قيام الليل بالصلاة والقرآن أكثر مواطأة

(١) مسلم ١/٥١٣ ح (٧٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٨/٢٥١.

(٣) تفسير البغوي ٤/٤٩١.

بين القلب واللسان^(١) فيتنفع المصلي بذلك: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦] قال قتادة: «أثبت للخير وأحفظ للقراءة»^(٢).

وكما أن قيام الليل ينهى عن الإثم ويعين على القيام بواجبات الدعوة الإسلامية؛ فهو أيضاً يربي المؤمن على إخلاص العمل لله والتجرد من حظوظ الدنيا والرغبة فيما عند الله: ﴿تَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

لأجل ذلك كله فرض الله على تلك الأمة المؤمنة ﷺ قيام الليل سنة كاملة حتى انتفخت أقدامهم، ليكون بناؤهم الإيماني بناء متيناً صلباً متماسكاً، لا تزعزعه الأهواء ولا الفتن ولا الرزايا ولا الشهوات، فتخرج في مدرسة الليل الخاشع أعمدة الدعوة الإسلامية وقيادات الجهاد وحاملي رايات الفتح.

(١) تفسير ابن كثير ٨ / ٢٥٢.

(٢) تفسير البغوي ٤ / ٤٩٣.

لقد كانت التربية على قيام الليل تلبية للحاجة الملحة إلى العصمة من الشبهات والشهوات، والثبات على الدين في وقت المحن والابتلاءات. وكأني بسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه قائماً في حجرته، وبصوت خفي لا يكاد يُسمع؛ يرتل كلام الله مُجَلِّله الرهبة والخشوع. وكأني بأبي بكر رضي الله عنه في فناء منزله صافاً قدميه يطيل الصلاة ودموعه تتحدر على لحيته... إنك لا تتحدث عن حوادث طارئة أو مفردة مؤقتة، إنك تتحدث عن عادة القوم. ولا شك أن في امتحانهم في هجر الفرش ومقاومة النوم ومألوفات النفس لتربيتهم على المجاهدة، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم، إذ لا بدَّ من إعداد رُوحِيٍّ عالٍ لهم، وقد اختارهم الله تعالى لحمل رسالته، وأتمنهم على دعوته، واتخذ منهم شهداء على الناس، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهام الجسيمة في تعديل مسار البشرية، وإنقاذها من الانحرافات الخطيرة، وتسديدها نحو توحيد الله وطاعته، وهي مهمة عظيمة لا يقوم بها إلا الذين ﴿تُجَافِي جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ

يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴿[السجدة: ١٦]﴾^(١)، فتأمل كيف يتم إعداد المؤمنين وتربيتهم!

وحين انتهت الحاجة من فرض قيام الليل ونسخه إلى التطوع؛ لم يجد الصحابة الكرام مساعًا لترك تلك المناجاة اللذيذة مع ربهم وتلاوة كلامه، فُنسخ الحكم وبقي العمل، وبقيت التربية الذاتية الليلية تعمل عملها في صياغة الإيمان والثبات على الطاعة والاستزادة من الخير.

تلك أهم الركائز التربوية، وهذه أهم العوامل المؤثرة في التربية، دونك فتأملها.

اللهم ارزقنا الهدى والسداد، واجمعنا بنينا ﷺ وأصحابه الكرام في جنات النعيم.

(١) السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري ١/١٥٩.

الفصل الثاني:

المعالم التربوية للحلقة القرآنية

- منهج التربية والتعليم في الحلقات.
- الحلقات القرآنية ورعاية الحفاظ.
- معلمو القرآن الكريم: التأهيل والإعداد.
- أنماط المتعلمين في الحلقات القرآنية.
- التربية القرآنية في حلقات البنات.
- الحلقات القرآنية في شهر رمضان.
- حلقاتنا والتربية على تلاوة القرآن الكريم.

منهج التربية والتعليم في الحلقات

أَنْ تَبْنِي بعض المؤسسات القرآنية عملها التربوي والتعليمي داخل حلقات تعليم القرآن الكريم على منهج معتمد واضح؛ فإن ذلك هو الأصل في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه، حتى وإن كانت تلك المؤسسات القرآنية صغيرة الحجم، أو كانت لا تصل إلى المستوى الجيد في بناء المنهج، أمَّا غير الطبيعي فهو أن تبنى المؤسسات والحلقات القرآنية عملها التربوي والتعليمي على غير منهج واضح، لا في أهدافه، ولا في مقرراته، ولا في طرائق التدريس فيه؛ بالتزامن مع التطور الهائل في الفكر التربوي والتعليمي، والذي من شأنه أن يسهِّل على هذه المؤسسات والحلقات بناء عملها التعليمي على «المنهج».

في فترة ماضية كان غياب المنهج التربوي والتعليمي في المؤسسات القرآنية له ما يبرره إلى حدِّ ما، أو على الأقل له ما يفسره، أما اليوم فلا يمكن تفسير غياب المنهج في الحلقات القرآنية بشيء منطقي مقبول؛ ذلك أنه الركيزة الأساسية التي يصحُّ بها التعليم.

والحديث عن عناصر المنهج في الحلقات يستغرق مئات الصفحات، وله مكان آخر غير هذا، ومتخصصون، غير أننا ستعرض في هذه الصفحات إلى المعالم والأطر التي نطمح أن يسير المنهج على ضوئها، وهي: السمات، والشروط، والمخرجات.

الكتاتيب القرآنية:

«دار القراء» قامت في المدينة النبوية على عهد النبي ﷺ لتعليم القرآن الكريم^(١)، ونشأت «الكتاتيب» في وقت باكر بعد هجرة النبي ﷺ، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لقد قرأت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة من القرآن؛ وإن زيد بن ثابت له ذؤابتان في الكتاب»^(٢). و «الكتاب» مفردٌ للكتاتيب، ويقال لها أحياناً: المكاتب جمع مكتب، وهي: مكان يجتمع فيه الأولاد لتعلم القرآن الكريم والكتابة والحساب.

ولقلة الكتابة بين الأنصار وللحاجة إلى تعليم الكتابة في الكتاتيب استثمر النبي ﷺ فرصة وقوع عدد من مشركي قريش

(١) انظر عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري ص ٢٦٧.

(٢) المعجم الكبير ٩/ ٧٤ ح (٨٤٣٥)، وأصله في البخاري.

في الأسر في غزو بدر ليقوموا بأدوار تعليمية، حيث كانت القراءة والكتابة متفشية في مكة: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناسٌ من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»^(١)، وقال الشعبي: «كان فداء أهل بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت ممن علم»^(٢).

وأياً ما كان، فإن وجود الكتاتيب في عهد نبينا ﷺ يلزم منه وجودٌ منهجٍ تعليمي وطريقةٍ إدارية، ولو كانا بسيطي التركيب والبناء. فإن الكُتَّاب يتعلمون فيه القرآن الكريم بالدرجة الأولى وبعض العلوم الأساسية كالكتابة والحساب، وله معلمون محددون، وله أيضاً مكان يجتمع فيه التلاميذ، ومن غير اللائق أن نعتقد أن هذه الكتاتيب تسير بعشوائية وارتجال.

(١) مستدرک الحاكم ١٥٢/٢ ح (٢٦٢١) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٢) الطبقات الكبرى ٢٢/٢.

مكونات المنهج:

المنهج في اللغة: الطريق الواضح، وَهَجَّ الدابة: سار عليها، وَهَجَّ الطريق: سلكه^(١).

أما في اصطلاح التربويين: فإن المنهج التربوي هو مخططٌ شامل ومنظم للعملية التربوية، بما فيها الخبرات والنشاطات، تنظمه المؤسسة التربوية وتقدمه لطلابها، لتحقيق أهداف تربوية^(٢).

فهو إذن مخطط تعليمي مكتوب، يوضح الأهداف التربوية التي يسعى البرنامج إلى تحقيقها، ويوضح كذلك الموضوعات التعليمية التي يقدمها، والأساليب التي تتم بواسطتها عملية التعليم والتعلم، وطرائق التقويم المستخدمة للتحقق من بلوغ الطالب الأهداف التعليمية^(٣).

(١) القاموس المحيط ص ٢٦٦.

(٢) انظر: لغة التربويين ص ٢٩٩، والمناهج بين الأصالة والتغريب ص ٢٩، ودليل مفاهيم الإشراف التربوي ص ١٢٣.

(٣) لغة التربويين ص ٢٩٩.

ومن خلال التعريف والتوضيح السابقين يتبين لنا أن المنهج التربوي يحوي عناصر أهمها:

أولاً: الأهداف التربوية:

هي التغيير التربوي الذي ترغب المؤسسة القرآنية في إحداثه في الطالب. فكل عمل تربوي تعليمي يُحدث تغييراً في الطالب، والأهداف التربوية تجعل هذا التغيير مقصوداً بذاته، يتطلع المربي إليه ويسعى نحوه، فهو يبدأ عمله التربوي وهو يرسم النتيجة في ذهنه.

مثال ذلك: أن يلتزم الطالب أذكار الصباح والمساء كل يوم، فهذا هدف تربوي، ترسمه المؤسسة قبل البدء بالعمل، وتوجه أنشطتها التربوية لغرس هذا الهدف في نفس الطالب، وبعد جهود حقيقية في هذا النحو، ولمدة معينة محددة، نجد أن الطالب يلتزم أذكار الصباح والمساء كل يوم فعلاً.

هذا هو مفهوم الأهداف التربوية: نتيجة تتعلق بالجانب التربوي لدى الطالب وتسعى المؤسسة لتحقيقها، وبالتالي لا

يصح أن يكون الهدف التربوي مُعبّرًا عن إجراءات التدريس وجهود التعليم، بل يعبرُ الهدفُ التربوي عن نتيجة سيؤول إليها الطالب المستفيد تجاه البرنامج التعليمي.

والتربية الإسلامية في الحلقات القرآنية عمومًا لها غاية كبرى، وهي تخريج جيلٍ يحمل القرآن في قلبه ويتمثل أحكامه ويتخلق بأخلاقه، وهذه الغاية تمثل ضوء الشمس الذي ينير للمعلمين طريقهم وعملهم التربوي.

ثم تأتي بعد هذه الغاية الكبرى ثلاثة مستويات للأهداف:

المستوى الأول: الأهداف العامة. وهي أهداف بعيدة المدى يمكن صياغتها بعبارات عامة تصفُ منتجًا حياتيًا عامًا مرغوبًا، يحدث خارج العملية التعليمية.

وتكمن أهميتها في كونها الموجّه للأهداف المتفرعة والأنشطة الخادمة للأهداف، كما أنها تكشف مدى ملاءمة الأنشطة والإجراءات للأهداف المتفرعة، ومن أمثلة الأهداف لهذا المستوى: «تخلُق الطلاب بأخلاق القرآن».

المستوى الثاني: الأهداف التعليمية (التربوية) أو الأهداف المرحلية. وهي أهداف متوسطة المدى، تمثل أجزاء للهدف العام، وبمجموعها يتحقق ذلك الهدف العام. ويمكن صياغتها بعبارات فيها عمومية لكنها أقل من عمومية الأهداف العامة، فمثلاً: «أن يتمثل الطالب الآداب الأُسرية» فتلاحظ في الهدف أننا وصفناه بـ «أن يفعل» وهذا في حد ذاته تحديد، غير أن المفعول به في هذا الهدف شيء عام يحتاج إلى تفتيت وتجزئ ليتم إنتاجه بشكل منتظم وسلس ونافع.

وتصف هذه العبارات منتجاً تعليمياً عاماً مرغوباً يحدث داخل النظام التعليمي، ويمكن تحديد زمن معين كفصل دراسي، أو عام، أو شهر، ونحو ذلك؛ بحسب حجم الهدف التربوي والاحتياج الزمني المقرر له، فهي مرحلية باعتبارين: باعتبار الزمن، والمحتوى.

المستوى الثالث: الأهداف السلوكية (الإجرائية)، أو التدريسية. وهي أهداف قصيرة المدى (أنية) يمكن صياغتها بعبارات إجرائية محددة، تصف منتجاً مرغوباً داخل عملية التدريس الواحدة، يحدث في أثناءه أو ختامه. مع ملاحظة أن عملية التدريس قد لا

تكون حصة دراسية فحسب بل تشمل كافة المناشط التعليمية المؤدية لذات الهدف التدريسي. فلو قلنا أن كل عملية تدريسية بكافة متعلقاتها من أنشطة وواجبات تعتبر وحدة؛ فإن هذه الوحدة لها أهداف سلوكية محددة. ومن أمثلة الأهداف لهذا المستوى: «أن يذكر الطالب آداب الاستئذان على الوالدين مُرتبة».

وعلى أي حال، فإن معلّم الحلقة الحاذق هو من يردم الفجوة بنجاح بين واقع الطالب التربوي وبين النتيجة التي يسعى ذلك المعلم أو المؤسسة التعليمية إلى تحقيقها.

ثانيًا: المحتوى:

وهو مجموعة من الحقائق والمفاهيم والمبادئ والمهارات والقيم والأنشطة التي يتضمنها المنهج المراد للطلاب أن يتعلموه^(١). ويسمى «المقرّر الدراسي» ويسمى أيضًا «المواد الدراسية» ويصاغ في كتاب أو أكثر، فتجد على سبيل المثال للمادة الواحدة أحيانًا ثلاثة كتب: كتاب الطالب، وكتاب النشاط، ودليل المعلم.

(١) لغة التربويين ص ٢٦١.

والمحتوى يُعدُّ ترجمة عملية واقعية للأهداف التربوية. ونظرًا لأن المحتوى مهمٌ في بلوغ الأهداف التربوية فإنه ينبغي تحري الدقة المتناهية لاختيار الموضوعات المناسبة التي تسهم في بلوغ الأهداف التربوية المرغوبة في سهولة ويسر وبأقل وقت وأدنى جهد وأرخص تكلفة^(١).

ويتم تصميم المحتوى عبر الخطوات الآتية:

أولاً: تقوم المؤسسة القرآنية بوضع الأهداف العامة للتربية المزمع العمل عليها لفترة زمنية قادمة محددة، ويشارك المعنيين من هذه المؤسسة أحد خبراء التخطيط التربوي أو أكثر، حيث تُعقد ورشة عمل بهذا الشأن تعتمد العصف الذهني والتفكير الناقد، وتستشرف مستقبل الفئة المستفيدة ومحيطها ومجتمعها وتحدياتها. ولا يصح التقليل من قيمة هذه العملية لكونها جانبًا نظريًا بحثًا، بل يجب الاهتمام بها لأنها تشكّل الأساس الفكري لكل الممارسات العملية في المجال التربوي للمؤسسة.

ثانيًا: إحالة مهمة صياغة المنهج إلى متخصصين تربويين، بمتابعة من المؤسسة القرآنية لتقوم هي بالاعتماد أو الاستدراك

(١) المناهج بين الأصالة والتغريب ص ١٠٢.

في كل مرحلة من مراحل بناء المنهج.

إننا اليوم لأشد حاجة إلى أولئك المتخصصين التربويين ليشاركونا الخيرية في قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وذلك من خلال تطوير خبراتهم العلمية والفنية في خدمة القرآن الكريم، كما أننا نعيش زمن التخصصات، وفي الوقت ذاته نعيش زمن التحالفات، فما أروع أن يتحالف أهل القرآن مع المتخصصين التربويين، ولو كلفنا الكثير، لما سيؤول إليه هذا التحالف من الخير العظيم.

ثالثاً: تقسيم المنهج التربوي على الفترة المعتمدة، فلو كانت الفترة ثلاث سنوات لقسمنا المنهج على ثلاث سنوات، وكل سنة ثلاثة فصول أو أكثر أو أقل، وهكذا.

رابعاً: الاستفادة من التجارب التربوية في الساحة، والاطلاع على أكبر عدد ممكن منها ودراستها، لتوفير كثير من الوقت والجهد والمال، وفي الساحة دراسات عديدة وتجارب مفيدة، منها ما قامت به بعض جمعيات تحفيظ القرآن الكريم، ومنها ما قامت به مؤسسات تربوية مستقلة، وهي جهود مشكورة

وبُذلت فيها غوالي الأوقات والأفكار^(١).

خامسًا: تحكيم المنهج من خلال طلبه علم شرعيين، ومتخصصين تربويين غير الذين شاركوا في الإعداد، وأخذ ملحوظاتهم وتوصياتهم بعين الاعتبار، والعمل على تعديلها في جو من التجرد والإخلاص وإرادة الصواب.

سادسًا: تجريب المنهج في بعض مراحلها أو كلها وهو لا يزال في طور الإعداد، لیتَمَّ تحسين المنتج في فترة الإعداد.

سابعًا: اعتماد المنهج التربوي لحلقات القرآن الكريم من

(١) تجدر الإشارة هنا إلى بعض المبادرات في هذا الإطار، منها على المستوى المؤسسي: دليل «موسوعة علمية وتربوية» إعداد: مركز التطوير الدولي ١٤٣٣هـ، والدليل الإجرائي لبناء الشخصية الإسلامية (بناء) إعداد: مؤسسة الخبرات الذكية للتعليم والتدريب ١٤٣٠هـ، ومنهج بناء الشخصية الإسلامية (نماء) إعداد: مؤسسة المري ١٤٣١هـ، وسبيل الراسخين (منهج يعنى بالتأصيل العلمي في علوم الشريعة والعربية) إعداد جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية بريدة ١٤٢٩هـ، وعلى المستوى الفردي: كتاب تربية الشباب الأهداف والوسائل، تأليف: د. محمد الدويش ١٤٢٣هـ، وبراعم الإسلام (سلسلة منهجية للنشء المسلم) إعداد أبو عبد الرحمن جمال بن إبراهيم القرش ١٤٢٦هـ.

الإدارة العليا للمؤسسة القرآنية، ليتم تفعيله على أحسن صورة. ولعلّ ما واجهه كثيرًا من المربين من إشكالات التربية القرآنية كان السبب الرئيس فيها هو ضعف اقتناع الإدارة العليا في المؤسسة بالمنهج التربوي المقدم أو عدم موافقتها أو ترددها.

ثالثًا: طرق التدريس:

هي مخطط تدريسي عام يتم اشتقاقه وصياغته بدءًا من تحديد مجموعة من الأهداف (السلوكية) وانتهاءً بالتقويم الذي يحدد مدى تحقق تلك الأهداف، وطريقة التدريس هي وصفٌ للأسلوب أو الإستراتيجية التي يستخدمها المعلم ليحقق أهداف الدرس^(١). وبعض التربويين يسمي طرق التدريس: أساليب التدريس، والبعض الآخر يسميها: إستراتيجيات التدريس، والمؤدى لا يختلف.

ولا توجد طريقة تدريس أفضل من غيرها، ويختار المعلمون دائماً طريقة التدريس التي تناسب مقتضيات الموقف التعليمي وفق معايير تربوية^(٢).

(١) لغة التربويين ص ٢٠٤.

(٢) لغة التربويين ص ٢٠٢.

و حين نتحدث عن طرق التدريس في الحلقات القرآنية فإنه يعرض لنا جانبان، يتفقان في بعض النقاط ويختلفان في البعض الآخر، وهما: طرق تدريس القرآن الكريم، وطرق تدريس المقررات التربوية والعلمية.

رابعاً: التقويم:

وهو الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحديد مدى نجاح المنهج في تحقيق الأهداف التي وُضِعَ من أجلها^(١). وكما أنه يقيس مدى تحقيق الأهداف التربوية؛ فهو كذلك يكشف الصعوبات والمعوقات التي أثمرت في تحقيقها، ويسهم في البحث عن علاج الطلاب المتأخرين تربوياً وتعليمياً، وهو أيضاً يسهم في إصدار أحكام على جودة المناهج والبرامج والفعاليات التربوية، بحيث تتميز هذه الأحكام بالموضوعية.

ويمثل التقويم نوعاً من التغذية الراجعة لمنظومة المنهج. وينبغي التأكيد هنا على أن مفهوم التغذية الراجعة لا ينحصر في تقويم النواتج أو المخرجات فقط، بل يمتد ليشمل كل المكونات الأساسية والعناصر المؤلفة للمناهج. فالتقويم بهذا المعنى يمثل

(١) المناهج بين الأصالة والتغريب ص ١٦٤.

اتصالاً مستمراً بجميع عناصر المنظومة دون أن يقتصر على جانب منها^(١).

سمات المنهج في الحلقات القرآنية:

١. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية يتم بناؤه على أسس التربية الإسلامية ومفرداتها، وهي التربية التي مارسها نبينا ﷺ وأصحابه الكرام، فهي المصدر الأصيل لمناهج التربية الإسلامية، ويجب أن لا تؤثر خبراتنا السابقة على هذا التأسيس؛ فنحكّمها على ما وصل إلينا من النصوص والآثار المفيدة في هذا الجانب.

٢. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية يملّك الطالب دافعية التعلّم وأدواته؛ فهو منهجٌ لا يمنح المعلومة فحسب، بل يضيف إليها أدوات المعرفة وتقنياتها ليُسَهّل على الطالب فيما بعد القياس والتعليل والقدرة على الاستنباط والاستدلال وتحقيق مناط الأحكام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

وهو منهج يذوق الطالب في رحابه لذة التعلّم ويجد في

(١) إطار مرجعي للتقويم التربوي ص ٤٤٨.

أروقته سعة العلم وبهائه ورونقه، فلا يزال الطالب حريصاً على المزيد من التعلم باحثاً عن المعرفة متلهفاً للازداد منها، مستشعراً الفضل الكبير في ذلك: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

٣. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية يعتنى بالتفكير، وقد نزلت الكثير من الآيات تحثُّ على إعمال العقل وتستنكر إهمال التفكير: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ولئن شكونا اليوم من ضعفٍ في التفكير الناقد والتفكير الإبداعي؛ فإن أصحاب النبي ﷺ برغم بساطة الحياة التي عاشوها كانوا يمارسونها بشكل اعتيادي، في شتى الظروف والأحوال، وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم القرآن على قدرٍ ضعيفٍ من إعمال العقل مما جعلهم مستسلمين للعادات والإلف والخرافات، كما كانوا رضي الله عنهم يفرقون بين مواطن الاجتهاد ومواطن التسليم للنص، فهذا الحُباب بن المنذر رضي الله عنه على أرض بدر يقول: «يا رسول الله! رأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟» قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة». فقال: «يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل،

فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضًا فتملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون». فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»^(١).

وجيل اليوم يعاني من ضعفٍ في التفكير الناقد، لعدة أسباب، وهو اليوم أحوج ما يكون إليه، ليكون قادرًا على التعامل مع الكم الهائل من المعلومات والبيانات والصور التي تصب عليه صبًا.

٤. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية متوازن، فهو يوازن بين عملية الإقراء والتربية والتعليم انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به. وسيرت بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم»، قال إسماعيل بن أبي خالد: «كان أبو

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٢.

عبد الرحمن السلمي يعلمنا القرآن خمس آيات خمس آيات»^(١)، وقال مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار»^(٢).

محاور ثلاثة مقترنة ببعضها: الإقراء والتربية والتعليم، والمنهج الذي يقتصر على واحد منها منهج ناقص مشوّه، يبني إنساناً ناقصاً مشوّهاً في علمه وفكره وديانته وخلقه.

وهو منهج يوازن بين تربية الروح والعقل والجسد، ويتعامل معها على أنها مكونات الإنسان المترابطة، والطالب الملتحق بالحلقات القرآنية ينبغي أن يلمس نمواً في روحه، ونمواً في عقله، ونمواً في جسده.

وهو منهج يوازن بين الثواب والعقاب، ويوازن بين التسليم والاجتهاد، ويوازن بين الضبط والمرونة.

٥. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية يعتني بالمراحل العمرية للطالب، فيُقدّر لكل مرحلة ما يناسبها من المفاهيم والتقنيات، ويستدعي خصائص كل مرحلة واحتياجاتها عند

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) تفسير الطبري ١/٣٦.

رسم البرامج والمناشط.

إنَّ أحد أسباب نفور الطلاب من الحلقة القرآنية وعزوفهم عن الالتحاق بها هو عدم اعتبار الفوارق العمرية بين الطلاب؛ مما يؤدي إلى ذبذبة الخطاب وذوبان المواهب وضعف إشباع الحاجات النفسية. ولا شكَّ أن عددًا من الحلقات سيواجه تحديًا بهذه السمة، لكن المأمول بإذن الله أن تكون العاقبة حلوة مثمرة.

وقد كانت الكتابيب للعلمان، ودور الإقراء للكبار.

٦. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية شمولي، فهو يعلم الطالب كتاب الله حفظًا وأحكامًا، ويدعو إلى الاستقامة والتدين وترك المحرمات، كما يعتني بتهديب الأخلاق وغرس الفضائل، ويفقه الطالب في أمور دينه فيعرف الحلال والحرامن ويكسب الطالب مهارات الحياة الاجتماعية، ويبصره بواقعه وتقنيات تقييمه والتعامل معه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

٧. المنهج التربوي في الحلقات القرآنية يجمع بين المثالية

والواقعية، فهو يعترف بخصائص الطلاب ويتعامل معهم بواقعهم وطاقاتهم وميولهم وشخصياتهم وغرائزهم ونوازعهم، ولا يكلفهم ما لا يطيقون، لكنه في الوقت ذاته يرتقي بذلك الواقع وبتلك الطاقات والغرائز والنوازع والميول إلى ما يستطيعون ارتقاءه من المثالية، ويوجهها إلى الخير. يقول الماوردي: «ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للمعلم وأنجح للمتعلم»^(١).

وهو منهجٌ يقدرُّ التحديات التي فرضتها البيئة الاجتماعية والثقافية وينظر إليها بوصفها أحد المعطيات المهمة في بناء المنهج.

شروط نجاح المنهج في الحلقات القرآنية:

الشرط الأول: أن تتبنى الإدارة العليا للمؤسسة القرآنية فكرة المنهج التعليمي من أَلْفِهِ إلى يائه، حيث هي من تملك القرار الحقيقي في إعداد وتنفيذ هذا المنهج، وهي أيضاً من تعتمد الموازنة المالية لذلك.

(١) أدب الدنيا والدين ص ٨٩.

ولعلَّ اقتناع الإدارة العليا بفكرة المنهج مما يستحق أن يكون محلَّ نظر وتأمل ومعالجة، حيث بات من أكبر التحديات التي يواجهها المربون في المؤسسات القرآنية ويرجع السبب الأهم في ضعف عناصر المنهج التعليمي لديهم إلى ضعف أو انعدام القناعة من الإدارة العليا.

الشرط الثاني: التخطيط للمنهج في كل مرحلته: الإعداد، والتنفيذ، والتقويم، والتطوير؛ فلا مجال للعشوائية والارتجال في التعليم. ويفضَّل أن يكون إعداد المنهج التعليمي للحلقات القرآنية مشروعًا تعتمد الإدارة العليا للمؤسسة القرآنية، ويدار بمنهجية إدارة المشروعات الاحترافية بغرض الرفع من مستوى جودة المخرجات.

الشرط الثالث: تأهيل المعلمين لتنفيذ واجبه التعليمي، فإنهم حجر الزاوية، ومهما أبدعت المؤسسات القرآنية في إعداد المناهج وتطويرها، فإنَّ المعلمين هم من يقع عليهم عبء الممارسة التعليمية والتربوية، وستتطرق لاحقًا بإذن الله إلى هذا الشرط بتفصيل.

الشرط الرابع: التقويم المستمر للمنهج التعليمي بكافة عناصره، وتصحيح انحرافات التنفيذ الناشئة عَرَضًا، واستدراك أخطاء التخطيط والتنفيذ، والتجرد في هذه المسألة، فإن وقوع الخطأ مسألة طبيعية، أما غير الطبيعي هو الاستمرار فيه والإغضاء عنه خشية التقليل من شأن المخطئ.

مخرجات المنهج في الحلقات القرآنية:

في نهاية المطاف سيتخرج الطالب في الحلقة، وسيحفظ ما قدره الله له من كتاب الله، مستفيداً من المواد التربوية المقدمة له في الحلقة، وسيمضي في شؤون حياته أياً كانت. فما هي صفات هذا الطالب الذي أمضى سنواتٍ في الحلقة القرآنية؟ وما هي النتيجة التربوية التي جنتها المؤسسة القرآنية من هذا الطالب بعد رعايتها له وتربيتها له التربية القرآنية؟

لعل أبرز مواصفات المخرج التربوي للمنهج والمتمثل في هذا الطالب ما يلي:

١. الاستقامة على طاعة الله: فهو يلتزم طاعة الله ومرضاته،

ويجب ما يحبه الله، متبعاً لسنة النبي ﷺ، يعلوه وقار الطاعة وسكينة الإيمان يتقي المحارم والمعاصي ليكون أعبد الناس، ويستعيد بالله من سخطه وغضبه، ويتجنب سبيلهما، ويخاف الله في ألفاظه وأفعاله وحركاته وسكناته.

يصف الذهبي التابعي الجليل الأسود بن يزيد النخعي فيقول: «وهو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسنن، يُضرب بعبادتهما المثل»^(١) أي: الأسود ومسروق. وهما معاً من خاصة النجباء من تلاميذ حلقة ابن مسعود رضي الله عنه الذي قال: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبناهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكاؤه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون»^(٢).

ولا يعني ذلك عصمته من الخطأ والزلل، فطبيعة البشر أن يقعوا في الخطأ، لكنه سرعان ما ينهض من وقعته وكبوته فيصحح خطأه ويتوب إلى الله ويلتزم عبوديته لله ويسلك

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٠.

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤٣.

الصراط المستقيم كما أنه يتعد أشد البعد عن الفواحش والكبائر: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَ﴾ [النجم: ٣٢].

وعبوديته لله تستلزم خضوعه له وحده، فلا يخضع لأحد إلا الله، ولا ينحني لسواه.

٢. ثابت المنهج برغم تغير الظروف وتبدل الأحوال وتنوع الموجات الفكرية: فلا يستخفه الذين لا يوقنون. يستمد ثباته من إيمانه العميق بما أنزل الله في كتابه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ومن اعتزازه بتمسكه بالقرآن، يخالط الناس دون أن يأذن لهم بأن يخذلوه دينه، ويعيش في أوساطهم رافعاً رأسه بما وهبه الله من آيات الذكر الحكيم. وهو مع ذلك قادرٌ على مواكبة التغيرات والتأقلم مع الظروف والعيش في وهج الانفتاح، يُفرِّق بين المنهج من جانب وبين الأدوات والتقنيات من جانب، فلا يغيّر المنهج وإنما يغير الأدوات والتقنيات، ويمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله على هدى من الله.

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يملكون مهارات التعامل مع الانفتاح على الأمم الأخرى، رباهم عليها النبي ﷺ؛ مما سهّل عليهم العيش في أوساط تلك الأمم: فارس والروم، واستفادوا منها ما يجوز شرعاً الاستفادة منه، كتدوين الدواوين وبعض الأنظمة الإدارية، وتعاملوا مع الواقع المنحرف بما يمكن التعامل معه دون أن يلحق ببيان الإيمان فيهم ذرة غبار من شوائب تلك الحضارات.. قال أبو أيوب رضي الله عنه: «قدمنا الشام فوجدنا مراحيض بنيت قِبَلِ الْقِبْلَةِ، فنحرف عنها ونستغفر الله تعالى»^(١).

ولقد تغلغل الفكر الصوفي في أوساط المجتمعات الإسلامية في أحقابٍ فائتة، وترك بصمته المشؤومة بغرس السلبية والانعزال والخمول والاستسلام للأقدار، وهذا مما ينبغي التنبُّه له.

٣. مستقل الشخصية: له طريقته في التفكير واختياره للبدائل، ينظر إلى الأمور بعين بصيرته وليس بصره. يقود نفسه بالحجة والبرهان، هجيره: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ليس إمعة، ولا يقوده الإعلام، ولا يستنزفه التيّارُ الغالب، ولا تستهويه الموضة. ومن وصايا المقرئ الكبير (١) البخاري ١٤٦/١ ح (٣٩٤).

ابن مسعود رضي الله عنه لطلابه: «اغدُ عالماً أو متعلماً ولا تكونن إمعة بين ذلك»^(١). وقدم التابعي الجليل مسروق إلى المدينة، فسمع قول زيد بن ثابت في مسألة فرضية يخالف فيها قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأعجبه، ف قيل له: أترك قول عبد الله؟ فقال: «أتيت المدينة فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم»^(٢). تأمل في هذا! فمسروق من نجباء تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه ومن أصحابه الخُص، ومع ذلك فإن التربية التي تلقاها جعلت له استقلالاً في آرائه، لا يحكمه إلا العلم الراسخ والحجة الواضحة، وليس الانتفاء أو التعصب للرجال.

ومع ذلك فليده القدرة على الموازنة بين الجماعية والفردية، فهو يعرف ما عليه تجاه من يجمعهم به جامع، فيقوم بهذه الواجبات، وحين حجَّ بالناس أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأتمَّ الصلاة أربعاً في منى؛ أنكر ابن مسعود رضي الله عنه هذا الأمر، لكنه صلى معه أربعاً، ف قيل له: عبت على عثمان ثم صليت

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ١٥٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٣٧.

أربعًا، قال: «الخلاف شرٌّ»^(١).

٤. كريم اليد والنفوس: يحبُّ الخير للناس، وينفع المجتمع، ويساهم في بنائه، ويشعر بمسؤوليته في كونه لبنة صالحة في بنيانه، يمنع الظلم ويأنف منه ويسعى في التخفيف منه. ولا يستطيع العيش إلا داعية إلى دين الله بلسانه أو بقلمه أو بسمته أو بعملهن لشخصيته هالةً من الحب والقبول في الوسط الذي يعيش فيه، مَصْنَعٌ للأفكار الخلاقة، وملاذٌ للملهوفين والمستضعفين، ينفق المال في سبيل الله، وكذلك هو ينفق العلم والفكر، ولا ييخل بالإحسان والساحة.

ولقد كان القراء من أصحاب النبي ﷺ على هذه الصفة فكانوا بُناةً للأمم بعد فتحها بالجهاد، فمنهم من جاد بروحه في سبيل الله ونال الشهادة كسالم مولى أبي حذيفة، ومنهم من طفق يعلم الناس ويسوسهم ويصلح معاشهم كأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم جميعًا.

وهو مبدعٌ لا يستسلم للإخفاقات، بل يتكرر ويخترع ما

(١) أبو داود ١٩٩/٢ ح (١٩٦٠).

يفيد نفسه ودينه ومجتمعه، ولا يجمد على أساليب قديمة، بل يجددها.

٥. ذو خلق ومروءة: قد كَسَتْهُ حلقةُ القرآن الكريم ثوبَ الفضائل وألبسته تاج الوقار، وتكاملت في روحه ونفسه الأخلاق الفاضلة، ليِّنَ المعشر يألف ويؤلف، طيَّب الحديث وصادق الوعد، ليس بالكذاب ولا الخائن، كارهُ للظلم والتعسف، تدفعه مروءته إلى الدفاع عن المظلومين والمخسوفين، وإسعادِ المحزونين، فلا يشيع وجاره جائع، يكرم الأضياف ويبر والديه ويحسن إلى أقاربه. سُئِلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت للسائل: «أَلَسْتَ تقرأ القرآن؟» قال: بلى. قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن»^(١). يكظم غيظه ويعفو عن الناس ويحمي الفضائل ويحارب الرذائل، نزيهاً عن الدنئات والبذئات، ونزيهاً عن الأحقاد، ونزيهاً عن الاختلاسات والرشاوى. قد طَهَّر داخله وخارجه، ومظهره ومخبره، فهو طيَّب نقي: نقي الكلام، ونقي القلب، ونقي المال، ونقي المجلس^(٢).

(١) مسلم ١/٥١٣ ح (٧٤٦).

(٢) استفدت في مبحث المخرجات من كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/ ٢٢٣-٢٣٤.

وبعد: فإن صياغة منهج تربوي وتعليمي تعتمد المؤسسة القرآنية يعدُّ إضافة قيِّمة على مكونات العمل التعليمي في هذه المؤسسات، والمأمول من قيادات هذه المؤسسات النظر في هذا الأمر وتأمّله.

الحلقات القرآنية ورعاية الحفاظ

سؤال: هل يمكننا أن نصنف حُفَاط القرآن الكريم على أنهم موهوبون؟

دعونا نتلمس الإجابة على هذا السؤال المهم في تعريف الموهوب:

يعرّف «ويتني» الموهوب بأنه الذي يُظهر تفوقًا مستمرًا، في أيّ ميدان من ميادين الحياة. كما أوردت «مارجريت لندسي» تعريف الموهوب بما جاء في القانون الأمريكي العام: من يمتلك قدرات كامنة، أو ظاهرة، يدلُّ عليها أداءٌ رفيع في مجالات عقلية أو ابتكارية أو أكاديمية أو قيادية أو في الفنون الأدائية أو التشكيلية.

إن الموهبة في مفهومها الشامل لم تعد قاصرة على التحصيل في المجال الدراسي والأكاديمي، بل تعبر عن أداء مرتفع لدى

الموهوب في شتى المجالات^(١).

من المفهوم الشامل للموهوب فإننا وبثقةٍ يمكننا تصنيف حفاظ القرآن الكريم ضمن الموهوبين، ولا أودُّ الإطالة في بيان ذلك فهو من الواضح بمكان لدى التربويين، لكنني أتساءل: ما هو دور المؤسسات القرآنية في رعاية هذا النوع من الموهوبين، أعني حفاظ القرآن الكريم، وماذا يمكن أن تقدمه لهم؟ ولعلَّ فيما يأتي ما يجيب على هذين التساؤلين.

لقد أعطت المؤسسات التربوية الحكومية في العالم أولويةً تربويةً للموهوبين، وصُنِّفوا تربويًّا ضمن ذوي الاحتياجات الخاصة، أي أنهم بحاجة إلى عطاء تربوي خاص يختلف عن أقرانهم غير الموهوبين. وتقوم وزارات التربية والتعليم في العالم بإقامة برامج خاصة للموهوبين ذات ميزانيات عالية، إذ إن أعظم الاستثمار هو الاستثمار في الإنسان، بل وصل الحال إلى أن أسست الحكومة الأردنية مدرسة «اليوبيل» وهي مدرسة ثانوية مختلطة

(١) انظر: الموهوبون ورعايتهم رؤية تربوية، دراسة أعدها أ.د. إبراهيم بسيوني عميرة، منشورة في كتاب: الموهوبون أساليب اكتشافهم وسبل رعايتهم في التعليم الأساسي، مكتب التربية العربي لدول الخليج ص ١٩ - ٢٠.

تقدم برنامجاً للطلبة الموهوبين والمتفوقين من مستوى الصف العاشر (الأول الثانوي) وحتى نهاية المرحلة الثانوية، ويقتصر برنامجها على طلبة الفرع العلمي الذين يتم اختيارهم بعناية من بين مئات المرشحين من مختلف أنحاء المملكة الأردنية^(١).

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ورعاية الحفاظ:

سأعرض لك هاتين الروايتين الواردتين عن الأمير المقرئ الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

بعد قرابة اثنتي عشرة سنة، وفي ختام مسيرته التعليمية بمسجد البصرة، أو في ختام مرحلة منها؛ اجتمع أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بالتلاميذ الذين أتموا حفظ القرآن الكريم، حيث قال لمساعديه: لا تُدخِلوا عليَّ إلا من جمع القرآن. قال أبو الأسود الديلي: فدخلنا عليه زهاء ثلاثمائة! فوعظنا، وقال: «أنتم قرء أهل البلد، فلا يطولنَّ بكم الأمد، فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب، لقد أنزلت سورة كُنَّا نشبهها ببراءة طولاً وتشديداً، حفظتُ منها آية: لو كان لابن آدم واديان من ذهب

(١) الموهبة والتفوق والإبداع، فتحي جروان ص ٤١٢.

لالتمس إليهما واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. وأنزلت سورة كنَّا نشبهها بالمسبحات أولها سبح لله، حفظت آية كانت فيها: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، ثم تسألون عنها يوم القيامة».

وفي رواية أبي كنانة قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه للتلاميذ الذين أتموا حفظ القرآن الكريم: «إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زجَّ في قفاه فقذفه في النار»^(١).

هاتان الروايتان قد تكونان في مناسبة واحدة، وقد تكونان في مناسبتين مختلفتين، لكنهما تفيضان اجتماعًا يعقده أبو موسى الأشعري رضي الله عنه بصفته الأستاذ، مع التلاميذ الذين أتموا حفظ القرآن كاملاً، يقوم فيه على توجيههم ووعظهم، لينعكس أثر القرآن على سلوكهم وسمتهم.

(١) حلية الأولياء ١/٢٥٧.

إذن أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لم يكتفِ بأن قدّم دور «المحفّظ» لطلاب البصرة بل أضاف دورًا آخر هو دور «المربّي»، وذلك إيمانًا منه بأن مسألة «جمع» القرآن مسألة لها ما بعدها، إما الجنة أو النار، وأنّ عليه كـ «مقريّ مربّب» أن يأخذ بأيدي تلاميذه إلى الجنة بعد أن حفظوا القرآن الكريم، وأن يسعى في وقايتهم من نار جهنم. أعادنا الله وإياكم منها.

وفي حديثه التربوي مع تلاميذه ما يفيد اختصاصهم بمزيد عنايته، فقد جمع الذين أتموا حفظ القرآن الكريم فقط من بين الكثرة الكاثرة من تلاميذه في مسجد البصرة، كما يفيد أنهم أهلٌ للاهتمام حيث قال: «أنتم قرّاء أهل البلد».

أهمية رعاية الحفاظ:

- لقد سمى الله الذين حفظوا القرآن: علماء؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، قال الشوكاني رحمه الله: «يعني المؤمنین الذين حفظوا القرآن على عهدہ رضي الله عنه وحفظوه بعده»^(١)، وهذا يعني أن الحلقة التي أتم فيها

(١) فتح القدير ٤/ ٢٥٨.

بعض الطلاب القرآن الكريم حلقةً تضم بين جنباتها علماء، فوجب الاهتمام بهؤلاء العلماء.

- لا ينفع الحفظ دون الفهم الجيد لهذا القرآن وفقهه، يقول ابن حزم محلاً نشوء التكفير عند فرق الخوارج: «كانوا أجلاًفاً أعراباً قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء، لا من أصحاب ابن مسعود، ولا أصحاب عمرو ولا أصحاب علي ولا أصحاب عائشة ولا أصحاب أبي موسى ولا أصحاب معاذ بن جبل ولا أصحاب أبي الدرداء ولا أصحاب سلمان ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر، ولهذا تجدهم يكفّر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا، وصغارها...»^(١)، فتأمل حال هؤلاء: يحفظون القرآن ويستدلون به ويكثرون من العبادة، غير أن فهمهم السقيم للآيات وعدم تبصرهم بدلالاتها وترك التفقه في كتاب الله تعالى على أيدي المرّبين العارفين جعلهم يسلكون هذا المسلك من الانحراف عن الجادة، وجرّ الأمة إلى شفير الانقسامات والاقترالات وجلب الويلات لها.

(١) الفصل في الملل والنحل ٤/ ١٣٢.

- وجهت السنة إلى العناية بالحفاظ في الدنيا في عدد من الأحاديث، منها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»^(١). ومنها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول: «أيهما أكثر أخذًا للقرآن؟» فإن أشير إلى أحدهما قدّمه في اللحد^(٢).

- حفاظ القرآن الكريم مظنة التروّس والوجاهة والمكانة الاجتماعية والدينية، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه...»^(٣).

(١) أبو داود ٤/٢٦١ ح (٤٨٤٣) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٩١٨/٣.

(٢) البخاري ١/٤١٢ ح (١٣٤٣).

(٣) البخاري ٣/٢٣١ ح (٤٦٤٢).

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: «من استعملت على أهل الوادي؟» فقال: ابن أبزى. قال: «ومن ابن أبزى؟» قال: مولى من موالينا. قال: «فاستخلفت عليهم مولى؟!» قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض. قال عمر: «أما إن نبيكم ﷺ قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين)»^(١).

بل إن النبي ﷺ أمر أن يؤمَّ الناس في الصلاة أقرؤهم لكتاب الله^(٢)؛ ومجموع هذه الآثار تدل على أن حفاظ القرآن الكريم هم المقدمون في إمامة الصلاة وإمارة الناس، وتصديهم لهذه الشؤون يتطلب قدرًا كافيًا من التهيئة والتأهيل والتجهيز.

- حفاظ القرآن هم تلاميذ اليوم وأساتذة الغد، أي إنهم سيكونون في مستقبل الأيام نقلة الرسالة من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق، وحمل القرآن ونقل الرسالة لا يقوم بهما كما ينبغي إلا من أصبح لهما أهلاً وله على حملهما قدرة، ولا يكون ذلك بدون الاعتناء بتلاميذ اليوم الذين أتموا حفظ القرآن الكريم.

(١) مسلم ١/٥٥٩ ح (٨١٧).

(٢) مسلم ١/٤٦٥ ح (٦٧٣).

ما يمكن أن تقدمه الحلقات القرآنية لحفاظ

القرآن:

أولاً: الاهتمام بالمراجعة وإتقان الحفظ:

وذلك لأن القرآن الكريم يُنسى بعدم المراجعة، وحينها تفوت فضائل حفظه في الدنيا والآخرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له [لفظ مسلم: الماهر بالقرآن] مع السفارة الكرام البررة، ومثل الذي يقرأ القرآن وهو يتعاهده وهو عليه شديد [لفظ مسلم: وهو يتتبع فيه وهو عليه شاق] فله أجران»^(١). قال النووي رحمه الله: «الماهر الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف، ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه، وأما الذي يتتبع فيه فهو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه»^(٢). فتأمل هذا الفضل العظيم كيف يفوت على حافظ القرآن حين تكون درجة إتقانه لحفظه متدنية! لذا ثبت عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصيًّا من

(١) البخاري ٣/٣٢١ ح (٤٩٣٧) ومسلم ١/٥٤٩ ح (٧٩٨).

(٢) شرح النووي ٦/٣٢٦.

الإبل في عقلها»^(١). قال ابن حجر رحمه الله: «التشبيه وقع بين ثلاثة بثلاثة: فحامل القرآن شبه بصاحب الناقة، والقرآن بالناقة، والحفظ بالربط»^(٢). وعليه فإنَّ القرآن من طبيعته أن يتفلسف كما تفلسفت الناقة من عقابها، فيجب على من حفظ أن يتعاهد القرآن ويحكم حفظه كما يحكم صاحب الناقة ربطها بالعقال.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس ما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت، بل نسي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً من صدور الرجال من النعم»^(٣). قال البغوي رحمه الله: «نُسي»: أي عوقب بالنسيان على ذنبٍ أو سوء تعهده للقرآن»^(٤).

وإذا كان العلماء استنبطوا وجوب مراجعة القرآن وتعاهده من الأحاديث السابقة، فإنَّ فعل النبي ﷺ وسلف الأمة يدلُّ على أن العرض على معلِّمٍ: صورة من صور التعاهد والمراجعة، فعن

(١) البخاري ٣/٣٤٨ ح (٥٠٣٣).

(٢) فتح الباري ٨/٧٠٠.

(٣) البخاري ٣/٣٤٨ ح (٥٠٣٢).

(٤) شرح السنة ٤/٤٩٥.

عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرياح المرسل»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض»^(١) قال ابن حجر رحمه الله في قوله «يعرض القرآن»: «أي يقرأ، والمراد يستعرضه ما أقرأه إياه. وقال: والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلاً منهما كان تارة يقرأ والآخر يستمع»^(٢). وعن مجاهد قال: «عرضت القرآن على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته ثلاث عرضات، أفقه عند كل آية»^(٣).

ومن وسائل الاهتمام بمسألة الإتقان الاختبارات، ومن اللطائف أن خباب بن الأرت فعل ذلك مع تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنهما^(٤)، وهي مفيدة لاسيما إذا كانت مجدولة أو بشكل متكرر، وكل ما يؤدي إلى مقصودها فهو مثلها كالمسابقات،

(١) البخاري ٣/٣٤١ ح (٤٩٩٧، ٤٩٩٨).

(٢) فتح الباري ٨/٦٥٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٦/١٥٣ رقم (٣٠٢٧٨).

(٤) البخاري ٣/١٧١ ح (٤٣٩١) وانظر الإفصاح ٢/٨٢.

حيث تهدف في نهاية المطاف إلى إتقان المحفوظ، فإن الاختبارات والمسابقات القرآنية تحفز الطالب نحو المراجعة ونحو وتركيز اجتهاده في إتقان المحفوظ.

ومن وسائل الاهتمام بمسألة الإتقان: الإمامة بالناس في صلاة التراويح، يقول ابن خزيمة: «استأذنت أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك. فاستظهرت القرآن، فقال لي: امكث حتى تصلي بالختمة. ففعلت، فلما عَيَّدْنَا أذن لي»^(١).

ثانياً: التربية والتوجيه:

في تحليل الإمام ابن حزم رحمه الله لتكفير الخوارج لبعضهم الأنف الذكر إشارة قوية إلى أهمية اقتران التربية بحفظ القرآن، وأن حفظ القرآن لوحده دون التربية الصحيحة على آدابه وأحكامه ودون الفهم السليم لمعانيه ومراده قد يكون وبالأعلى حافظ القرآن هذا. وعلى هذا دلَّت النصوص كما في حديث أبي

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٧١.

هريرة رضي الله عنه: «أول من تسعر بهم النار ثلاثة»^(١)، ومما ينبغي أن يتربى عليه حافظ القرآن:

- صدق الإيمان وصدق توجه القلب إلى الله تعالى: ذلك هولبُ أعمال القلوب، وقد قال جندب رضي الله عنه: «كنا مع نبينا فتياً حزاورة، فتعلمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلمنا القرآن فزددنا به إيماناً»^(٢). وقال ابن عمر: «لقد عشنا برهة من دهرٍ وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن»^(٣)، ويقصد أنهم كانوا يتعلمون الإيمان قبل تعلمهم القرآن، فإذا كان هذا هو حالهم قبل تعلم القرآن فما بالك بحالهم حين يحفظون القرآن!

التربية على صدق الإيمان تتجلى في أبهى صورها في الإيمان باليوم الآخر واليقين بما جاء فيه من أخبار الجنة والنار والقبر والبعث والنشور، لقد كانت هذه الصور حاضرة تماماً في سلوك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغوا مرتبة الإحسان.

(١) الترمذي ٥٩١/٤ ح (٢٣٨٢).

(٢) ابن ماجه ٤٦/١ ح (٦١) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٣٧/١.

(٣) مستدرک الحاكم ٩١/١ رقم (١٠١).

إننا اليوم، واليوم بالذات بحاجة ملحة إلى تصدر هذا الجانب من التربية في أولويات مقرراتنا.

- التربية على التعبد والتسكك فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يوصي حفظة القرآن فيقول: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكاؤه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يخالون»^(١).

- التربية على قيام الليل: فقيام الليل على وجه الخصوص، له تأثير خاص على حافظ القرآن من جهتين - فضلاً عن الفضائل المتواترة في قيام الليل - : أما الأولى فلكونه أثبت لحفظ القارئ إذا كان يقوم الليل من حفظه، كما صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقم به نسيه»^(٢) وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]: «أحفظ للقراءة»^(٣).

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤٣.

(٢) السلسلة الصحيحة ١٤٧/٢ ح (٥٩٧).

(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٢٦٣.

أما الثانية فكونه سمّت عبادي لحامل القرآن، وقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار... الحديث»^(١). قال الحسن البصري رحمه الله: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويُفقدونها في النهار»^(٢)، فأنت ترى من مجموع النصوص ارتباط قيام الليل بحفظ القرآن.

- التربية على ملازمة تلاوته: وهي لازمٌ من لوازم القيام بالقرآن الأنف الذكر. وقد كان سلف الأمة على هذا الأمر، بدرجات متفاوتة في مقدار ما يتلونونه. وسيأتي مزيد بيان لهذه الفقرة.

- التربية على التدبر والفهم: وهو المقصود من إنزال القرآن ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فإذا لم يحصل التدبر والفهم لم يُغنِ حفظ القرآن عن صاحبه شيئاً. لقد كان أصحاب النبي ﷺ يربُّون حفاظ القرآن

(١) البخاري ٣/٣٤٦ ح (٥٠٢٥)، ومسلم ١/٥٥٨ ح (٨١٥).

(٢) التبيين في آداب حملة القرآن ص ٤٣.

على هذا، عن أبي وائل قال: «جاء رجل يقال له: نبيك بن سنان إلى عبد الله [يعني ابن مسعود] فقال: يا أبا عبد الرحمن! كيف تقرأ هذا الحرف، ألفاً تجده أم ياءً: ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ يَاسِنٍ﴾ أو من ماء غير ياسين؟ قال: فقال عبد الله: وكلّ القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذا كهذا الشعر؟ إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»^(١). فانظر إلى هذا الإمام المربي وهو يلفت أنظار الحفاظ إلى جانب مهم في حفظ القرآن: التدبر والفهم. قال النووي رحمه الله: «معناه إن قومًا ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب»^(٢).

- التربية على الزهد في ما عند الناس والاستغناء بالقرآن: كان عمر رضي الله عنه يوصي حفاظ القرآن الكريم، فيقول: «يا معشر القراء! ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا

(١) مسلم ٥٦٣/١ ح (١٢٢).

(٢) شرح النووي ٦/٣٤٥.

الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على الناس». وعن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: «ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له حاجة إلى أحدٍ من الخلفاء فمن دونهم»^(١).

وفي الوقت الذي ينبغي على الحلقات القرآنية تربية الحفاظ على الزهد في ما عند الناس والاستغناء بالقرآن تشتد الحاجة إلى أن تقدم الحلقات لهم البرامج التدريبية المتعلقة بالجانب العملي في اكتساب الرزق والتعفف.

- التربية على الاعتدال والتوسط ونبذ الغلو والجفاء: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كَتَّتُهُ [أي زوجة ابنه] فيسألها عن بعْلِها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يَطأ لنا فراشاً ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناها. فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ، فقال: «القني به» فلقيته بعد، فقال: «كيف تصوم؟» قلت: أصوم كل يوم. قال: «وكيف تحتُم؟» قلت: كل ليلة. قال: «صم في كل شهرٍ ثلاثة واقراً القرآن في كل شهر». قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: «صم ثلاثة أيام في الجمعة» قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٤٣.

قال: «أفطر يومين وصم يوماً». قلت: أطيع أكثر من ذلك. قال: «صم أفضل الصوم صوم داود، صيام يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليالٍ مرة». فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ^(١). فهذه تربية من النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما على التوسط والاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه، وهكذا ينبغي على المربين في الحلقات القرآنية أن يعملوا على إحداث الاتزان في حياة حافظ القرآن.

- التربية على الاستقامة وترك المعاصي والمحرمات: نقل البغوي عن الضحاك بن مزاحم قوله: ما من أحدٍ تعلّم القرآن ثم نسيه إلا بذنبٍ يحدثه، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] ونسيان القرآن من أعظم المصائب^(٢). وهذه إشارة إلى مسؤولية التربية الإيمانية التي ينبغي العناية بها لطلابنا الحفاظ، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: «يا معشر القراء! استقيموا، فقد سبقتم سبقاً بعيداً، وإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد

(١) البخاري ٣/٣٥١ ح (٥٠٥٢).

(٢) شرح السنة ٤/٤٩٥.

ضللتهم ضاللاً بعيداً»^(١).

كم هو مؤسف أن ترى عشرات الحفاظ للقرآن الكريم يستسهلون المعاصي والمحرمات، ولا تطيب نفوسهم بالاستقامة، وإنك لتساءل: أين التربية القرآنية؟ وما هي الفائدة من هذا النتاج الشكلي الخالي من المضمون والجوهر؟!

- التربية على القيام بواجب الدعوة: قال رسول الله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(٢)، فقد كان القراء من أصحاب النبي ﷺ والتابعين يتصدرون المبلغين دعوة الله إلى الأمة، وقد ساهم الله علماء في كتابه، فوجب عليهم الدعوة والبلاغ، لكن هذا الواجب لا يمكن للحفاظ أن يقوموا به ما لم تكن الحلقة القرآنية تربيهم على ذلك وتربيهم على مهاراته وآدابه وضوابطه والالتزان فيه. وإنما بحاجة في هذا الزمن إلى إيقاد جذوة الدعوة إلى الله بثتى فنونها وتقنياتها في نفوس طلاب الحلقات القرآنية وفق منهج منضبط متوازن يجمع بين الأصالة والإبداع، وإلا فإن تخريج طالب يحفظ القرآن الكريم دون أن يكون لديه همُّ حمل

(١) البخاري ٤ / ٣٦٠ ح (٧٢٨٢).

(٢) البخاري ٢ / ٤٩٣ ح (٣٤٦١).

الدعوة إلى الله يشبه طباعة مصحف جديد فقط.

لما مات النبي ﷺ كان علماء الصحابة وقراءهم رسلاً من الخلفاء إلى الأمصار ليعلموا الناس دين الله ويبلغوهم دعوة الله، فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا موسى الأشعري إلى البصرة مقررًا وأميرًا، وأرسل عبد الله بن مسعود إلى الكوفة وأرسل أبا الدرداء ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت إلى الشام، فأنشأوا مدارس القرآن العظيمة التي ننهل من علومها إلى اليوم.

ثالثًا: تعليم أحكام القرآن وتفسيره:

هذا سيد القراء أبي بن كعب رضي الله عنه يعلمه النبي ﷺ أعظم سورة في القرآن^(١) وقد كان القراء من أصحاب النبي ﷺ عالمين بالتفسير والأحكام، بل كان تعليمُ التفسير والأحكام هديًا تعليميًا يعمل به معلمو القرآن الكريم منهم، قال مجاهد: «عرضت القرآن على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته ثلاث عرضات أوقفه عند كل آية»^(٢).

(١) البخاري ٣/٣٤٢ ح (٥٠٠٦).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٦/١٥٣ رقم (٣٠٢٧٨).

ومن العجيب أن هدي السلف رحمهم الله جرى على ألا يَشْرَع أحدٌ في طلب العلم إلا بعد أن يَخْتِم القرآن الكريم، كما أوصى بذلك عبدُ الله بن عبيد بن عمير ابنُ جريج، حيث ذهب ابنُ جريج لِيُطَلِّب العلم على عطاء فقال له عبد الله بن عبيد: قرأت القرآن؟ قال ابن جريج: لا. قال: فاذهب فاقرأه ثم اطلب العلم^(١). وقال ابن أبي حاتم الرازي: «لم يدعني أبي أشتغل في الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان الرازي، ثم كتبت الحديث»^(٢).

رابعاً: اكتشاف قدرات الحفاظ وتوجيههم نحو استثمارها:

لا شك أن حفاظ القرآن الكريم لديهم مواهب مشتركة أَلْف بينها حفظهم لكتاب الله، ككثير من مهارات التفكير، والمهارات اللغوية والفنية. وهذه النقطة لوحدها بحاجة إلى تتبع ودراسة وتمحيص، غير أن كل طالبٍ حافظٍ للقرآن الكريم هو عبارة عن شخصية مستقلة ذات ميول واستعدادات تختلف عن شخصية الحافظ الآخر وفقاً لتأثيرات الوراثة والبيئة، وإن باجتماعها

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٢٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٥.

مع حفظ القرآن ترقى بالطالب لأن يكون ميمراً في جانب من الجوانب الحياتية. وإنَّ على المؤسسة القرآنية أن تبحث عن كُنْه هذه الشخصية وتكتشف طاقاتها وقدراتها وتعمل على تفعيلها، لعل الله أن ينفع بها الأمة والإسلام، أو على الأقل يكون الحافظ عنصراً فعالاً في ذاته وأسرته.

هذا شيخ المقرئين والفرضيين كما يسميه الذهبي^(١) الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضي الله عنه وهو ممن حفظوا القرآن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة. قال: فقرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلّم لي كتابَ يهود؛ فإني والله لا آمنهم على كتابي» قال: «فتعلّمته. فما مضى لي نصف شهر حتى حدّثته، وكنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كتب إليهم»^(٢).

فتأمل قدرة المربي الكبير صلى الله عليه وسلم على اكتشاف قدرة زيد بن ثابت على تعلّم اللغات، وهو جزء مما يسمى اليوم «الذكاء

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٨.

اللغوي» ثم وجَّهه إلى استثماره فكان أن أتقن لغة بأكملها في نصف شهر. لم يقف هذا الذكاء اللغوي عند هذا الحد، فقد تعلم الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يومًا، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خدام رسول الله ﷺ^(١).

إن هذا يدعونا إلى اكتشاف طلابنا الذين حفظوا القرآن اكتشافًا علميًا دقيقًا وليس اكتشافًا انطباعيًا تفرسيًا، لأن النتيجة حين يكون الاكتشاف موفقًا نتيجة مبهرة.

وإن جزءًا كبيرًا من مشكلات حفاظ القرآن اليوم أتهم فاقدون للبوصلة، وعلى المؤسسات القرآنية أن تعيد لهم هذه البوصلة الخطيرة، من خلال اكتشاف قدراتهم واستعداداتهم وذكاءاتهم، ومن خلال سماتهم الشخصية، ومن خلال ميولهم المهنية، ومن خلال اتجاهاتهم القيمة.

برامج رعاية الحفاظ:

من خلال ما سبق يتبين لنا أهمية صياغة البرامج الخاصة برعاية حفاظ القرآن الكريم، وفي هذه الحال، وعند وجود القناعة الكافية لدى المؤسسة القرآنية بأهمية وجود هذه البرامج الخاصة فإننا نوصي بما يأتي:

١. أن تكون رعاية الحفاظ أمرًا متفقدًا عليه لدى القيادات العليا في المؤسسة القرآنية، ويمكن ترجمة ذلك بوجود بنود خاصة بهذا الشأن في سياسات ولوائح المؤسسة، وفي حال فقدان القناعة أو ضعفها لدى القيادات فإن حماس التنفيذيين في المؤسسة سيصطدم بصخرة السلبية لدى القيادات العليا.

٢. ينبغي أن يتولى الإشراف والتنظيم والتخطيط ودراسة الاحتياجات لبرامج رعاية الحفاظ: نخبة من التربويين ذوي العلم والخبرة، عبر إدارة مستقلة أو لجنة مكلفة ونحو ذلك، وأن تُمنح لهم الصلاحيات اللازمة والثقة الكافية ليقوموا بهذا الدور على أفضل ما يمكن.

٣. صياغة منهج تربوي إثرائي لرعاية الحفاظ صياغة

علمية يلبي احتياجاتهم الخاصة، ويواكب قدراتهم، ويكون مكملاً للبرنامج التربوي المقدم لهم سابقاً. ولو بدأت بعض الحلقات بوضع قدمها في أول سلم رعاية الحفاظ مجتهدة ما استطاعت وطوّرت من خبراتها؛ فإنها بإذن الله ستصل إلى القمة في هذا النوع من النشاط.

٤. تأهيل المربين الذين سيقدمون هذا البرنامج بعناية، وفق مقاييس علمية، وتعدُّهم الصلاحيات اللازمة والحوافز المشجعة.

٥. تهيئة البيئة التربوية الصالحة لاستيعاب واستقطاب حفاظ القرآن الكريم.

وبعد..

فهذا نداء إلى المؤسسات القرآنية في كل مكان، وفي بلاد الحرمين بشكل خاص، والتي تخرِّج كل عام الآلاف من الطلاب والطالبات الذين أتموا حفظ القرآن الكريم في حلقات تحفيظ القرآن الكريم.. نداء بأن يعيدوا النظر في ثمرات جهدهم ونتاج زرعهم الذي سقوه سنين عدداً: رعاية وتنمية وتثبيتاً وتزييناً، قبل أن يذبل أو تتخطفه الريح أو تقضي عليه الآفات. والله ولي التوفيق.

معلمو القرآن الكريم: التأهيل والإعداد

بفضل من الله ثم بفضل الرغبة الصادقة في تحسين الأداء التعليمي الذي تضطلع به الحلقات القرآنية؛ قامت المؤسسات القرآنية خلال العقد الماضي بتدريب معلمي الحلقات على مجموعة من المهارات اللازمة لإدارة الحلقات وفنون التواصل وطرق التدريس، ولا شك أن هذا الأمر انعكس إيجابياً على أداء الحلقات في العموم، حيث كان المعلمون بحاجة إلى التدريب لأسباب عديدة لعلَّ من أهمها الفجوة الواضحة بين مُشكَّلات شخصية المعلمِّ ومُشكَّلات شخصية الطالب، والذي كان التحوُّل المتسارع لأنماط الحياة مسبباً لها، وربما يعتبر هذا السبب مع غيره مولِّداً لكافة الأسباب.

ولا يزال المعلمون بحاجة إلى مزيد من التأهيل والإعداد، فبرغم وجود التدريب في المؤسسات القرآنية إلا أن هناك شكوى مشتركة من الإشكالات التعليمية والتربوية. ومعلم الحلقة القرآنية هو حجر الزاوية في عمليات التربية والتعليم،

ولا غنى عن وجوده كوسيط رئيس لنقل وغرس المفاهيم والقيم والمعارف، كما أنه يمثل وجه المؤسسة لدى الجمهور والمستفيدين، ولذا ينبغي أن توجه المؤسسة بؤرة اهتمامها إليه. «ولقيت عبد الوهاب الأنطاقي فكان على قانون السلف، لم يُسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكأؤه.

فكان - وأنا صغير السنّ حينئذ - يعملُ بكأؤه في قلبي، ويبنى قواعد الأدب في نفسي. وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل!

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقناً محققاً. وربما سُئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعضُ علمانه فيتوقف فيها حتى يتقن. وكان كثير الصوم والصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما». من كلام أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله^(١) في معرض مقارنته بين أشياخه وآخرين؛ نقلته هنا لتدرك كم هو الأثر البالغ الذي سيصنعه المعلّم.

(١) صيد الخاطر ص ١٠٩.

الْخُلُقُ الْعَظِيمُ

﴿رَبِّ ۚ وَالْقَلِيمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ١-٤]. قال ابن جرير: «ذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام، وشرائعه»^(١). وقال ابن كثير: «معنى هذا أنه، عليه السلام، صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً، سجيةً له وخُلُقاً تطبَّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعَله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلُق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خلق جميل»^(٢).

ولما سُئِلت عائشة رضي الله عنها، عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت للسائل: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قال: بلى. قالت: «فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن»^(٣)، تشير إلى المعنى الذي نقلته هنا عن ابن جرير وابن كثير: أي أن النبي ﷺ كان يتمثل آداب وأحكام وأخلاق القرآن، فهو غاية الأخلاق والآداب.

(١) تفسير الطبري ١٨/٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ١٨٩/٨.

(٣) مسلم ١/٥١٣ ح (٧٤٦).

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذه الآية جاءت في سياق الدفاع عن محمد ﷺ حيث يصفه جهلة القوم بأنه مجنون، ولقد حاول المشركون أن يلصقوا به ﷺ بعض الأوصاف التي تجعل منه شخصاً غير مؤهلٍ لحمل رسالة ربانية، وغير صالحٍ لتبليغها للناس، فقال الله عز وجل: ﴿مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ۗ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۗ﴾ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾، خلقٍ عظيمٍ يؤهلك لحمل الرسالة الربانية، وتكون به صالحاً لتبليغها للناس، ولو لم تكن على هذا الخلق العظيم لما كنت مؤهلاً للقيام بأدوارك الرئيسية المشار إليها في الآية: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، قال الطاهر ابن عاشور: «اعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والعفو، والجمود، والحياء، والشجاعة، وحسن الصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة»^(١).

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٩/٦٤.

لم أقصد من هذا الحشد لأقوال المفسرين في الآيات إلا التنبية إلى أن حمل القرآن وتبليغه للناس يستدعي خلقاً عظيماً من الآداب والعلوم والأحكام والصفات تتمثل في شخص حامل القرآن ومبلّغه، ليقوم بدوره في تعليم كتاب الله وتلاوته على الناس وتزكيتهم به.

ومن خلال نصوص القرآن الكريم سيتبين لنا كيف أدب الله تعالى نبيه ﷺ لإعداده لحمل الرسالة وتبليغها للناس، من خلال أطرٍ عامة تمثل جوانب الإعداد والتأهيل التي أرى أن تتمثلها الكيانات والمؤسسات المعنية بتعليم القرآن الكريم، لتقوم بإعداد وتأهيل المعلمين في ضوءها، ومن خلال تفاصيل هي عبارة عن أمثلة لهذه الأطر.

أطر التأهيل والإعداد:

أولاً: الإعداد الإيماني:

جانب من التربية القرآنية التي تلقاها النبي ﷺ من ربه يركّز على إعداده إيمانياً، ذلك أن الإعداد الإيماني يمثل الزاد الروحي الذي يغذي القلب ويُقي على حياته في المدهمات والنوائب، ويضيء له الطريق في مسيرته البلاغية والتعليمية.

آيات تحثه على الاستكثار من الطاعات قال الله تعالى:
﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشَّرح: ٧] قال الحسن وزيد بن أسلم: «إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك». وقال منصور عن مجاهد: «إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربك وصل». وقال حيان عن الكلبي: «إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب، أي: استغفر لذنبك وللمؤمنين»^(١).

وفي الآية الأخرى يقول الله تعالى بعد ذكر محاولة المشركين فتنهم للنبي ﷺ عما أوحى الله إليه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمَنْ

(١) تفسير البغوي ٤/٦٤٢.

أَيْلٍ فَتَهَجَّدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾
 [الإسراء: ٧٨ - ٧٩]، إنه سبحانه يأمره بالتزود لمثل هذه المواقف
 برصّ القدمين بين يديه والتوجه بقلبه إليه، مصلياً وتالياً
 وذاكراً.

وفي سورة الإنسان يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
 تَنْزِيلًا ﴿٣٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا نُطْعُ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٣٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٥﴾ وَمِنَ الْآيِلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٦﴾
 [الإنسان: ٢٣-٢٦] قال سيد في الظلال: «هذا هو الزاد. اذكر
 اسم ربك في الصباح والمساء، واسجد له بالليل وسبحه طويلاً..
 إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن، وكلفك الدعوة،
 هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد.. الاتصال به ذكراً وعبادة
 ودعاء وتسييحاً.. ليلاً طويلاً.. فالطريق طويل، والعبء ثقل.
 ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير. وهو هناك، حيث يلتقي
 العبد بربه في خلوة وفي نجاء، وفي تطلع وفي أنس، تفيض منه
 الراحة على التعب والضمنى، وتفيض منه القوة على الضعف
 والقلّة»^(١).

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٨٥.

وفي سورة الطور أمر الله نبيه ﷺ أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة^(١) فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨-٤٩] أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل^(٢).

بل وصل الحال في التربية القرآنية على العبادة أن فرض الله تعالى قيام الليل مدة من الزمان، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمَرْمَلُ ﴿١﴾ قَوْماً لَّيَالٍ لَّأَقْلِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ١-٤].

إنَّ الإعداد الإيماني لمعلمي القرآن الكريم هو أسُّ التأهيل، حيث الحاجة إلى أن يتصل معلّم القرآن بالله تعالى بذكره وعبادته اتصالاً دائماً، وأن يستشعر الفضل والأجر وما أعدّه الله له في الآخرة، وحيث الحاجة إلى أن يكون متورعاً عن ما حرم الله، ليصحّ الاقتداء به، ولتثبته على عمله، ولتحفيزه إلى مزيد من الأداء وخدمة كتاب الله.

(١) تفسير ابن سعدي ٤/ ١٧٢٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤٠.

ثانياً: الإعداد المنهجي:

وأعني بالإعداد المنهجي: التربية على ما ينبغي أن يكون عليه معلّم القرآن من فهمٍ راسخٍ لمفاهيم القرآن الكريم وتصوراتهِ وقيّمه، وتمسكٍ بها وثباتٍ عليها. وهو الأمر الذي سينعكس على سلوكه ومواقفه في مختلف مناحي حياته.

وتكمن خطورة هذا الإطار في كون الشخصية الإسلامية للمعلم محلّ اقتداء ونظر من تلاميذه ومجمعه، كما أنّ مواقفه محلّ تقويم وانعكاسات، ولكون المفاهيم والتصورات تعدُّ من أهمّ الأمور التي جاء القرآن بتصحيحها ومعالجتها.

لم يسلم النبي ﷺ من محاولات المساومة على دينه ورسالته من معارضيه، وهي محاولات كثيرة ومتنوعة؛ كان النبي ﷺ يحتاج أثناءها إلى التوجيه الرباني، وكان بحاجة إلى التثبيت حتى لا تنزل به القدم: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِئَفْتَرِيَ عَلَيْكَ غَيْرَهُ، وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَتَّىٰ لَوْ لَأَنَّكَ لَفَدَدْتَ رُكْنًا بَيْنَ يَدَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ وَإِذَا لَأَذْفَنَّاكَ لَاجِبًا ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، قال ابن

جرير: «ولولا أن ثبتناك يا محمد بعصمتنا إياك عما دعاك إليه هؤلاء المشركين من الفتنة ﴿لَقَدْ كَدَّتْ تَرَكَّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ يقول: لقد كدت تميل إليهم وتطمئن شيئاً قليلاً»^(١). من باب أولى.. لا شك أن معلمي الحلقات القرآنية بحاجة إلى تشيب وعصمة تمنعهم من الوقوع في الزلل وحبائل الشبهات.

وفي آيات عديدة ينهى الله تعالى نبيه ﷺ عن طاعة الكافرين والمنافقين، ويحثه على التمسك باتباع الوحي، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب: ١ - ٣].

وفي موضع آخر يحذّر الله تعالى نبيه ﷺ من جهالة العقل والاستجابة لاستفزازاتهم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۝ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] قال البغوي: «لا يحملنك الذين لا يوقنون على الجهل واتباعهم في الغي»^(٢). وقال

(١) تفسير الطبري ١٥/١٣١.

(٢) تفسير البغوي ٣/٥٠٣.

ابن سعدي: «فإنك إن تجعلهم منك على بال، وتحذر منهم، وإلا استخفوك، وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي. والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة»^(١).

وفي موضع آخر يأمر الله نبيه ﷺ بالصبر وينهاه عن استعجال العقوبة عليهم فيقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا
الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] قال البغوي: «ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة، كأنه ضجر بعض الضجر فأحب أن ينزل العذاب بمن أبى منهم، فأمر بالصبر وترك الاستعجال»^(٢).

إن معلم القرآن الكريم إذ يحمل كتاب الله ويعلمه الناشئة ويزكيهم به لهو أشد حاجة إلى هذا الإعداد المنهجي والذي سيكون له الأثر البالغ في سلوكه ومواقفه، ليبلغ هذا القرآن أحسن بلاغ وأوفاه، وكى لا يكون كبلعام بن باعوراء الذي سقط منهجياً: ﴿وَأْتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ

(١) تفسير ابن سعدي ٣/ ١٣٤٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٠.

أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ فَشَّطِهٖ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ لِقِصَصِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦] قال ابن سعدي: «انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإنَّ العلم بذلك يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتابَ الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس»^(١).

أما إذا عدنا لسيرة سعد بن أبي وقاص السابقة فإننا سنلاحظ بوضوح الاطراد والثبات في مناحي حياته المتنوعة.

ثالثاً: الإعداد النفسي والاجتماعي:

وكما أن معلم القرآن بحاجة إلى إعداد إيماني وإعداد منهجي، فهو كذلك بحاجة إلى إعداد يصل به إلى مرحلة جيدة من الاستقرار النفسي والاجتماعي، حيث تؤثر ضغوطات الحياة تأثيراً سلبياً على أدائه التربوي والتعليمي وعلى المؤسسات

(١) تفسير ابن سعدي ٥٩٢/٢.

القرآنية أن تلتفت إلى هذا الجانب، لأن استقرار المعلم نفسياً جزءاً من استقرار العمل التربوي والتعليمي.

ولقد كانت العناية الإلهية بنفس محمد ﷺ وذاته من الوضوح بمكان، ففي سورة الضحى يقول الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١-٣] أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ ربّك ورعاك، بل لم يزل يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة^(١). كانت هذه الآيات تنسكب على فؤاد النبي ﷺ كالماء البارد على العطش، إثر معاناة البلاغ، فمعاناة البلاغ تكدرّ الخاطر وتضيّق الصدر، والله يمتنّ على نبيه ﷺ بتلين قلبه وشرح صدره فيقول: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشّرح: ١-٤].

في أحد اللقاءات مع معلّم القرآن الكريم قام أحد المعلمين، هو أكبرهم سنّاً، لا يرى في وجهه ورأسه شعرة سوداء، وتساءل عن شيء يعمل في صدره، وفي الحقيقة أنه يعمل

(١) تفسير ابن سعدي ٤/١٩٧٦.

في صدور كثير من معلمي القرآن الكريم، فقال: لماذا لا نجد - يقصد معلمي القرآن - تقديرًا لما نقوم به، سواء هنا في بلدكم أو في غيره من البلدان، فإن معلمي القرآن هم أقل الناس شأنًا وذكرًا وقدرًا؟!!

لم أصدَم بهذا التساؤل لأنني أقرؤه كثيرًا في صدور معلمي الحلقات الذين ألتقي بهم، فوافقتهم على توصيفه للواقع، وذكرته بما ذكر الله نبيه ﷺ به حيث قال في سورة الضحى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وذكرته بفضل معلمي القرآن. عمومًا، كان حديثي أشبه ما يكون بحديث العزاء والتسلية. إنه يتساءل بعد عشرات السنين التي قضاها ممسكًا بكتاب الله تعالى معلمًا لأولاد المسلمين، ثم هو لا يجد في الدنيا ما يحفزه لمواصلة مسيرته التعليمية! لم أنس تلك اللحظات: كنت أتحدث عن الفضائل والأجور التي أعدّها الله لمعلمي القرآن وهو يمسح دموعه من عينيه! إنَّ على المؤسسات القرآنية أن تعتنى بهذا التساؤل الخطير، وأن تحيِّب عليه عمليًّا، ولا حرج في ذلك فهو لا ينافي التربية على الإخلاص، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ

في سورة الشرح: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي^(١)، فالله تعالى يبين أنه آتاه شيئاً من ثواب الدنيا، بينما لا يشك أحد في أنه ﷺ أخلص الناس لله.

ولقد هالني، والله، ما علمته من تعاملٍ غير لائق مع أحد المقرئين المشاهير، ممن تستمع له في المديع فيرق قلبك لقراءته، إذ يكلفه إمام المسجد بالاهتمام بدورات المياه المرفقة بالمسجد. وليس بالاهتمام بها ما يعيب المسلم، ولكن أين قدر قارئ القرآن ومعلمه؟ وقد قال ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»^(٢).

لقد اعتنى الله بنبيه ﷺ في شتى مجالات حياته، حتى في دقائق وتفصيل حياته الزوجية! فحين حصل من عائشة وصفيّة رضي الله عنهما ما حصل في قصة التحريم خوفهما الله بقوله: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٣) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا

(١) تفسير ابن سعدي ٤/١٩٧٨.

(٢) أبو داود ٤/٢٦١ ح (٤٨٤٣).

حَيْرًا مِّنْكُمْ مَّسَلَمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَانَنَتِ تَبَيَّنَتِ عَيْدَاتٍ سَيَّحَتِ نَبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾^(١)

[التحريم: ٤-٥] فهو سبحانه في الآيات يخبر أنه سيكون عونًا ونصيرًا للنبيه ﷺ في حال تعاونت زوجته على ما يشق عليه ولم يتوبا، وأنه سبحانه سيعوضه بخيرٍ منهما في حال طلاقهما لو حدث ذلك.

لا شك أنه ينبغي على معلّم القرآن أن يحتسب أجره على الله، وألا ينتظر جزاء تعليمه في الدنيا بالمعونات والإحسان ونحو ذلك.. هذا واجبه، أمّا الواجب على من يشرف عليه، من مؤسسات أو أفراد أن يتقوا الله فيه وأن يكونوا له أعوانًا ونصيرين ومؤازرين. وإذا كان الرسول ﷺ وهو المؤمن الذي بلغ منزلة اليقين بحاجة إلى مؤازرة، فمن باب أولى غيره. أدرك ذلك أبو بكر ﷺ فكان مؤازرًا للنبي ﷺ بهاله وأهله، فأثنى عليه النبي ﷺ وقال: «إِنَّ أُمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ»^(١).

وحين أغرقت معاذ بن جبل ﷺ ديونُه، وهو الذي جمع القرآن الكريم، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن لعلّه يغتني بالمال

(١) البخاري ٣/٧ ح (٣٦٥٤).

هناك، وذلك بعد أن كلّم غرماءه فيه^(١) وأمره أن يعلم الناس هناك القرآن الكريم^(٢).

إنّ معلّمي القرآن الكريم اليوم، في عصر الماديات والمال والأعمال، بحاجة إلى لفتة اجتماعية واعية، تُعفّ نفوسهم عن التطلع إلى مباحج الدنيا من حولهم من أموال ومناصب وأضواء، وتُحوّل دون تسربهم من هذا العمل الجليل الذي يقومون به بحثاً عن لقمة العيش.

وإنّ على المؤسسات القرآنية أن تصنع لمعلميها مناخاً إيمانياً أخوياً يأوي إليه معلّمو القرآن الكريم كلما ضاقت نفوسهم أو كلّت أرواحهم، فهذا أحد أسرار الاستبقاء.

رابعاً: الإعداد المهني:

إعداد معلّمي القرآن الكريم مهنيّاً أمرٌ بالغ الخطورة، حيث ضمانته تحقيق الهدف التربوي والتعليمي. ولقد ظهرت عناية الله تعالى بنبيه ﷺ إعداداً يرتقي بأدائه البلاغي والتعليمي:

(١) انظر حلية الأولياء ١ / ٢٣١.

(٢) مسند الإمام أحمد. الفتح الرباني ٨ / ١٨.

- ففي مسار التواصل امتن الله تعالى على نبيه، فقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي: من الله عليك أن آلت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترفقت بهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك^(١). وهذا يعني أن الله ربى نبيه ﷺ على هذا الخلق العظيم في التواصل، كما عاتبه الله تعالى حين عبس في وجه صاحبه الأعمى فقال سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۙ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ۚ ۝٢ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ ۝٤ أَمَّا مَنْ أَسْتَعْفَى ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي ۚ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْشَى ۝٩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۝١٠﴾ [عبس: ١ - ١٠]، فعلم الله تعالى نبيه ﷺ أن يقبل على من أقبل عليه، وألا يقدم عليه من هو معرض عنه. ولم يخف هذا الاستنباط على ابن سعدي، أعني أنه لم يخف عليه وجوب اتباع النبي ﷺ فيما أدبه الله تعالى به فقال: «أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات: الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين وحسن الخلق والتأليف، امثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله»^(٢).

(١) تفسير ابن سعدي ١/ ٢٥٥.

(٢) تفسير ابن سعدي ١/ ٢٥٥.

- وفي مجال الطرائق التربوية والتعليمية، قال سبحانه: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحَ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] وفيه تعليمٌ من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقي الوحي من الملك، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسر لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه. فالحالة الأولى جمعه في صدره، والثانية تلاوته، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه^(١).

وأياً ما كان، فإن الله تعالى علّم نبيه ﷺ ما يحتاجه ليتعلم القرآن، وهو ذاته ما يحتاجه في تعليم كتاب الله تعالى، وليس المقصود هنا هو جمع هذه التفاصيل، واستقصاء الآيات التي تعلّم النبي ﷺ كيف يحترف التعليم؛ وهي عديدة، وإنما الاستدلال على أهمية الإعداد المهني لمعلم القرآن ليؤدي رسالته على أحسن وجه، كما أعدّ الله نبيه ﷺ فأدى رسالته على أحسن وجه.

(١) تفسير ابن كثير ٢٧٨/٨.

إن التدريب المهاري على فنون إدارة الحلقات والمجموعات، ومهارات التواصل والاجتماع، وطرق التدريس والأداء، منهجٌ قرآني، ولا يزال بعض المعينين بالإشراف على الحلقات القرآنية يرونه ترفاً وموضة! وفي الوقت ذاته لا تزال شريحة من معلمي القرآن الكريم لا يعرفون السنّة العملية في إقراء القرآن وتسميعه.

خامساً: الإعداد القيادي:

مع ما كان عليه النبي ﷺ من مقومات التأثير الشخصية والخلقية إلا أن الله تعالى تعاوده بعنايته ليصل إلى أعلى مقامات التأثير والجازية، فهو سبحانه في موضع يأمره أن يشاور أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، كما يأمره بالتنفيذ حين العزيمة والانتها من الشورى، والعجيب أن هذه الآية نزلت تعقيباً على ما حدث في غزوة أحد، والتي أشار فيها بعض المسلمين خطأً بالخروج إلى المشركين وقتلهم خارج المدينة خلافاً لرأي النبي ﷺ.

وقد أكثر القرآن من ذكر قصص الأنبياء والدعاة والمصلحين من الأمم الماضية لما في قصصهم من عبر ودروس قال الله تعالى

في سورة القصص: ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) وقد كان الدرس القيادي في هذه القصص أحد الدروس البارزة، في قصة موسى وقصة يوسف وغيرهما، وقد حوت أساليب الحوار والخطابة وإيراد الحجج والإقناع والشعور بالثقة وغيرها.

ومرّة بعد مرّة.. لسنا هنا بصدد التفصيل والاستقصاء، وإنما الاستدلال على أهمية الإعداد القيادي لمعلم الحلقة؛ حتى يبلغ رسالته القرآنية على أحسن وجه.

سادسًا: الإعداد العلمي:

من أهمّ ما يؤهّل به معلم القرآن الكريم ليؤدي رسالته القرآنية: تعليمه، وتزويده بالمعارف اللازمة لمادته، والامتدادات المعرفية المتعلقة بها. ولعلّ من نافلة القول أنه ينبغي أن يكون معلّم القرآن الكريم متقنًا مجوّدًا للقراءة، حافظًا لما يُقرئه تلاميذه. وإنّ مما ينبغي أن يتعلمه:

- تفسير الحدّ الأدنى من القرآن الكريم كتفسير سور المفصّل،

وبعض مباحث العقيدة والفقه والحديث.

- مهارات التعلُّم والبحث العلمي والقراءة.

- ما يحتاج إليه من العلوم الاجتماعية والنفسية، حيث الحاجة إليها في تربية الطلاب وإدارة الحلقة.

- ما يحتاجه من فقه الواقع والمعالجات الفكرية للقضايا التي يتناولها المجتمع.

لقد امتن الله على نبيه بتعليمه فقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] قال ابن سعدي: وهذا يشمل جميع ما علَّمه الله تعالى. فإنه ﷺ، كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]. ثم لم يزل يوحى الله تعالى إليه، ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقامًا من العلم، يتعذَّر وصوله على الأولين والآخرين. فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها^(١).

(١) تفسير ابن سعدي ١/ ٣٥٤.

وأول كلمة في أول آية من أول سورة نزل بها جبريل على النبي ﷺ كانت ﴿أَقْرَأُ﴾ [العلق: ١] لترفع من شأن التعلم في مسيرة المبلِّغ عن الله تعالى. وإنَّ على المؤسسات القرآنية الاعتناء بإعداد المعلمين علمياً وأن تجعل منهم أدوات وعي متوهجة متنقلة في المجتمع.

المعلمون الأضياف:

في بعض المؤسسات القرآنية يكثر عدد معلمي القرآن الكريم من غير أهل البلد، ممن فضّلوا العيش في غير بلدانهم، إمَّا بسبب الاضطراب الذي تعيشه أقطارهم، أو المستوى المعيشي المتدني الذي أجأهم إلى ترك أقطارهم بحثًا عن لقمة العيش. وبعضهم أحضر أهله معه، والبعض الآخر لم تسعفه ظروفه المعيشية أن يحضرهم. وأياً ما كان الأمر، فإن عددًا كبيرًا منهم يتشر في أروقة المؤسسات القرآنية ويقوم على تعليم فلذات أكباد المجتمع، ويقوم بالفرض الكفائي بيننا.

ويمكنني التنبيه في مسألة المعلمين الأضياف إلى ثلاث نقاط:

الأولى: ما يتعلّق بواقع هذه الشريحة من معلمي القرآن

الكريم. فهم معلمون غرباء على المجتمع الذي يعلمون فيه، يعيشون آلام الغربة، ويخفون آلام الفقر، غير أنهم يملكون كنزاً عظيماً هو القرآن الذي يحملونه في صدورهم، وبين أيديهم يجلس النشء، وهم متفرغون لتعليمهم؛ هذا من جانب. وفي جانب آخر، هم مجرد موظفين لدى المؤسسة القرآنية يؤدون عملاً تكليفيًا مقابل أجرٍ يتقاضونها نهاية كل شهر، وهم معلمون «أجانب!» ليس لهم ما للمعلمين من أهل البلد من التقدير والاحتراف والاهتمام والرعاية، وحين تريد المؤسسة إنجاز بعض الأعمال المؤقتة، والتي تتطلب جهداً فوق المعتاد؛ فإنها تكلف هؤلاء المعلمين «الأجانب!» فإنهم لا يمكنهم رفض شيء من التكاليفات، كما قد يكلفوا أحياناً ببعض الأعمال التي لا يليق أن يكلف بها حافظ القرآن، فضلاً عن كونه ضيفاً. أما الجانب الأول فهو الواقع الذي ينبغي أن نستحضره، وأما الجانب الآخر فهو الواقع الذي فرضته بعض المؤسسات القرآنية على هؤلاء المعلمين.

الثانية: ما يتعلق بالرؤية الإستراتيجية لمعلمي القرآن الكريم الذين أُلجأتهم ظروف الحياة إلى أن يفدوا إلينا. فهم

الآن في أكناف المؤسسات القرآنية، يعلّمون الناشئة كتاب الله، بل عددهم في الحلقات يفوق عدد معلمي القرآن من أهل البلد في أكثر المؤسسات، وهذا يدفعنا إلى مزيد من الاهتمام والعناية بهم وإعدادهم إعدادًا يؤهلهم لتربية الناشئة في الحلقات، والارتقاء بهم من كونهم ملقنين إلى أن يكونوا مربين؛ وفق برنامج يصمم تصميمًا علميًا تراعى فيه جميع الأطر التي سبق الحديث عنها.

وهم الآن غرباء وافدون، وسيأتي اليوم الذي سيرحلون فيه عن المؤسسة القرآنية ومجتمعها، ويعودون فيه إلى بلدانهم. وهذا يدفعنا إلى العناية بتربيتهم وإعدادهم ليكونوا في بلدانهم دعاة إلى الخير، ناقلين للتجارب الناجحة في الحلقات القرآنية، مقرئين مربين، وبهذه النظرة ثم الإعداد والتأهيل؛ سيتمتد أثر المؤسسات القرآنية المباركة إلى أصقاع الأرض.

الثالثة: ماذا يجب علينا تجاه معلمي القرآن الكريم

الأضياف؟

باختصار شديد: يجب علينا إعدادهم وتأهيلهم وفق الأطر الستة المذكورة سلفًا، والأهمّ من ذلك، لكني أشير إلى أهمية

تقديرهم من جانب، وتربيتهم علمياً ومنهجياً من جانب آخر، واستثمار تفرغهم في تأسيس مشاريع قرآنية قبل أن يتسربوا إلى القطاع الخاص.

هذه بعض الأطر في تأهيل وإعداد معلمي القرآن الكريم مستوحاة من إعداد الله تعالى لنبيه ﷺ ذلك الإعداد العظيم ليقوم بالمهمة التعليمية الكبيرة المنصوص عليها في غير ما آية من القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وإنه لنجاح كبير أن تعتني المؤسسات القرآنية بهذه الأطر فيكون لها فضل ومنة على معلمها وطلابها ومجتمعها بإعداد هذا المعلم على الوجه الأكمل. ولعلّ التكامل في إعداد وتأهيل معلمي الحلقات القرآنية سيكون له التأثير الإيجابي في النواتج التعليمية، كما أنه وبشكل تلقائي سيكون حلاً لمشكلات تربوية وتعليمية لا تزال تلك المؤسسات تعاني منها دهرًا طويلًا. وبالله التوفيق.

أنماط المتعلمين في الحلقات القرآنية

زيد بن ثابت رضي الله عنه الطالب الناجح:

سنستعرض سيرة زيد بن ثابت رضي الله عنه التعليمية والإنتاجية بصفته مخرجًا تعليميًا، لنستضيء من هذه السيرة ما يهمننا في مسألة أنماط المتعلمين، ويجدر التنويه بأن هذه السيرة يمكن أن يُنظر لها من زاويتين: الطلاب الموهوبين، والمخرجات التربوية.

مات ثابت بن الضحاك (والد زيد)، قتيلاً يوم بُعث قبل الهجرة النبوية الكريمة. فعاش زيد بن ثابت يتيماً، حيث كان عمره حين قُتل أبوه ست سنين^(١)، وبدت أمارات النجاة عليه في صغره، حيث تحلى بالقدرة التعليمية الرائعة. ولما بلغ الحادية عشرة من عمره قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان زيد حينها يحفظ بعض سور القرآن، مما لا يتمكن أقرانه من حفظه؛ لسبب أو لآخر، وكان ذلك سبباً في احتفاء الناس به كطفلٍ يحفظ من القرآن. يقول: «أتى بي النبي مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله! هذا غلام

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٣٣.

من بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة. فقرأتُ على رسول الله؛ فأعجبه ذلك، وقال: (يا زيد! تعلم لي كتاب يهود؛ فإني والله ما آمنهم على كتابي). قال: فتعلمته، فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته، وكنت أكتب لرسول الله إذا كتب إليهم»^(١). وقد تعلم زيد السريانية في مدارس اليهود التي تسمى «ماسكة»^(٢).

لقد احتفى النبي ﷺ بهذا الغلام، واستطاع بحاسته التربوية أن يحدد مسار هذه الشخصية وقدراتها وميولها، فأمره أن يتعلم لغة اليهود، فصدقت فراسة النبي ﷺ في زيد؛ فحذقها في نصف شهر فقط؛ وبهذا نستطيع تحديد أي نوع من الذكاءات تميّز به زيد بن ثابت: إنه الذكاء اللفظي.

لم تنته قصة الذكاء اللفظي لدى زيد هنا، فقد كان - كما قال الذهبي - ذكياً ثقفاً^(٣)، أي حاذقاً متقناً لما يتعلمه، فطناً. وهذا يعني أن نوعاً آخر من الذكاءات كان يتحلى به زيد بن

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٢٨.

(٢) الطبقات الكبرى ٥/٣٠٨.

(٣) معرفة القراء الكبار ١/١١٩.

ثابت رضي الله عنه وهو الذكاء المنطقي الرياضي، وكان من نتائج الاهتمام بهذه الشخصية في ذكائها المتنوعة أن برع زيدٌ في ثلاثة أمور: حفظ القرآن وضبطه، وتعلم اللغات، وعلم الفرائض.

استثمر النبي صلى الله عليه وسلم فرصة وقوع عدد من مشركي قريش في الأسر في غزوة بدر، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة^(١)، قال الشعبي: «كان فداء أهل بدر أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين الكتابة، فكان زيد بن ثابت ممن علم»^(٢).

كتب زيد رضي الله عنه الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم وشهد العرصة الأخيرة للقرآن^(٣)، وشارك في الجهاد ابتداءً من غزوة الخندق^(٤) وفاته الجهاد في بدر وأحد لصغر سنه، وكانت مدة بقائه مع النبي صلى الله عليه وسلم منكبًا على التعلم وحفظ القرآن وضبطه والمشاركة مع عموم الصحابة في طاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

(١) مستدرک الحاکم ١٥٢/٢ رقم (٢٦٢١).

(٢) الطبقات الكبرى ٢٢/٢.

(٣) شرح السنة ٤/٥٢٥، والبرهان في علوم القرآن ١/٢٣٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/٤٣٣.

وإذا فصلنا قليلاً في الأمور التي برع فيها زيد بن ثابت رضي الله عنه فإننا سنجد إنجازاً غير عادي، ففي جانب تعلّم اللغات: تعلم زيد لغة اليهود (السرّانية) في مدارسهم في نصف شهر، كما تعلم اللغة الفارسية من رسول كسرى في ثمانية عشر يوماً، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خُدّام رسول الله صلى الله عليه وآله (١). وهنا تتجلى القوة الإبداعية لشخصيته في كيفية تعلمه للغات، واستثماره للفرص المتاحة.

وفي جانب علم الفرائض: فتح الله تعالى على زيد بن ثابت رضي الله عنه في هذا العلم حتى حذقه وأصبح المقدم فيه بين أصحاب النبي بشهادته صلى الله عليه وآله، حيث قال: «وأفرضهم زيد بن ثابت» (٢). وحين أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة إلى الأمصار يعلمون الناس، نهاهم أن يفتوا برأيهم، بينما أبقى زيد بن ثابت رضي الله عنه بالمدينة ليفتي أهلها واستعمله على القضاء وفرض له رزقاً. قال الشعبي: «غلب زيدُ الناس على اثنتين: الفرائض والقرآن». وبلغ من سعة علمه بالفرائض

(١) البداية والنهاية ٨ / ٢٨.

(٢) الترمذي ٥ / ٦٦٥ ح (٣٧٩١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

أنَّ مسروقًا وهو أحد أصحاب ابن مسعود النجباء الخالص عوتب في تركه لقول ابن مسعود في إحدى المسائل الفرضية إلى قول زيد، فقال: «أتيت المدينة، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم»^(١).

وفي جانب حفظ القرآن وضبطه: بلغ الثريا في ذلك، فهو من القلائل الذين أتموا حفظ القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ. وقرأه عليه، واحتفى به النبي ﷺ كحافظٍ للقرآن، ومما يدل على هذا الاحتفاء أنه في غزوة تبوك كانت راية بني مالك بن النجار مع عمارة بن حزم، فأدركه رسول الله ﷺ وأخذها منه، فدفعها إلى زيد بن ثابت. فقال عمارة: يا رسول الله! بلغك عني شيء؟ قال: «لا، ولكن القرآن يقدم. وكان زيد أكثر أخذًا منك للقرآن»^(٢). ومن بلوغه الثريا في جانب حفظ القرآن وضبطه أن قرأ عليه من الصحابة ابنُ عباس، وأبو هريرة رضي الله عنهما، ومن التابعين أبو عبد الرحمن السلمي^(٣). وتصدر للأداء^(٤),

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٣٢-٤٣٧.

(٢) الطبقات الكبرى ٥/ ٣٠٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٧.

(٤) معرفة القراء الكبار ١/ ١١٩.

فعن سليمان بن يسار قال: «ما كان عمر وعثمان يقدّمان على زيدٍ أحدًا في الفرائض والفتوى والقراءة والقضاء»^(١)، واعتمد عليه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كتابة القرآن العظيم في الصحف، وجمعه من أفواه الرجال، ومن الأكتاف والرقاع، وبقيت هذه الصحف عند أبي بكر ثم عمر ثم حفصة بنت عمر رضي الله عنهم إلى أن ندب الخليفة عثمان زيد بن ثابت ونفرًا من قريش إلى كتابة هذا المصحف العثماني الذي لا يوجد في الأرض قرآن سواه^(٢).

إن المواقف التي تصدر من الناس ونوعية الإنتاج الذي يقدمونه في سبيل خدمة دينهم ومجتمعهم تدلُّ على مستوى المخرج التربوي ونوعه.

دعونا نرصد أهم المواقف التي ذكرها أصحاب السير لزيد بن ثابت وأهم الإنتاجات:

- أما في مجال الإنتاج: فهو جامع القرآن في مراحلہ الثلاث: حَفِظْهُ فِي صَدْرِهِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكْتَبَهُ فِي الصَّحْفِ عَلَى

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٣٤.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١.

عهد أبي بكر، وكتبه في مصحف إمام موحد على عهد عثمان بن عفان، وهذه من أعظم الأعمال والمشاريع التي قدمها جيل الصحابة رضي الله عنهم لهذه الأمة. كما كان المصدر في فتيا الفرائض حتى مات رضي الله عنه.

- وأما في مجال المواقف: فله مواقف عظيمة تدل - بلا ريب على التربية الرائعة التي خرَّجته، حيث الاستثمار الأمثل لمُشكَّلات شخصي من هذه المواقف:

« أن فتيل الخلاف بين الصحابة كاد أن يشتعل لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم قام خطباء الأنصار فتكلموا، وقالوا: رجل منا ورجل منكم، فقام زيد بن ثابت، فقال: «إن رسول الله كان من المهاجرين، ونحن أنصاره؛ وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره». فقال أبو بكر رضي الله عنه: جزاكم الله خيرًا يا معشر الأنصار، وثبت قائلكم، لو قلتم غير هذا ما صالحناكم^(١). فهو هنا يحسم المسألة بشكل منطقي عقلي، بلغة فصيحة وبعبارة موجزة.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٤٣٣، وقال الذهبي: هذا إسناد صحيح.

« ولما حُصر عثمان بن عفان رضي الله عنه في داره، أتاه زيد بن ثابت، فدخل عليه الدار، فقال له عثمان: «أنت خارج الدار أنفع لي منك ها هنا؛ فذّب عني». فخرج، فكان يذب الناس، ويقول لهم فيه؛ حتى رجع أناس من الأنصار. وجعل يقول: «يا للأنصار! كونوا أنصار الله مرتين انصروه، والله إن دمه لحرام»^(١). وقدم رضي الله عنه ومعه ثلاثمائة من الأنصار، فدخل على عثمان فقال: «هذه الأنصار بالباب قالوا: جئنا لننصر الله مرتين». فقال عثمان: «أمّا القتال فلا»^(٢).

تلاحظ فيما سبق الاستثمار الموفق لمكونات شخصية زيد بن ثابت رضي الله عنه وتوجيهه في المسارات الملائمة لشخصيته، كما تلاحظ أيضًا الرسوخ المنهجي في مواقفه رضي الله عنه والذي يؤشر إلى عمق العملية التربوية التي تعاطاها في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم. لا شك أن هذا التزاوج بين عناصر الشخصية من جانب، والمنهجية التربوية من جانب آخر سيحدث هذا الأثر الكبير وأكثر.

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٤٣٥.

(٢) الطبقات الكبرى ٥ / ٣١٣.

التنوع سنة كونية وواقع تربوي:

التنوع سنة كونية، أوجده الله تعالى في البشر والحجر والشجر وفي سائر مخلوقاته: ﴿الْمَرْتَرَانُ إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

وكما يقع التنوع في الأشكال، فكذلك يقع في الجوهر؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في الحديث المتقدم ذكره: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أميناً وإن أميناً هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وحين تطالع سير أصحاب رسول الله ﷺ فإنك تجدهم مشارب شتى وشخصيات متنوعة، فلم يكونوا على هيئة واحدة، ولا على اهتمام واحد، ولا على عمل واحد، فكانوا ﷺ

يتنوعون في الأعمال الصالحة التي تقرهم من الله كما يتنوعون في طرق معاشهم. وكان النبي ﷺ يدعم هذا التنوع بتوجيهاته المتنوعة التي غالبًا ما كانت تناسب حال السائل أو المستفيد من هذا التوجيه، فمن توجيهاته ﷺ الجامعة قوله: «اعملوا فكل ميسرٌ لما خلق له»^(١).

كان زيد بن ثابت ﷺ شخصية تنفيذية تميزت بالإنجاز والإتقان فيما يوكل إليها من المهام ذات الشأن العام، لكنه لم يكن من الشخصيات الملهمة أو الإستراتيجية كشخصية أبي بكر الصديق أو شخصية عمر بن الخطاب، لا لقصور فيه، وإنما الشخصيات هكذا: أنماط مختلفة متنوعة لحكم يريد الله تعالى، ومن هذه الحكم: التكامل والشمول اللذان يتوافران مع التنوع. أمّا على الشأن الفردي فقد كان زيد ﷺ ينجز إنجازًا فوق المتوقع من أمثاله وأقرانه.

شخصية زيد بن ثابت ﷺ يمكن تشبيهها بمنجم للذهب والجواهر، لكنك لا تستفيد من هذا الذهب والجواهر إلا إذا أطلقت عليه العمّال المهرة ليخرجوا كنوزه، يتضح ذلك جليًا

(١) مسلم ٤/٢٠٤٠ ح (٢٦٤٧).

من استفادة الخلفاء الراشدين منه واستثمارهم لطاقاته، وكلام أصحاب النبي ﷺ والتابعين عنه يصب في هذا المعنى.

كما يمكن تشبيه شخصية زيد بن ثابت رضي الله عنه بعقارب الساعة في سيرها المنتظم الدقيق والمحكم، والمنطلقة أيضاً إلى الأمام. وهذا النمط من الشخصيات هو القادر على الإنجاز في الأعمال، الخطيرة والكبيرة، لارتباطها بالوقت، والهدف، ومنهجية العمل، لكنه بحاجة ماسة إلى أن يعمل في ظل إدارة شخص آخر، على أن تكون هذه الإدارة تحمل رؤية استراتيجية.

الجدير بالذكر أن الناس ليسوا كلهم على هذه الصفات أو بعضها، لذا حين عزم أبو بكر الصديق رضي الله عنه على جمع المصحف اختار زيداً لهذه المهمة المعقدة، وقال له: «إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي للنبي فتتبع القرآن فاجمه»، لم تكن المهمة سهلة على زيد، يقول: «فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن»^(١)، فزيدٌ يعلم ماذا يعني نقل جبل! إنه يعني نقل صخوره وحجارته، دون إنقاص حجر أو صخرة منها، ووضع كل من

(١) البخاري ٣/٣٣٨ ح (٤٩٨٦).

هذه الصخور والحجارة في مكانها الصحيح الذي كانت عليه ليبدو الجبل المنقول كهيئته قبل أن يُنقل. لقد كانت مهمة جمع القرآن وتبعه أشبه بذلك، ولا يجيد هذا المستوى من الدقة والإنجاز والإتقان والضبط وطول النَّفس أحدٌ كما يجيده زيد بن ثابت رضي الله عنه.

إن لكل شخص مساره الذي هياه الله له، وإنَّ على المربي أن يتعرف هذا المسار ويضع أقدام الطالب عليه، لينطلق في أمان ونجاح.

وقد تطرَّق فقهاء التربية الإسلامية إلى الاهتمام بهذه المسألة؛ أعني تنوع المتعلمين، قال الخطيب البغدادي: «ومن الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام، فإذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبهُاً بغيره لحقه الملل، وأدركه الضجر، ونسي ما حفظ، ولم يتتفع بما سمع»^(١).

(١) الفقيه والمتفقه ٢/ ٢١٥.

وأشاروا إلى أن يتفهم المعلم شخصية الطالب، قال ابن جماعة: «ولا يشير [أي المعلم] على الطالب بتعلم ما لا يتحمله فهمه أو سنه، ولا بكتاب يقصُر ذهنه عن فهمه، فإن استشار الشيخ من لا يعرف حاله في الفهم والحفظ في قراءة فن أو كتاب لم يشر عليه بشيء حتى يجرب ذهنه ويعلم حاله»^(١).

ويحذّر ابن حزم من تعليم العلم لمن لا يصلح له، قال: «نشر العلم عند من ليس من أهله مفسدٌ لهم، كإطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى، أو كتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء»^(٢).

وأياً ما كان الأمر فإن اختلاف أنماط المتعلمين أمر واقع وله حقيقة ملموسة، وإن الحلقة الناجحة هي تلك التي تراعي هذا الاختلاف، وتستطيع أن تجعل منه مدخلاً صالحاً من مدخلات العملية التربوية؛ ذلك أن النفس الإنسانية تتأثر بالدرجة الأولى بعاملين رئيسيين: البيئة والوراثة، وكل شخصية من شخصيات الطلاب هي عبارة عن خلطة معقدة من هذين المكوّنين اللذين

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٤٩.

(٢) الأخلاق والسير ص ٨٨.

هما في كل منهما عبارة عن خلطة بذاتها، لتُخرج لنا في نهاية المطاف شخصية ذات بصمة خاصة تميزها عن غيرها، ولو اشتركت معها شخصيات أخرى في بعض القواسم.

وفي حال تمكنت الحلقة من توجيه الطالب توجيهًا صحيحًا يوائم نمط شخصيته؛ فإن النجاح سيكون حليفًا لهذا العمل التربوي، ودليل هذا النجاح أن تنظر الحلقة إلى عموم طلابها بصفتهم أذكاء.

الذكاء هو القدرة على حلّ مشكلاتٍ، أو إبداع نتائجٍ ذات قيمة، في بيئةٍ ثقافيةٍ أو أكثر، كما يعرفه صاحب نظرية الذكاءات المتعددة هوارد قاردنر^(١)، فهو مفهوم أوسع يشمل العنصر الإنساني إذا أحسنًا توجيهه، وبهذا المفهوم ترتفع نسبة الطلاب الأذكاء في الحلقة الواحدة ارتفاعًا كبيرًا.

قاردنر أيضًا يؤكد على دور المحيط في الإنتاج فيقول: «الابتكار لا ينبغي أن يُنظر إليه على أنه مستقر - أساسًا - في الدماغ أو العقل أو شخصية إنسان بعينه، لكنه ينبغي النظر

(١) أطر العقل ص ٢١.

إليه بوصفه ينبثق من تفاعلات ثلاث عقد: الفرد بهيئة كفاياته وقِيمِهِ، والميدان المتاح للدراسة والتمكّن ضمن ثقافة ما، ثم الأحكام التي يطلقها حقلٌ معترف بتخصّصه وكفايته داخل الثقافة»^(١). قارن هذا بمشروعَي جمع القرآن الكريم اللذين قام بهما زيد بن ثابت في عهد أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، وقبل ذلك قارنه بحفظ زيد بن ثابت للقرآن وتعلمه للغة اليهود وإتقانه لعلم الفرائض على عهد النبي ﷺ.

حين تكون الحلقة بيئة صحية سيكون الطلاب على اختلاف مشاربهم أذكياء؛ هذا ما حدث تمامًا لأصحاب النبي ﷺ بين يديه فقد كانوا أدوات إنتاج وإنجاز، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي. وهذا يتفق تمامًا مع قول النبي ﷺ: «كلُّ ميسر لما خلق له».

إن الحلقات القرآنية اليوم بحاجة إلى أن تنظر بعمق إلى هذه المسألة باعتبارها من المدخلات العميقة للتربية.

(١) أطر العقل ص ٣٢.

ما هو الحفظ المطلوب في الحلقات؟

ليس كل الطلاب قادرين على حفظ القرآن الكريم، فإن الحفظ مترتب على ذكاء واستعداد ومناخ وظروف، ولهذه الأسباب فالذين حفظوا القرآن كله على عهد النبي ﷺ قليلون؛ قال قتادة: «سألت أنس بن مالك ﷺ: من جمع القرآن على عهد النبي؟ قال: أربعة، كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد». وعنه ﷺ قال: «مات النبي ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»^(١).

وقد عدَّ الذهبي في الطبقة الأولى من القراء: الذين عرضوا القرآن على النبي ﷺ سبعة من الصحابة: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وأبو الدرداء، ثم قال: «فهؤلاء هم الذين بلغنا أنهم حفظوا القرآن في زمن النبي ﷺ، وأخذ عنهم من بعدهم عرضاً، وعليهم دارت الأسانيد بالقراءات العشر، وقد جمع القرآن غيرهم من الصحابة كمعاذ، وأبو زيد،

(١) البخاري ٣/٣٤١، ح (٥٠٠٣، ٥٠٠٤).

وسالم مولى أبي حذيفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر، ولكن لم تتصل بنا قراءتهم»^(١).

أيّ ما كان الأمر فإن حفاظ القرآن الكريم من الصحابة قليل، كما أن صحابة أكابر لم يتموا حفظه، قال ابن سيرين: «مات أبو بكر، ولم يختم القرآن»^(٢). ولا يعني ذلك قصوراً في من لم يتم حفظه، فكل الذين أتموا حفظ القرآن في عهد النبي ﷺ لا يبلغون رتبة أبي بكر الصديق في الإيمان والفضل، وهذا تكون مسألة حفظ القرآن كاملاً مسألة تخصصية لها رجاها، ولا يطالب بها الجميع. نعم؛ يطالب الجميع بحفظ شيء من القرآن كالمفصل، أو الزهراوين: البقرة وآل عمران، ونحو ذلك، كما كان مجموع الصحابة على هذا الحال، لكنّ مسألة حفظ القرآن كاملاً لا يستطيعها إلا نخبة من الطلاب.

وعليه، يُقترح أن تتوجه برامج الحفظ وفق هذا المنظور الذي أسلفناه: حدّ أدنى من القرآن يطالب به الجميع، وبرنامج نخبوي لحفظ القرآن كاملاً. عن عبد الله بن عمر بن الخطاب

(١) معرفة القراء الكبار ١/ ١٢٥.

(٢) معرفة القراء الكبار ١/ ١٠٧.

قال: «سألني عمر: كم معك من القرآن؟ قلت: عشر سور، فقال لعبيد الله بن عمر: كم معك من القرآن؟ قال: سورة. قال عبد الله: فلم ينهنا ولم يأمرنا غير أنه قال: وإن كنتم متعلمين منه بشيء فعليكم بهذا المفصل؛ فإنه أحفظ»^(١). وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جمعتُ المحكم في عهد رسول الله. قال سعيد: فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصل»^(٢).

كما يُقترح على الحلقة أن تكشف برامجها المعنية بحفظ القرآن الكريم كاملاً وضبطه للنخبة من الطلاب المهيين لذلك، وفي المقابل تقوم بصناعة البرامج التربوية لأولئك الكثرة من الطلاب الذين لا تساعدهم قدراتهم على الحفظ الكامل للقرآن الكريم وضبطه البرامج التي تنمي مواهبهم وتثقل شخصياتهم وتعنتي بقدراتهم وتجعل منهم أدوات إنجاز وإنتاج كل في مساره الشخصي.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٣٥ رقم (٣٠٠٨٧).

(٢) البخاري ٣/ ٣٤٨ ح (٥٠٣٦).

دور الحلقات القرآنية في توجيه المتعلمين:

يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: ما هي الأدوار التي يمكن للحلقة تقديمها في إطار التوجيه الصحيح لأنماط المتعلمين المتنوعة؟

يمكننا القول إن الحلقة القرآنية بيئة مناسبة للتوجيه الصحيح لأنماط المتعلمين المتنوعة؛ إذا قامت بالأدوار الآتية:

١. الاكتشاف:

أول دور ينبغي على الحلقة القيام به في واجبها التربوي تجاه أنماط المتعلمين المتنوعة هو السعي لرسم صورة نظرية للطالب؛ تتضح فيها معالم شخصيته ومحدداتها وميولها وذكاءاتها، وتسليمه نسخة منها. برغم أنها الخطوة الأولى إلا أنها تمثل حجر الأساس في التربية الرشيدة، إنها إجابة على السؤال الكبير للطالب: من أنا؟ إن الكثيرين لا يعرفون ذاتهم في سن الطلب، ولا يدركون أبعاد نفوسهم ولا محدثاتها، فتجدهم يتخبطون في التيه، وتطوى سنوات عمرهم الذهبية دون تحصيل يُذكر أو إنتاج يستحق الإشادة. قال الماوردي: «وإذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه

الصفة، وكان بقدر استحقاقهم خبراً؛ لم يضع له عناء، ولم يحب على يديه صاحب. وإن لم يتوسمهم، وخفيت عليه أحوالهم، ومبلغ استحقاقهم، كانوا وإياه في عناء مكبد، وتعب غير مُجْدٍ، لأنه لا يعدم أن يكون فيهم ذكي محتاج إلى الزيادة، وبليد يكتفي بالقليل، فيضجر منه الذكي، ويعجز عنه البليد، ومن يردد أصحابه بين عجز وضجر ملؤه وملهم^(١).

٢. حرية التجريب:

طالب الحلقة بحاجة إلى مناخ تربوي محفز وآمن، يستطيع أن يجرب إمكاناته وقدراته دون لوم أو تقييد، بل دون أن يشعر المرابي نفسه بتمردية الطالب وانفلاتية، وعلى المرابي أن يطمئن لهذه الحالة ويحتويها ويشجعها وينميها باعتبارها صحية وليست مرضية؛ فإن الطالب يتوجه تلقائياً وإلى حد كبير مع بوصلته الصحيحة إذا كان اختياره حراً مجرداً من المؤثرات والضغوط. يحكي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قصته مع النبي ﷺ وأبي بكر حين كان يرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط، وفيها أنه

(١) أدب الدنيا والدين ص ٦٦.

قال للنبي ﷺ: علمني من هذا القول. فقال النبي ﷺ: «إنك غلام معلم»، قال: فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد^(١). وقوله ﷺ: «معلم» يعني: ملهم للصواب والخير^(٢).

لا مانع من تجريب الطالب لذاته بعد اكتشافه، على ألا تغفل عين المربي عن ملاحظته، فلعلَّ الله يفتح عليه ما لم يفتح على معلميه، أو يكون على يديه سد ثغرة لم يستطع معلّموه سدها.

قد يخشى المربي من وقوع الطالب في الخطأ. هذا صحيح قد يخطيء، والخطأ يستفاد منه تربويًا في التصحيح والتوجيه، فلا داعي للقلق من الأخطاء ما لم تكن الأخطاء كارثية على البيئة التربوية أو على شخصية الطالب نفسه.

وعلى أية حال، فالحاجة ملحة في هذا الوقت لإعطاء الطلاب حريتهم التجريبية، لتأثير ذلك إيجابيًا في نمو شخصياتهم الإنتاجية والإيجابية.

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ١٣٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٩٢.

٣. التوجيه:

لا يزال بعض المربين يظن أنه في حلقتة لاعب شطرنج، فهو ينقل القطع بيده كيف شاء ووفق ما يمليه عليه تفكيره. وبالأسف! فهو لا يزال يمارس هذا الدور بينما يرى بأمر عينيه تساقط طلابه واحداً تلو الآخر. والحقيقة أن من أدوار المربي المهم التوجيه، والمقصود بالتوجيه هنا أن يحافظ المربي على بوصلة الأهداف بغض النظر عن المسارات، والتوجيه بهذا المعنى يعطي الطالب حرية الحركة، وفي الوقت نفسه يؤمنه من الانحراف، حيث يؤطر المربي هذه المسارات، فإذا ما حاد الطالب عن مجموعها وأصبح خارج مربع الاجتهادات السائغة، فإن دور المعلم التوجيهي الرفيق سيكون له تأثير إيجابي في بناء شخصيته وتنميتها.

٤. الاستثمار:

«تعلم لي كتاب يهود، فإني لا آمنهم على كتابي»: في هذا الأمر المعلن يتجلى استثمار الأنماط الشخصية في أروع صورته، إنه ليس مجرد توجيه نحو المسارات المناسبة، بل هو إفادة المربي من قدرات الطلاب المتنوعة، والتي بإمكان كل واحد منهم أن يقدم لدينه من خلالها.

على الحلقة القرآنية اليوم أن تتجاوز مسألة التوجيه إلى رتبة الاستثمار النافع لقدرات الطلاب واستعداداتهم لخدمة القرآن الكريم وخدمة الشريعة الإسلامية وخدمة المجتمع المسلم، أو على الأقل النفع الذاتي الموجّه، وهذا لا يكون إلا بتوفير مناخ ملائم ومساحة حرّة للتجريب، وتوجيه جيد.

التربية القرآنية في حلقات البنات

منذ أن وطئت فرنسا أرضَ الجزائر وهي تعمل على محاربة الإسلام، لأنه يوحد الجزائريين تحت رايته، ويبعث في نفوسهم التحرر إلا من عبودية الله. ثم هي عبثت في اقتصادهم ومواردهم، وصاغت تعليمهم وفق ما تمليه سياسة المستعمرين، وكادت الجزائر أن تكون قطعة من فرنسا لولا رحمة الله تعالى ثم المقاومة.

الشيخ عبد الحميد بن باديس كان الشخصية الأبرز في تلك المقاومة: المقاومة الإسلامية الناعمة، حيث اتخذ من التربية والتعليم إستراتيجية لإعادة الهوية الإسلامية إلى الجزائر، وقصته مع التربية والتعليم طويلة ومتفرعة، ونظراته في التعليم محلُّ اعتناء واقتداء، يقول رحمه الله عن التعليم الإسلامي للبنات:

«إذا أردنا أن نكون رجالاً فعلينا أن نكون أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية. وإذا تركناهن على ما هنَّ عليه من الجهل بالدين

فمحال أن نرجو منهنَّ أن يكوننَّ لنا عظماء الرجال»^(١). فجعل رحمه الله من الاعتناء بتربية وتعليم البنات أمراً بالغ الخطورة في العمل الإسلامي لتغيير المجتمع، ثم ترجم ذلك عملياً بما لا يسع سرده في هذه السطور؛ حيث فتحت أبواب الدراسة بالمجان للفتيات في قسم خاص في جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقدم الدروس والمحاضرات للنساء، وخاطبهن في المجالات.

هنا يبرز سؤال مهم: هل التعليم الديني للبنات المنظم واجب شرعي؟

لا شك أن التعليم الديني للبنات مسؤولية شرعية واجبة سواء كان ذلك منظمًا أو غير منظم. وهذا أمرٌ بدهي في المجتمع المسلم، أو هكذا ينبغي أن يكون: تطالب النساء به، ويعمل الرجال على إيجاده؛ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهنَّ يوماً لقيهنَّ فيه فوعظهن وأمرهنَّ...»^(٢).

(١) التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس ص ١١٥.

(٢) البخاري ١/٥٣ ح (١٠١).

لم تكتفِ النساء بالتعليم الذي قدّمه النبي ﷺ عامّاً للجنسين، بل طالبنه بتعليم خاصٍ بهنّ، وهذا دليل فضيلةٍ فيهنّ. قال ابن حجر: «وفي الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلّم أمور الدين»^(١).

ومما يستفاد من الحديث أنّ الذكر: تنظيم تعليم الإناث، فيكون لهن وقت مخصوص ومكان مخصوص لا يشاركن فيه الرجال، ولذلك بوّب البخاري: «هل يُجَعَلُ للنساء يومٌ على حِدّةٍ في العلم؟»، بل جعله ابن الملقّن حقّاً على الإمام أن يفعله؛ ونقل ذلك عن عطاء^(٢).

إذن هذا الحديث يشير إلى مفهومين في غاية الأهمية: الأول: حقُّ المرأة في التعليم الديني، والثاني: التنظيم الإداري الصحيح لتعليم المرأة.

وبناء عليه؛ فإنّ العناية بنات المسلمين بتعليمهنّ ما يحتاجه مما يُصلح دينهنّ ودنياهنّ يشير إلى مدى الوعي لدى قيادات

(١) فتح الباري ١/ ٢٣٧.

(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام ٤/ ٢٢٩.

المجتمع والمؤثرين فيه، كما يعني أننا نرقب ميلادَ جيلٍ جديدٍ يحمل مشاعل الهداية ويستضيء بنور القرآن؛ قد تربى في أحضان أمهاتٍ تلقين التربية القرآنية كما ينبغي.

أم الدرداء الصغرى:

هي زوجة الصحابي المقريء أبي الدرداء، هُجِيمَةُ بنت أبي حدرد الأوصائية الحميرية الدمشقية، السيدة العالمة الفقيهة، روت علمًا جمًّا عن زوجها أبي الدرداء، كما روت عن عائشة وأبي هريرة وغيرهم.

عرضت أم الدرداء القرآن على أبي الدرداء وهي صغيرة، واعتنى بها حتى اشتهرت بالعلم والعمل والزهد^(١)، وكانت - وهي صغيرة - تجلس في حلِّق القراءة تتعلَّم القرآن، إلى أن قال لها أبو الدرداء: «الحُتَيِّ بصفوف النساء»^(٢)؛ وهذا يعني وجود حلقة أو أكثر لتعليم البنات كتاب الله، أو أن النساء كنَّ يجلسن صفوفًا خلف صفوف الرجال كما هو الحال في صفوف الصلاة،

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٧.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٨.

كما يعني أنّ الحلقة لم تقتصر على تعليم قراءة القرآن فقط، بل تشمل تعليم أحكام القرآن، مما ساهم في إكساب أم الدرداء الفقه.

ثم تتطور الأمر بها حتى أصبحت مقرئة معلمة، لها حلقتها في مسجد دمشق، قال يحيى الغساني: «كان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إلى أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق»^(١) (لاحظ كلمة كثيراً). وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى القباني عن أبيه عن جده قال: «كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطلّا [نوع من الخمر] بعد العبادة والنسك. فقال: أيّ والله، والدّمأ أيضاً قد شربتها. ثم جاءه غلامٌ كان قد بعثه في حاجة، فقال: ما حبسك لعنك الله؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة لعان...»^(٢).

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٩.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٧٢.

وبعيداً عن ارتياد الخليفة عبد الملك بن مروان لهذه الحلقة وبواعثه، فإن الشاهد من هاتين الروايتين وجود حلقة دائمة لأم الدرداء في المسجد الجامع بدمشق.

معالم التربية القرآنية في حلقات البنات:

التربية القرآنية في الأساس هي تربية موجهة للجنسين، فإن خطاب الشريعة شامل لهما؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، لكنه خصّ النساء ببعض الجوانب، كما خص الرجال ببعضٍ آخر، وهذا مقتضى الحكمة الإلهية، حيث الحاجة إلى التخصيص. وإذا تجنبنا الإغراق في التفاصيل وحاولنا أن نتلمس العناوين العريضة لجوانب التربية القرآنية للنساء فإننا سنتحصل على جوانب متعددة؛ كرّر القرآن الكريم تفاصيلها منوّهاً بأهميتها، هذه الجوانب هي مما ينبغي على الحلقات القرآنية للبنات أن توليه مزيد عناية ببرامج ومقررات تسهم في إنجاح التربية القرآنية للبنات.

١. المفاهيم والتصورات:

إحدى أهم القضايا التي جاء القرآن بمعالجتها: التصورات الخاطئة التي أورتها الجاهلية وأورثها البعد عن دعوات الأنبياء. وتكمن أهمية تصحيح ومعالجة التصورات والمفاهيم في كونها المحرك الأساسي للسلوك، والباعث على اتخاذ المواقف، فقام القرآن الكريم بتأسيس مفاهيم وتصورات وتصحيح الأغلط الحادثة فيها. وعلى سبيل المثال: أحد الأمور التي يشير إليها قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]: الفوارق الطبيعية بين الذكر والأنثى على وجه العموم، كما أن قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] يشير إلى فطرية القوامة وأنها بيد الرجل للمبررات المذكورة في الآية، وهذا يؤكد الفارق المادي بين الجنسين.

إن الضغط الثقافي الملوّث على الفتاة المسلمة اليوم كوّن قناعة تزداد ثبوتاً يوماً بعد يوم بمفهوم المساواة بين الجنسين، وهو مفهوم جاهلي يضاد مفاهيم الإسلام وتصوراتها، وبمرور الوقت وتعاقب الأجيال سيتحوّل إلى بدهية ثقافية تورث الشقاء

للمرأة والمجتمع كله.

كم تحتاج الفتاة التي التحقت بحلقة القرآن الكريم إلى مناقشة، ومعالجة شمولية وموضوعية مُقنعة لمفهوم الفوارق بين الجنسين، وتطبيقات هذا المفهوم في زماننا الذي تتعالى فيه الأصوات منادية بتشغيل المرأة وتفعيلها في خطط التنمية مستندة إلى اتفاقيات دولية ودراسات أجنبية، ومدفوعة من شهوات المتنفذين وصناع القرار بدعوى المساواة بين الجنسين ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وأياً ما كان الأمر، فإن القرآن الكريم عالج العديد من المفاهيم والتصورات، وإنما أردت ضرب المثال على هذا المفهوم الذي ينبغي أن تشمله التربية القرآنية للفتاة المسلمة، وإلا فإن القرآن الكريم عالج العديد من المفاهيم والتصورات التي تحتاجها الفتاة.

٢. تعليم الأحكام الفقهية الخاصة بالنساء:

فقد فصل القرآن الكريم الأحكام الخاصة بالمرأة: كالحيض والنكاح والطلاق والعدّة والرضاع والميراث والسكنى والنفقة.

٣. حقوق المرأة التي فرضها الله:

كانت المرأة في الجاهلية الأولى متاعاً وسلعةً يُحتاج إليها فنزل القرآن بتكريمها حقيقةً لا ادعاءً، حيث وهبها الله حقوقاً يجب أن تؤدى إليها، ولها أن تتصر بالسلطان في إحقاق ما ندد من هذه الحقوق. وعلى سبيل المثال ما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. وحين حققت التربية القرآنية أهدافها ارتفع شأن المرأة، كما حصل واقعاً في صدر الإسلام وكما تحقق واقعاً في كل مجتمع يجعل القرآن الكريم حاكماً على ثقافته ومصدرًا للتربية أبنائه، وأصبحت المرأة ذات رأي وحق لا تُنازع فيهما.

لقد خلد القرآن الكريم صورةً مباينة لما كانت عليه المرأة في الجاهلية من الخسف والهوان: صورة الجدل الذي وقع بين خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [١] الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءِ بِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ

اللَّهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ [المجادلة: ١ - ٢] إنها تطلب حقاً لها وتراجع رسول الله ﷺ في حكمه، فينزل القرآن بتأييدها ومعالجة القضية.

أين هذه الصورة المشرقة مما كانت عليه المرأة في الجاهلية؟
وأين هذه الصورة المشرقة مما عليه المرأة اليوم؟ والذين يتاجرون اليوم بشعار حقوق المرأة كثيرون، فما المانع من قيام المؤسسات القرآنية بالإسهام في إحقاق حقوق المرأة من خلال التربية القرآنية؟

٤. واجبات المرأة الزوجية:

للحياة الزوجية آداب ومسؤوليات وأحكام ومفاهيم يجملها كثير من النساء المسلمات للأسف، بالتزامن مع تأثير الثقافة الزوجية الغربية الوافدة عبر الإعلام المرئي والمقروء، والتي تجعل المرأة شريكاً مساوياً للرجل في الأسرة في كل شيء، خلافاً لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهذا بدوره أدى إلى تخلخل كبير في روح الحياة الزوجية وضعف استقرار كيان الأسرة المسلمة. لقد اعتنى القرآن الكريم عناية بالغة بإنشاء تصوّر راقٍ للحياة الزوجية

يقوم على المودة والرحمة بين الزوجين، ويعتمد على مفاهيم منطقية في الغايات من الزواج، ويرتفع بسلوك الزوجين إلى الأجل في حالات الفراق والطلاق، بما لم تصله الجاهلية القديمة ولا تستطيعه الجاهليات المعاصرة.

من ذلك ما عَقَّبَ الله به آيات الطلاق حيث أوصى كلا الطرفين بالعرفان: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ومنها التذكير بأن المرأة التي لا تُعين زوجها على طاعة الله هي في الحقيقة عدو له: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، ومنها بيان أن النفقة والسكن الواجبين على الزوج إنما يجبان بقدر ما آتاه الله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجُوهِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

ومن العجيب أن القرآن الكريم يجعل للعقيدة ميدانًا لا يُغفل في الحياة الزوجية وتربية الأبناء، بل ويجعل القرآن الكريم الواجبات الشرعية جزءًا من قِوام البيت الأسري: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣) وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى

فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٣-٣٤].

لقد كان القرآن الكريم يربي المسلمات على هذا الأجل في هذا الباب، ويرفع من شأن التبعل الحسن إلى مصاف الفرائض، ولا أقول النوافل، وهذه أم المؤمنین عائشة رضي الله عنها تضرب أروع الأمثلة في ذلك هي وسائر زوجات النبي ﷺ، عن أبي سلمة قال: سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: «كان يكون علي الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان؛ الشغل من رسول الله أو برسول الله»^(١)، قال النووي: «هكذا هو في النسخ (الشغل) بالألف واللام مرفوع، أي: يمنعني الشغل برسول الله ﷺ، وتعني بالشغل بقولها في الحديث الثاني: (فما تقدر على أن تقضيه) أن كل واحدة منهن كانت مهية نفسها لرسول الله ﷺ مترصدة لاستمتاعه في جميع أوقاتها إن أراد ذلك، ولا تدري متى يريد، ولم تستأذنه في الصوم مخافة أن يأذن، وقد يكون له حاجة فيها فتفتوها عليه، وهذا من الأدب... وإنما كانت تصومه في شعبان؛ لأن النبي ﷺ كان يصوم معظم شعبان

(١) البخاري ٤٥/٢ ح (١٩٥٠)، ومسلم ٨٠٣/٢ ح (١١٤٦).

فلا حاجة له فيهن حيثئذ في النهار؛ ولأنه إذا جاء شعبان يضيق قضاء رمضان، فإنه لا يجوز تأخيره عنه»^(١).

أما وقد مات النبي ﷺ ولم يعد ثمَّ ما يشغلها عن التَّشكُّ، والتَّقرب بأنواع النوافل؛ فإنها رضي الله عنها كانت تسرد الصيام سرداً^(٢). إنَّها التَّربية القرآنية التي تنظَّم أنواع العبادات في سلِّم من الأولويات، لا يبغي بعضُها على بعض في تصوُّر المرأة ووجدانها. ليس هذا على مستوى أمهات المؤمنين فحسب، بل هذا يدن النساء اللاتي تربين على مائدة القرآن الكريم، ولعلَّ صورة أخاذاة من حياة أم الدرداء تنبئ عن ما كان منها من عشرة حسنة وحسن عهد بزوجها أبي الدرداء رضي الله عنه، كما تنبئ عن مستوى الوعي لدى هذه المرأة القرآنية الفقيهة بالواجبات الزوجية وفضلها عند الله، فحين حضرت الوفاة أبا الدرداء رضي الله عنه قالت له: إنك خطبتي إلى أبوي في الدنيا فأنكحوك، وأنا أخطبك إلى نفسك في الآخرة. قال: فلا تنكحين بعدي^(٣).

(١) شرح النووي ٧/ ٢٦٤.

(٢) الطبقات الكبرى ٨/ ٧٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٨.

ثمة محاولات لتحسين الحياة الزوجية، غير أنها لم تستطع التخلُّص من تأثير الثقافة الغربية عليها، وحين يكون الحديث عن التربية القرآنية في حلقات تعليم القرآن الكريم فإن مساحة الاعتذار عن هذا القصور تنقلص، وذلك لتوفر المقرر التربوي الصافي، وما علينا سوى إعمال العقل العلمي في الآيات الكريبات في هذا الشأن والتطبيق السلفي لها.

٥. العفاف والاحتشام:

الحديث عن جوانب الاحتشام والحجاب وتدابير العفاف والوقاية من الفاحشة ومعالجة قضاياها في القرآن الكريم كثيرة، وتأخذ صوراً شتى، وبلغ القرآن في تعزيز هذه المفاهيم وغرسها إلى الحد الذي فضَّل فيه الزواج من الكتائية العفيفة على الزواج من مسلمة زانية: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥]، أمَّا سورة النور فهي سورة حافلة بالموضوعات المتعلقة بالعفاف والاحتشام، كما تعرضت سورة القصص بشكل مباشر للتقنيات المثالية لعمل المرأة خارج بيتها، وغير ذلك من السور والآيات التي تشكّل في مجموعها كل

متعلقات هذا العنوان الكبير.

القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى مسألة مهمة في حياة المرأة، وهي الحفاظ على سمعتها من التلوث الأخلاقي، فهو مرّة يحكي قصة امرأة العزيز حين لاك النساء عرضها في مجالسهن، ومرّة أخرى يحكي عن مريم أميتها الحزينة إذ تقول: ﴿يَلَيَّتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] مدركة ما سيكون لهذا القدر المكتوب عليها من فرصة لتشويه سمعتها وهي الصديقة العذراء.

اليوم بالذات تواجه الفتاة المسلمة حرباً شعواء على عفافها واحتشامها، وهذا يفرض على حلقات البنات مسؤولية تربوية تقيهن من الخضوع لنداءات التفسخ، وتعالج قضايا الاحتشام في جوّ تربوي فريد.

٦. الحفاظ على الفطرة وتنميتها:

فطر الله تعالى النساء على صفات؛ علم الله أنه لا تصلح المرأة بدونها، وإنّ أحد معالم التربية القرآنية للمرأة تعزيز هذه الصفات ولفت النظر إلى الحفاظ على ملامحها، لتعلقها بأنوثة

المرأة، وحين تحارب هذه الصفات الفطرية، سواء كانت خَلْقِيَّة أو خُلُقِيَّة، فإن المرأة تنتكس وتسفل وتفقد جوهرها.

فطرة التطلع إلى القوامه عليها مغروسة في المرأة، ولا تستطيع التخلص منها، إلا بالانتكاسة الأخلاقية، وإن اللاتي يدعون إلى المساواة بين الجنسين من كل وجه قد أبعدوا وأغربوا؛ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] ليس هذا على مستوى الزوجية فحسب، بل في كل مناحي الحياة: المرأة بحاجة إلى ظل رجل، تأمل قول بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ألا ترى أنها جعلت إسلامها لله مقترناً بمعية سليمان عليه السلام!

وحين رجع الهدهد من رحلته الاستطلاعية سجّل استغرابه من شيء غير مألوف فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣] وسجّل القرآن اختلاف طريقة تفكيرها عن طريقة تفكير نبي الله سليمان عليه السلام في سورة النمل فهي تريد أن تحتال عليه بهدايا! بينما هو يملك جيشاً جنوده من الجن والإنس والطير!

و حين مرَّ نبي الله موسى عليه السلام على الناس في مدين وجد امرأتين تنتظران الناس حتى يفرغوا من سقي أغنامهم لتقومان بسقي أغنامهما بعدهم، ثم إنَّ إحداهما تكلمت مع موسى عليه السلام، غير أنَّ القرآن أخبرنا أنها كانت تكلمه والحياء مُرخ أستاره عليها: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحَدُهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبَىٰ بِدَعْوِكَ﴾ [القصص: ٢٥] سجَّل القرآن الكريم هذه اللقطات لتعزيز فطرة المرأة المسلمة.

لا شكَّ أن أحد الواجبات على الحلقات القرآنية للبنات أن تعزز فيهن جوانب الفطرة في أخلاقهن ومفاهيمهن، وأن يتعدى ذلك إلى الشكل، كمظهر الحلقة وأدوات التدريس وتقنيات النشاط، بل ويتجاوز ذلك إلى المكاتب الإدارية للمشرفات والعاملات، بحيث يصبغ العمل في حقل النساء بالصبغة الأنثوية، فإن هذا هو الأمر الطبيعي: ﴿أَوْ مَن يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزُّخْرُف: ١٨]. إنَّ الحفاظ على فطرة الفتاة وتنمية أنوئتها يفوقان في الأهمية - لدى المربيات - تعليم بعض أحكام الفروع، كما يفوقان بعض التخصصات الشرعية الفرعية.

٧. حسن التصرف والتعامل مع المواقف المختلفة:

والمقصود بها السلوكيات المتكررة في حياة المرأة اليومية، فإن القرآن الكريم اعتنى بها، والعبرة في ذلك أن تجيد المرأة التعامل مع كافة المواقف والأحداث والأزمات التي تمرُّ بها في حياتها، وتحسن التصرف فيها، فإنَّ ذلك أحد معالم تميُّزها وتفردِها.

فإذا أخطأت المرأة في حقِّ ربهَا أسرعتْ بالتوبة إليه والإنابة إليه والاعتراف بالذنب: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وإذا أخطأت في حق زوجها تابت إلى الله ورعتْ حقه ﴿إِنْ نُوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤].

وستجد في مجموع القصص النسائي في القرآن الكريم دروسًا كثيرة تتعلق بالحياة اليومية للمرأة، وما على المؤسسة القرآنية إلا صياغة المقررات من خلالها.

ما ذكر آنفًا إنما هو قدرٌ زائد عن التربية القرآنية المشتركة بين الجنسين ألفتْ عناية المؤسسات القرآنية إلى العناوين العريضة

لجوانبه وليس تفاصيله، والمأمول من هذه المؤسسات أن تضطلع بواجب التربية القرآنية للبنات، فتسبر التفاصيل وتحيلها إلى واقع تربوي، لتخريج جيل من الفتيات يحفظن كتاب الله تعالى ويعملن به ويدعون إليه.

السمات الرئيسية لحلقات البنات:

لا يمكننا أن نجعل من حلقات البنات القرآنية شيئاً مختلفاً في كل عناصره عن حلقات الذكور! حيث الوجود المشترك لحفظ القرآن الكريم، ولكن في مقابل ذلك فإنَّ حلقات البنات سمات رئيسية تميزها، وهي:

١. المظهر العام لحلقات البنات يصطبغ بالأنوثة:

ذلك أن المظهر العام يعبر عن الهوية والخصائص، كما يحفز للقيام بالأدوار المناسبة على وجه أفضل، ولا يتطلب هذا الأمر تكلفة مالية زائدة، وإنما يتطلب إشراكاً للنساء في تصميم المظهر العام الذي يُبرز هويتهن ويحافظ في الوقت نفسه على قيمهن.

٢. حلقات البنات تراعي الظروف الأسرية المرتبطة بالبالطات والمعلمات:

حركة المرأة في المجتمع المسلم أكثر ثقلاً من حركة الرجل، فإن الرجل إذا خرج من بيته لم يتجاوز التأثير الذي يُحدثه خروجُه شيئاً يُذكر، بينما إذا خرجت المرأة أحدث ذلك تأثيراً على مجريات حياة أولادها ووليها، ولذا فإنَّ على المؤسسة القرآنية أن تراعي هذا الأمر في التخطيط والإجراءات، وعلى سبيل المثال: فإن المرأة حين تذهب إلى حلقة القرآن هي بحاجة إلى من يرعى لها أطفالها الصغار، ولا خيار آخر غير حرمانها من الانضمام إلى الحلقة القرآنية غالباً، فينبغي توفير بيئة مناسبة تذهب إليها المرأة بأطفالها الصغار؛ هذا الأمر قد يتطلب تصميم بيئة جديدة تراعي هذا الجانب. كما أنَّ المرأة مضطرة إلى وسيلة نقل، أو الذهاب مع وليها. كل ذلك بحاجة إلى التفات واهتمام.

وفي المجتمع فتيات ونساء كثيرات يصعب عليهن الخروج من المنزل والذهاب إلى الحلقات، لأسباب مختلفة وظروف غير مواتية، لكنهن راغبات في تعلُّم القرآن الكريم وحفظه؛ هذا يدفع المؤسسة القرآنية أن تفكّر جدِّياً في قلب التفكير، فبدلاً عن

حضورهنَّ المتعدِّر: الذهاب إليهن في بيوتهن، وذلك باستخدام تقنيات التواصل الحديثة مثلاً، أو بأي شكل آخر.

٣. حلقات البنات تراعي الخصائص النفسية والعقلية والجسدية:

مما استفاد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتقدم اختلاف الخطاب التعليمي الموجَّه للإناث عن الخطاب الموجَّه للرجل في بعض الأحيان، وأنَّ للإناث حديثاً خاصاً لا يناسب الرجال لخصوصية كلِّ من الجنسين في بعض الشؤون، وقد أشار ابن الملقن إلى هذا فقال: «فيه العناية بذكر ما تشتد الحاجة إليه من أحوال المخاطبين»^(١).

هذه المستفادات الملخَّصة من الحديث تشير إلى وجود الفوارق في التعليم بين الجنسين، في الخصائص والاحتياجات والمقررات، وإنَّ علينا إدراك هذه الفوارق واستيعابها في منهج التربية والتعليم في حلقات البنات. ولعلَّ أحد أهمِّ الأسباب

(١) انظر الإعلام بفوائد عمدة الأحكام ٤/ ٢٣١.

التي تجعل الفتاة في عزوف مستمر عن هذه الحلقات يكمن هنا! في هذه النقطة: الخصائص والاحتياجات، فإن للإناث خصائص يختلفن بها عن الرجال، سواء في الخطاب والتواصل أو في الأعمال والإجراءات والتكليفات أو في الأوقات المناسبة من عدمها إلخ. كما أنّ الإناث يتفاوتن في الخصائص بينهن باعتبار الأعمار: الطفولة والمراهقة والشباب والنضج.

٤. حلقات البنات ترتقي بمستوى الوعي لديهن بقضاياهن الفكرية:

حيث أصبحت قضية المرأة إحدى بؤر الصراع بين الإسلام والغرب، وليس الأمر هامشيًا، ولا يصحُّ أبدًا أن تتخرج الفتاة بالتربية القرآنية وهي لا تعرف موقعها من هذا الصراع ولا كيف تواجهه، فلم يعد أمرًا سائغًا أن تنأى حلقات البنات عن التثقيف المناسب لهذا العصر المزدهم بوسائل الانفتاح على الأفكار والقيم الدينية والاجتماعية.

٥. حلقات البنات لها رؤية واضحة وتصور واعٍ لما سيؤول إليه العمل التربوي فيها:

هذه الرؤية مبنية على أسس علمية موضوعية، ليست بالضرورة أن تكون معقدة، يشارك في صناعتها خبراء التربية من الجنسين. ولم يعد بعدُ بعض البلدات عن العواصم عذرًا كافيًا في انعدام خبراء التربية والتخطيط، فإن تقنيات التواصل الحديثة قرّبت البعيد، وأصبح بالإمكان الاجتماع مع نخبة من الخبراء من مناطق شتى في وقت واحد!

الضبابية في الأهداف والرؤية قد لا تساعدنا في صياغة المنتج النهائي من العملية التربوية في الحلقات، فيضعف التأثير المرجو في المجتمع.

٦. حلقات البنات توفر النماذج الصالحة للاقتداء:

الفتيات في زماننا هذا بالذات بحاجة ملحة إلى رؤية القدوات في مجتمعاتهن، حيث تضخُّ وسائل الإعلام المتنوعة نماذج غير صالحة للاقتداء، وتجعل منهن رموزًا للبنات، وهذا خطير.

القرآن أرشد المؤمنات في مواطن متعددة إلى نماذج صالحة للاقتداء، وأشار إلى موضع القدوة فيهن، كما جاء في سورة القصص عن امرأتي مدين، وكما جاء في سورة آل عمران عن الصديقة مريم وأمها.

والحديث عن القدوات يختلف عن الحديث عن الرمّزات، فلا أقصد هنا توفير الرمّزات من المسلمات الصادقات، وإنما أقصد من أنعم الله عليها بديانة ووعي واحتشام وسمت مؤثر؛ وإن كانت من سِطة النساء سفعاء الخدين.

ترجم الإمام الذهبي لفاطمة بنت نصر البغدادي، فقال: «أخت صاحب المخزن. امرأة محتشمة زاهدة عابدة كبيرة القدر. شيعها أرباب الدولة لأجل أخيها، وخلق كثير. وقال أخوها: إنها ما خرجت من البيت في عمرها إلا ثلاث مرات، رضي الله عنها»^(١)، فتأمل ترجمتها، فمع كونها أختًا لصاحب وجهة إلا أنها لا تعرف إلا بما تقتدى به، رحمها الله.

(١) تاريخ الإسلام ١٢/٥٧٢.

٧. حلقات البنات تعتنى بأحوال الطالبات الاجتماعية والشخصية:

طالبة فقيرة، وأخرى يتيمة، وثالثة لديها صعوبات تعلم، ورابعة طموحة، وهلمَّ جرّاً، هؤلاء الطالبات أشد حاجة إلى الرعاية والمتابعة وتلمُّس احتياجاتهن، وكذلك الطالبة الطموحة إذا لم تجد ما يشفي طموحها فإنها ستنصرف عن الحلقة.

ويؤمّل من حلقات البنات أن يكون لديها تقنية متفق عليها في متابعة أحوال الطالبة الاجتماعية والأخلاقية في مجتمعها. كما يؤمّل منها أن يكون لديها برامج إرشادية لعلاج الانحرافات الممكن حدوثها هنا أو هناك، وسيكون للمعايشة التربوية بين المعلمة والطالبة تأثير كبير في هذا الأمر.

وفي حقيقة الأمر إنَّ مجتمع حلقات البنات اليوم لم يعد كما هو الحال في السابق في منأى عن التعرُّض - من قريب أو بعيد - للانحرافات السلوكية والأخلاقية، وإنَّ على المربيّات والمرشدات في حلقات البنات أن يطورن مهاراتهن وينمّين معارفهن فيما يتعلق بالمعالجات السلوكية والأخلاقية للبنات؛ انطلاقاً من

منهج أهل السنة والجماعة في تبعض الإيمان وزيادته ونقصه عند المؤمن، فإن الفتاة وإن كانت محبة لكتاب الله مستمسكة بدينها إلا أنها ليست معصومة من الوقوع في بعض الأخطاء الأخلاقية في زمن الانفتاح الهادر.

تحديات:

قد يعترض الحلقة القرآنية للبنات ذات النموذج المذكور أنفًا بعض الأمور التي تبطئ من تقدمها في حال عدم التعامل مع هذه التحديات بشكل جيد، ولربما أوقفت حركتها وجعلتها قالبًا جامدًا؛ وعلى المؤسسات القرآنية أن تتفطن لهذه الأمور وتجهّد في معالجتها، وحين تتعامل المؤسسة القرآنية مع هذه التحديات بذكاء فإنها وبإذن الله ستتحول إلى فرص جيّدة. وأهم هذه التحديات:

▪ اختلاف الأجيال:

والمقصود به الفجوة الزمنية العمرية، كما هو الحال في الفجوة العمرية بين الإدارة التربوية والمستفيدات، وهو تحدّي أزلي طبيعي، يعترض كلّ المؤسسات التربوية والتعليمية، ويمكن

معالجته بأمر وتقنيات متعددة؛ أهمها: إدراك هذا التحدي وأثره وملاحظة هذا الاختلاف واحتمالات الأخطاء الناشئة عنه، ومنها: إشراك بنات المرحلة العمرية المستهدفة في بناء البرامج والنشاطات، لا المقررات. ومنها التحالف مع الكوادر التربوية الخبيرة.

وهناك فجوة عمرية توجد في بعض الأحيان بين الإدارة العليا والإدارة التنفيذية، وتكمن خطورتها في فقدان قنوات الاتصال الجيدة بين الطرفين.

■ الثقافة التربوية السائدة:

في واقع الأمر إنَّ الثقافة التربوية لدى حلقات البنات اليوم في مجملها - وفقاً لمعالم التربية القرآنية - يعترها الكثير من القصور في الإعداد المتكامل والشامل لشخصية الفتاة المسلمة. لا أقول هذا من باب التأنيب.. أبداً؛ فإن الدور الذي قدمته المربيات في حلقات البنات فاقَّ المتوقع منهن، واستطعن بتوفيق من الله تعالى أن يحافظن على الهوية الإسلامية للفتاة في ظل الانفتاح والانفلات، غير أنَّ هؤلاء المربيات لا يزلن مرابطات

في بؤرة التحدي، وإنَّ إحداث التغيير في المنهج التربوي وتقنياته يتطلب تغييرًا إيجابيًا في الثقافة التربوية لدى المربين من خلال التصحيح المستمر للمفاهيم والتصورات الإسلامية والتربوية، ومن خلال التوعية المنظَّمة للواقع الفكري المتعلق بالفتاة، ومن خلال تدريبهن على مختلف المهارات والتقنيات اللازمة. هذا يعني إضافة عبء على المؤسسة القرآنية لتقوم بهذا الدور المحوري وفق رؤية واعية.

▪ تقنية التواصل الاجتماعي:

الإنترنت وتطبيقات تويتر وفيسبوك وأنتستغرام وواتساب وغيرها.. وفَّرت بيئة تفاعلية تثقيفية - بغضَّ النظر عن تقييمها - لدى البنات، فتتواجد شريحة كبيرة من الفتيات في هذه البيئة التفاعلية مما جعل الكثير منهن يعزف عن ارتياد الحلقات القرآنية الجامدة منها.

وهذا يدفع المؤسسة القرآنية إلى اعتماد هذه التطبيقات كجزء من قنوات التواصل بطالبات الحلقات للأغراض التربوية، وتدريبهنَّ على المهارات الإيجابية للتفاعل فيها، وكذلك اعتمادها

للوصول إلى طالبات أخريات يصعب استقطابهن للالتحاق بالحلقة في موعدها الرسمي، وكل ذلك يتم وفق تخطيط تربوي.

ماذا لو اعتمدت حلقة ما تقنية التواصل الاجتماعي بنسبة ٣٠٪ من مناشطها وبرامجها؟ وعلى أي حال وسواء كانت النسبة أقل أو أكثر؛ يفَضَّل أن تكون الرؤية واضحة لدى المؤسسة في هذا الأمر.

ويجدر هنا التنويه بالموقع النسائي العريق على الإنترنت: شبكة صدى الأخوات: (www.sada-as.com/vb/index.php) الذي تشرف عليه د.ريم الباني وفقها الله؛ للاستفادة من الخبرة التراكمية في الوصول إلى الطالبات في بيوتهن وتنفيذ برامج حفظ القرآن الكريم المتنوعة وغيرها، وقد قدّم نجاحًا يذكر ويفتخر به.

والحقيقة أن هناك مناشط تأسست على الإنترنت وفي مواقع التواصل الاجتماعي تخاطب الفتيات في مواقعهن، ونجحت وبرعت واستقطبت المستهدفات.

إنه ميدان جديد يجب خوضه بثقة واقتدار، ولدى المؤسسات القرآنية تاريخ رائع من خوض التجارب واقتحام الميادين المتنوعة يؤهلها بعد توفيق الله لتسنم صدارة التوجيه التربوي في صفوف البنات إذا أرادت ذلك.

الحلقات القرآنية في شهر رمضان

شهر القرآن:

أبرز صفة لشهر رمضان هي نزول القرآن فيه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ [الدخان: ٣]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].
فارتبط القرآن ورمضان في الشريعة ارتباطاً وثيقاً، ظهرت ملامحه في هدي النبي ﷺ وهدى أصحابه والتابعين وأئمة الإسلام وأعلامه، وجاءت تلاوة القرآن في شهر رمضان في العلوم من سلّم الأولويات في عبادات رمضان.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان النبي أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله القرآن»^(١)، قال ابن رجب رحمه الله: «فدلاً على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً؛ فإن الليل تنقطع فيه الشواغل، وتجتمع فيه

(١) البخاري ٣/ ٣٤٠ ح (٤٩٩٧).

الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، وشهر رمضان له خصوصية بالقرآن كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾^(١).

وعلى هذا كان هدي السلف الصالح فكان بعضهم يختم في قيام رمضان كل ثلاث ليال، وبعضهم في كل سبع؛ منهم قتادة. وبعضهم في كل عشر؛ منهم أبو رجاء العطاردي. وكان السلف يتلون القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها؛ كان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان، وكان النخعي يفعل ذلك في العشر الأواخر منه خاصة، وفي بقية الشهر في ثلاث. وكان قتادة يختم في العشر الأواخر في كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وعن أبي حنيفة نحوه. وكان قتادة يدرس القرآن في شهر رمضان، وكان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام. وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان نفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص ٣١٥.

وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على تلاوة القرآن^(١). وخرج علي بن أبي طالب عليه السلام في أول ليلة من رمضان، والقناديل تزهر في المساجد، وكتاب الله يُتلى، فجعل ينادي: نور الله لك يا ابن الخطاب في قبرك كما نُورت مساجد الله بالقرآن^(٢).

سرُّ الاقتران بين القرآن وشهر رمضان:

ما تمَّ سرده باختصار من هدي حيينا عليه السلام والسلف الصالح رحمهم الله فيما يتعلق بزيادة الاهتمام بكتاب الله تعالى قراءة وصلاة ودراسة في ليالي شهر رمضان، ليعث في النفس التأمل والتساؤل: ما سرُّ خصوصية الاهتمام بالقرآن في ليالي شهر رمضان؟ ولماذا عكف الصالحون - وعلى رأسهم سيد الأنبياء وسيد الملائكة - على مدارس كتاب الله وتلاوته في ليالي شهر رمضان؟ بل لماذا وصف القرآن هذا الشهر بأنه شهر القرآن؟

هذه التساؤلات والإجابة عليها مهمة، خاصة إذا التفتنا إلى المؤسسات القرآنية والحلقات القرآنية، لأن ذلك يعتبر «فكرة» وإذا

(١) لطائف المعارف ص ٣١٨.

(٢) مختصر كتاب قيام رمضان ص ٣٧.

توصلنا إلى الفكرة ساعدنا ذلك على بناء أعمالنا وبرامجنا التربوية.

لعلَّ الفكرة تكمن في ثلاثة أمور:

١. أن الصوم في حدِّ ذاته مؤثرٌ تأثيرًا إيجابيًا في تلقي القرآن وتيسير تلاوته وتدبر آياته، وقد نقل أبو الحسن البقاعي رحمه الله عن الحرَّالي - تعليقًا على آيات الصيام - قوله: «أشعرَ أن من أعظم المقاصد بمشروعيته [أي الصيام] تصفية الفكر لأجل فهم القرآن»^(١)، وهذا أمرٌ يكاد يدركه من يتأمله أو يعاينه، فإن الصوم يوهن العنصر المادي في الإنسان ويخفف من ثقله الأرض، ويشدُّ الجانب الروحي فيه، ويقوي في الإنسان قلبه وعقله.

٢. أن شهر رمضان - بنزول القرآن في لياليه - باركه الله وجعله موسم رحمة وبركة وهداية، فأصبح ظرفًا زمنيًّا للبر والتقوى، ولهذا جاء في الحديث: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصدت الشياطين»^(٢)، وبذلك تتهيأ القلوب

(١) نظم الدرر للبقاعي ١/٣٤٣.

(٢) البخاري ٢/٣٠ ح (١٨٩٩)، ومسلم واللفظ له ٢/٧٥٨ ح (١٠٧٩).

للطاعات، ومنها العناية بالقرآن. وكما أن نزول القرآن من السماء إلى الأرض في شهر رمضان كان رحمة للناس، فكذلك نزول القرآن على القلب في هذا الشهر رحمة له وهداية ويسر.

٣. خاصية الليل في تلقي القرآن وعمق تأثيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة، ولهذا قال ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار»^(١). وقال ابن عاشور رحمه الله: «فالمعنى: أن صلاة الليل أعون على تذكر القرآن والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبر. قال ابن عباس: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ أدنى من أن يفقهوا القرآن. وقال قتادة: أحفظ للقراءة»^(٢).

(١) تفسير ابن كثير ٨ / ٢٥٢.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ٢٩ / ٢٦٣.

الفرصة الثمينة للحلقات القرآنية:

تلك ثلاثة أمور، وربما هناك سواها، أعلنت من شأن تلاوة القرآن وحفظه ومراجعته وتدبره في شهر رمضان، حيث اجتمعت فيه، وهذا يعني أن أمام الحلقات القرآنية والمؤسسات القرآنية بوجه عام فرصة موسمية تتكرر كل عام، في التكثيف من البرامج والمشاريع التي تعتنى بكتاب الله حفظًا ومراجعة وتلاوة وتدبرًا وتعليمًا، لكن هذه الفرصة الموسمية إن فاتت دون استثمار فهي فوات لا يُدرك، وخسران لا يُعوّض غيرها. كل شهر رمضان هو فرصة مستقلة لمن استثمارها، أو هو ضياع لا يمكن استدراكه.

إن أمام معلمي الحلقات القرآنية ومسؤولي المؤسسات القرآنية ظرفًا مناسبًا بل مميزًا لكل عمليات تعليم القرآن الكريم، ويا ليت شعري كيف تسهوا بعض تلك المحاضن عن هذه الفرصة العظيمة! فتزهد في تنشيط الحلقات في شهر رمضان، بشبهة التفرغ للعبادة، أو بشبهة العطلة الصيفية أو غيرها من الشبه.

إن شهر رمضان في كل عام هو مشروع تعليم للقرآن

الكريم، لما فيه من الجاهزية العالية للنجاح متى ما أحسن استثماره: المكان والزمان والدافعية، وإن انقضاءه دون إنجاز مشروع قرآني على الصعيد الشخصي أو على مستوى الحلقات والمؤسسات القرآنية يعني أننا أهدرنا جزءاً من الموارد المهمة، وضيعنا فرصة من الفرص العظام، وأخفقنا في إدارة مشاريعنا القرآنية.. إن ذلك يعني غياباً في وعينا التربوي، وضعفاً في علمنا الشرعي، وتدنيّاً في حسّ المسؤولية؛ أربأ برواد الحلقات والمؤسسات القرآنية عن كل ذلك، وإن علينا مراجعة حساباتنا (المؤسسات القرآنية) في استثمار شهر رمضان كما ينبغي وكما يليق به كشهر مبارك اختصه الله بالقرآن.

لقد كان رسول الله ﷺ في شهر رمضان فقط يعرض على جبريل القرآن ويعرضه جبريل عليه، كل عام، فكان شهر رمضان هو زمن لاعتماد آخر ما وصل إليه القرآن قبل أن يكتمل، فتأمل كيف يعلمنا الإسلام أن هذا الشهر هو شهر المشاريع والبرامج القرآنية.

برامج الحلقات القرآنية في رمضان:

أضع بين يديك أيها القارئ الكريم أربع نقاط يتمحور حولها العمل في الحلقات القرآنية في شهر رمضان: الحفظ والمراجعة، والمدارسة والمعارضة، والتلاوة، والتدبير.

* الحفظ والمراجعة:

تجدر الإشارة إلى أن شهر رمضان فرصة لتكثيف المراجعة، ولا يسوغ أن يكون عمل الحلقة في شهر رمضان بالمستوى نفسه من المراجعة في غيره من الشهور، فضلاً عن إغلاق الحلقات القرآنية في هذا الشهر.

* المدارسة والمعارضة:

وهي أن يقرأ أحدهما والآخر يستمع، والعكس، ويصحح كل منهما للآخر، وهي عين ما فعله النبي ﷺ مع جبريل حيث كان يقرأ النبي ﷺ ويستمع إليه جبريل، والعكس. وهذا عين ما تفعله الحلقات القرآنية في بعض مهامها ومنه ما يُعرف بـ«التسميع».

والغرض من مدارس القرآن إتقان المحفوظ وتثبيته وتصحيح أغلاطه. وعليه، أقترح على الحلقات القرآنية أن تعمل برنامجاً أو أكثر لإتقان المحفوظ وأن تبذل في ذلك، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- تقسيم الحلقة الواحدة إلى مجموعات ثنائية، أي كل طالبين في الحلقة يعتبران مجموعة، وتجري بين هذه المجموعات منافسة ما ومسابقة مثيرة.

- تقسيم الحلقة إلى مجموعات بحسب مستويات الطلاب في الحفظ ويجلس المعلم إلى كل مجموعة ويقوم كل طالب بقراءة وجه واحد من المقرر غيباً، ويكمل الطالب الآخر الوجه الثاني، وهكذا الثالث... وإن شاركهم المعلم القراءة فهذا حسن.

- برنامج الإقراء والإجازة للقرآن كاملاً للطلاب الذين ختموا القرآن حفظاً، أو أجزاء منه لشرائح محددة، كإجازة في سورة الفاتحة، أو الإجازة في المفصل من القرآن أو قصار المفصل.

* التلاوة:

هل من المعقول أن تتوقف حلقة تعليم القرآن في شهر رمضان عن الحفظ والمراجعة، وتغيّر عملها ليصبح تلاوة للقرآن؟

نعم، وما المانع من ذلك؟!

إذا رأى معلم الحلقة أن يربي طلابه على تعظيم القرآن في شهر رمضان، فيمكنه أن يقرر على طلابه مهمة تلاوة القرآن الكريم بطرق متنوعة لا تخلو من جاذبية وإثارة، منها على سبيل المثال لا الحصر: مسابقة بين الطلاب على ختم كتاب الله تلاوة، تقسم المسابقة إلى مستويات بحسب مراحلهم الدراسية أو العمرية.

ويكون دور المعلم هنا التحفيز والإثارة والتشجيع والتذكير بفضل قراءة القرآن وما فيها من أجر، والتذكير بأنها من أفضل عبادات شهر رمضان، ويشاركهم التلاوة ويتابعهم.

* التدبُّر:

تفهم معاني القرآن وتوجيهاته إحدى المهام الواجبة على الحلقات القرآنية، وإن شهر رمضان فرصة للوقوف مع آيات

الله فهماً لمرادها واستباطاً لأحكامها، حيث صلاة التراويح وإقبال الناس على القرآن، وكان الفقيه العالم محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله يبدأ درسه في المسجد الحرام عقب صلاة التراويح بالوقوف مع بعض الآيات التي قرأها الإمام في تلك الصلاة، فيجلي معانيها ويستنبط أحكامها وفوائدها، فيا لوقع تلك الوقفات على قلوب الناس وعقولهم.

ورأيت أحد معلمي الحلقات وهو يجلس مع صفوة طلابه عقب صلاة التراويح في المسجد فيتدارسون جزءاً من كتاب الله، ذلك أنه وطلابه استعدوا لهذه الجلسة التدبرية قبل بدئها تحضيراً وقراءة، ثم هم في هذه الجلسة يمسكون مصاحفهم ويجهد كل واحد فيهم - بتوجيه وإشراف من المعلم - باستنباط ما يستطيعونه من الفوائد والأحكام والأسرار، وهو بهذه الطريقة الإبداعية لم يفد طلابه بالأحكام والفوائد فحسب؛ بل درّهم على ملكة التدبر في كتاب الله، ودرّهم أيضاً على مهارات العرض والإلقاء والحديث. وبإمكان أي معلم أن يبدع طريقة يفيد بها طلابه ويحقق بها الخير في هذا الشهر المبارك.

وإذا كنا بحاجة إلى التربية القرآنية؛ فإننا في شهر رمضان أحوج ما نكون إليها.

وسائط مهمة:

ما ذكرته لك - وفقك الله - من النقاط التي يتمحور حولها عمل الحلقات القرآنية في رمضان بحاجة إلى وسائط من خلالها يتم تنفيذ تلك المهام، وإن أكبر وسيط هو قيام الحلقة ذاتها، حيث تتم فيها البرامج والأنشطة، لكنني أشير هنا إلى وسيطين في غاية الخطورة في تأثيرها الإيجابي على أهداف الحلقة القرآنية هما: صلاة التراويح، والاعتكاف.

* صلاة التراويح:

لا أتحدث هنا عن فضلها، إنما أتحدث عن كونها وسيطاً يفيد الحلقة القرآنية، وذلك من خلال أمرين:

الأمر الأول: التربية على المحافظة عليها والخشوع فيها وتدبر آياتها، وما ذكرته في التدبر عن الفقيه العالم ابن عثيمين هو مما يفيد استنساخه في المساجد التي تحتضن الحلقات القرآنية، سواء كان ذلك بشكل عام في المسجد، أو بشكل خاص لطلاب الحلقة؛ بحسب مستواهم.

الأمر الثاني: إمامة التراويح، أعني أن يؤم الطلاب الحافظون لكتاب الله أو أكثر أجزاءه؛ أن يؤموا الناس في المساجد لصلاة التراويح عن ظهر قلب، وذلك يحقق فوائد، من أهمها: تثبيت الحفظ وإتقانه ومراجعة المحفوظ، وكذلك تعويد الطلاب وتدريبهم على الإمامة. قال ابن خزيمة: «استأذنت أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك. فاستظهرت القرآن، فقال لي: امكث حتى تصلي بالخطمة. ففعلت، فلما عيّدنا آذن لي»^(١).

وصلاة التراويح شعيرة عظيمة يجب تعظيمها، ومن تعظيمها الحفظ الجيد للآيات المقرّوة، وأن يؤم الطلاب الناس فيها من حفظهم، ومن تعظيمها: عدم التساهل والتهاون في القراءة من المصحف إلا للحاجة لأن ذلك يعدُّ تضييعاً لفرصة مراجعة الحفظ وتثيته، ومن تعظيمها تدريب الطلاب الذين سيؤمّون الناس على آداب وأحكام صلاة التراويح، وفقهها، وفنون التعامل مع الناس، وأحكام وآداب المسجد، وما إلى ذلك من المسائل التي تهتمُّ إمام الناس في صلاة التراويح.

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٣٧١.

أعتقد أن مشروعًا قصيرًا في تأهيل أئمة المساجد من طلاب الحلقات تقيمه المؤسسة القرآنية سيكون له كبير الأثر على المجتمع وعلى الطلاب أنفسهم، وهذا جزء جوهري من التربية في الحلقات القرآنية.

* الاعتكاف:

لزوم المسجد في العشر الأواخر من شهر رمضان وسيط رائع للتربية القرآنية، حيث التفرغ التام من الشواغل والانقطاع الكامل عن الملهيات وأغلب العلائق والعلاقات، كما يتوفر فيه تهيؤ الجانب الوجداني والروحي لكتاب الله تعالى، ويكون الطالب في الاعتكاف قادرًا على تنظيم وقته وجدولة ساعات الاعتكاف في طاعة الله.

أفضل العبادات في الاعتكاف ما كانت متصلة بالقرآن والدعاء، ومن هنا فإن على المعلم أن يستثمر الاعتكاف في: حفظ أجزاء من القرآن أو مراجعته أو تلاوته أو مدارسته أو تدبره عبر فقرات متنوعة تفيد الطالب ولا تُملِّه.

ولا يصح أن تفرط الحلقات في هذا الوسيط الذي منحنا إياه الله تعالى وبارك فيه، ولو بشكل جزئي، فإنه لا يتكرر، ولا يشبهه برنامج طوال العام في ظرفيته للتربية القرآنية.

يا بُناة الأجيال! يا مشرفي الحلقات القرآنية!

دونكم موسم الأرباح والمغانم، فاغتنموه.. ولا تضيعوه.

حلقاتنا والتربية على تلاوة القرآن الكريم

قال ابن رجب رحمه الله: «من أعظم ما يُتقَرَّب به إلى الله تعالى من النوافل: كثرة تلاوة القرآن، وسماعه بتفكير وتدبُّر وتفهُم»^(١).

ليسوا بالعدد القليل أولئك الذين أتموا حفظ كتاب الله تعالى في الحلقات القرآنية، أو حفظوا جزءًا كبيرًا منه ثم هم لا يواظبون على تلاوته؛ وليس لهم وردٌ يومي من كتاب الله ملتزمين به. وإذا كان هذا حال كثير من حفظة القرآن، فما بالك بغيرهم ممن لم يحفظوا القرآن الكريم!

لماذا يهجر هؤلاء الطيبون الأخيار كتاب الله وهم يجوبونه ويدعون إليه ويدافعون عنه ويتحاكمون إليه؟

لماذا يتحمَّس الشباب الطيب الخيِّر فينطلق في تلاوة كتاب الله تعالى ثم ما يلبث أن يتوقف عن التلاوة في أوائل سورة النساء؟

(١) جامع العلوم والحكم ٢/٣٤٢.

ثم يعيش فترة انقطاع طويلة يملؤها بالندم والتأيب والتحسر ويُشعر نفسه بأنه مشغول عن تلاوة القرآن الكريم؟ ثم هو يمينها بأن يعود إلى التلاوة من جديد؟ لماذا يجد الشاب الطيب الذي أمضى بضع سنوات على الأقل على التحاقه بالحلقات وقد منَّ الله تعالى عليه بالاستقامة صعوبة في إتمام ختمة واحدة للقرآن الكريم في شهر رمضان المبارك؟

تساؤلات عديدة في هذا الإطار يستحي كثير من الشباب الأخيار أن يسألوها أنفسهم أو يسألوها معلمهم! وهذه المقالة تحاول أن تعالج هذه القضية الخطيرة التي أفضت مضاجع هؤلاء الفتية الأخيار، والتي ربما أورثتهم إحباطاً في طريق استقامتهم.

صفة قراءة النبي ﷺ:

لخص ابن القيم صفة قراءته ﷺ فأما عن ورده اليومي وملازمته لتلاوة القرآن الكريم فقال: «كان له ﷺ حزب يقرؤه، ولا يخلُّ به.. وكان يقرأ القرآن قائماً وقاعداً ومضطجعاً، ومتوضئاً ومحدثاً، ولم يكن يمنعه من قراءته إلا الجنابة».

فعن صفة قراءته ﷺ للقرآن الكريم قال: كانت قراءته ترتيلاً: لا هذا ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وكان يقطع قراءته آية آية. وكان يمدُّ عند حروف المدِّ، فيمدُّ «الرحمن» ويمد «الرحيم» وكان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في أول قراءته، فيقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وربما كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»، وكان تعوُّذه قبل القراءة.

وكان ﷺ يتغنى به، ويرجع صوته به أحياناً كما رجع يوم الفتح في قراءته: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] وحكى عبد الله بن مغفل ترجمه: آآ آ ثلاث مرات (١).

وترجيع الصوت: ترديده في الحلق. قال ابن حجر: «قد ثبت الترجيع في غير هذا الموضع، فأخرج الترمذي في الشمائل والنسائي وابن ماجه وابن أبي داود واللفظ له من حديث أم هانئ: (كنت أسمع صوت النبي ﷺ وهو يقرأ وأنا نائمة على فراشي يرجع القرآن). والذي يظهر [والكلام لابن حجر] أن في الترجيع قدرًا زائدًا على الترتيل، فعند ابن أبي داود من طريق أبي (١) انظر زاد المعاد ١/ ٤٨٢.

إسحاق عن علقمة قال: «بُتُّ مع عبدالله بن مسعود في داره، فنام ثم قام، فكان يقرأ قراءة الرجل في مسجد حيه: لا يرفع صوته، ويُسمع من حوله، ويرتّل ولا يرجّع»^(١).

وكان من هديه ﷺ أن يتدبر ما يقرؤه ويتفكر فيه، كما ثبت عن حذيفة رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مرَّ بآية فيها تسيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوذ...»^(٢).

كيف كانت ختمات السلف الصالح؟

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه الماتع «التبيان في آداب حملة القرآن»: «كان السلف رضي الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما يهتمون فيه»^(٣)، ثم فصل رحمه الله تفصيلاً رائعاً، سأخصه في الآتي:

(١) فتح الباري ٨/ ٧٠٩.

(٢) مسلم ١/ ٥٣٦ ح (٧٧٢).

(٣) التبيان ص ٤٦.

- منهم من كان يَحْتَمِه كل شهرين.
- ومنهم من يَحْتَمِه كل شهر.
- ومنهم من كان يَحْتَمِه كل عشر ليال.
- ومنهم من كان يَحْتَمِه كل ثنائي ليال.
- والأكثر من يَحْتَمُونَه كل سبع ليال كعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وعلقمة وإبراهيم النخعي وغيرهم ونُقِل عن عثمان بن عفان.
- ومنهم من كان يَحْتَمِه كل ست ليال، أو خمس، أو أربع.
- وكثيرون يَحْتَمُونَه في ثلاث ليال.
- ومنهم من كان يَحْتَمِه في ليلتين.
- وكثيرون يَحْتَمُونَه كل يوم وليلة منهم عثمان بن عفان وتميم الداري وسعيد بن جبير ومجاهد والشافعي... إلخ^(١).

(١) التبيان ص ٤٧ - ٤٩.

أي الختمات أفضل؟

بعد سرده المختصر لأخبار المواظبين على ختم القرآن الكريم تلاوة، رضي الله عنهم، قال الإمام النووي: «الاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له به كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة؛ فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصده، وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذمة»^(١).

إذن، ليس في المسألة قول واحد بالأفضلية وإنما حال الإنسان وظرفه هما الاعتبار الأقوى بالأفضلية، لاسيما أنه لم يرد نص صريح بذلك، وإنما عمل السلف الصالح رضي الله عنهم بما أذاهم إليه اجتهادهم والذي بنوه على نظرهم لواقعهم الشخصي، فمنهم من يختمه في يوم وليلة، ومنهم من يختمه في شهرين، ومنهم من يختمه فيما بين ذلك.

(١) التبيان ص ٥٠.

وكانوا في رمضان يزيدون من وردهم القرآني، وهذا يدلُّ على أن الحال والظرف محكَّمان في هذه المسألة، ولذلك ذكر الإمام النووي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه ختمه في أسبوع في بعض حاله، وختمه في يوم وليلة في البعض الآخر.

وللحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى قولٌ تجمُلُ إضافته إلى قول الإمام النووي؛ في المفاضلة بين الإسراع في قراءة القرآن والتدبر والترسل، قال رحمه الله:

«التحقيق أن لكلَّ من الإسراع والترتيل جهة أفضل، بشرط أن يكون المسرع لا يخلُّ بشيء من الحروف والحركات والسكون والواجبات. فلا يمتنع أن يُفْضَلَ أحدهما الآخر، وأن يستويا، فإنَّ مَنْ رَتَّلَ وتأمَّلَ كمن تصدَّقَ بجوهرة واحدة مثمَّنة، ومن أسرع كمن تصدَّقَ بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة. وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخرى، وقد يكون بالعكس»^(١).

(١) فتح الباري ٧٠٦/٨.

التربية على التلاوة:

مما عرضت آنفًا أريد أن أنفذ إلى القول بأن تربية الطلاب والناشئة عمومًا على تلاوة القرآن الكريم مسألة ينبغي أن يراعى فيها ما راعاه الإمام المربي النووي رحمه الله.

الإمام النووي راعى أمرين في هذه المسألة: حال الشخص وظرفه (بغض النظر عن دقائق التفاصيل في الحال والظروف)، وقيّد الاستكثار من تلاوة القرآن الكريم بأمرين: الإملال (لأنه سبب للانقطاع) والهدرمة (لأنه لم تعد في التلاوة فائدة).

فهنا أربعة أمور ينبغي على المربي أن يفتن إليها وهو يستهدف تربية الطلاب على تلاوة القرآن الكريم: حال القارئ، والظرف، والملل، والهدرمة. ولا يحسن أن يمضي المربي في حثه على الاستكثار من التلاوة دون النظر إلى هذه الأمور الأربعة.

وهنا يلاحظ على بعض المربين حثهم الطلاب على الاستكثار من تلاوة القرآن مدعّمين ما يدعون إليه بسيرة أولئك الأفاضل الذين كانوا يجتمعون القرآن في يوم وليلة أو في ركعة واحدة أو كل أسبوع، فيندفع المتربي نحو الاقتداء بسيرتهم

العطرة فيجد نفسه قد اصطدم بصخرة عاتية تعيقه عن إتمام المسير، فيؤثر عليه سلبيًا من حيث شعوره بالإخفاق وعدم قدرته على الاقتداء بسير السلف الصالح. ويزداد الأمر إشكالاً حين يكون المرابي ذاته مقصرًا في هذا الجانب، فلا توجد لديه الشحنة الكافية من الإقناع والتأثير على المتربين.

والذي يحسن لفت الانتباه إليه أنه ليس بالضرورة أن يكون أولئك الأفاضل من السلف الصالح قد وصلوا في وقت قصير إلى ما وصلوا إليه من الاستكثار من تلاوة القرآن الكريم إلى درجة الختم في يوم وليلة ونحوه، فإن النفس البشرية لا تقوى على ذلك إلا بالتدرج في الاستكثار، هذا أمر. وأمر آخر: إن الشيء المشترك بين من كان يختم في يوم وليلة وبين من كان يختم في شهرين، وبين من كان يختم في ما بينهما هو الالتزام بالتلاوة وعدم الانقطاع، وهذا الأمر أبلغ بكثير في الأهمية من مدة ختم القرآن تلاوة. ذلك لدلالته على تعظيم قدر القرآن الكريم في النفس وتعظيم الله الذي أنزل القرآن؛ قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله، وما أحب أن يأتي

عليَّ يوم ولا ليلة إلا أنظرُ في كلام الله، [يعني المصحف]»^(١). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أحب أن يحب الله ورسوله فلينظر: فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله»^(٢). كما أن الالتزام بالتلاوة له دلالاته على تجذُّر المراقبة الداخلية في القلب وكذلك المتابعته الذاتية للواجبات اليومية. إن الالتزام مبدأ شرعي حثَّ الإسلام عليه أكثر من حثِّه على حجم العمل؛ فعن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»، قال: وكانت عائشة إذا عملت العمل لزمته^(٣).

أيها أولى: الالتزام بمقدار أم ذات المقدار؟

إذن، الإلتزام بتلاوة مقدار محدد من القرآن يأتي في الدرجة الأولى في التربية على تلاوة القرآن الكريم، ثم يأتي بعده - وهو مهم أيضًا - مقدار ما ينبغي أن يتربى عليه الطلاب في تلاوة القرآن الكريم، ولم يأت نصٌّ صريح في الأمر بتلاوة مقدار محدد إلا ما ورد في إجابة لبعض الصحابة رضي الله عنهم، فعن وهب بن منبه عن عبد الله بن عمرو

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٠٠.

(٢) مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥ وقال: رجاله ثقات.

(٣) مسلم ١/ ٥٤١ ح (٧٨٣).

أنه سأل النبي في كم يقرأ القرآن؟ قال: «في أربعين يومًا» ثم قال: «في شهر» ثم قال: «في عشرين» ثم قال: «في خمس عشرة» ثم قال: «في عشر» ثم قال: «في سبع» لم ينزل عن سبع^(١). ومع كون هذا النص جاء في حالة عينية إلا أنه واضح الدلالة في التيسير على السائل برغم قدرته على ما هو أكثر من ذلك، لذلك تنوعت أحوال السلف في الورد القرآني اليومي.

وهنا يحسن بالمربي أو الداعية - على حد سواء - في خطابه بشأن الحث على تلاوة القرآن أن يراعي من يخاطب، فليس المبتدئ كالراسخ، وليس الصغير كالكبير، وليس المقبل كالنافر المتردد، فلا يصح أن يجعل المربي أو الداعية سير أولئك الأفاذ الذين يختمون القرآن كل ليلة نموذجًا لفتية لم يمض على التحاقهم بالحلقات القرآنية سنة أو ستان، وإنما يتدرج بهم من القليل إلى الكثير، فالعبرة بالتزامهم بتلاوة القرآن الكريم، فإذا وفقهم الله بالتزام التلاوة فسوف يفتح عليهم في قادم الأيام وسيجدون من حلاوة القرآن ولذته ما يجعلهم يستزيدون ويستكثرون حتى يصل بهم الأمر أن يختموه في عشرة أيام أو أقل لكن هذا الأمر يحتاج إلى صبر وتؤدة وتدريب.

(١) سنن أبي داود ٥٦/٢ ح (١٣٩٥).

مقترح في التربية على تلاوة القرآن الكريم:

وإن قُدِّر لي أن أقترح طريقة في تربية الطلاب على تلاوة القرآن الكريم فإني سأقترح «برنامج التربية على التلاوة اليومية» وهي قصيرة جداً: يتلو الطالب كل يوم نصف حزب من القرآن الكريم، أي ما يعادل خمس صفحات وفق طبعة المدينة المنورة، وهذا يعني أنه سيختم القرآن تلاوة في أربعة أشهر، أي أنه سيختم القرآن الكريم ثلاث مرات في العام الواحد، ويستمر على هذه الحال لسنتين فقط، ويكون لهذا البرنامج مستلزماته المعدة له كوقته ووسائل متابعته وحوافزه... إلخ.

ولا تستقل هذا القدر فتراه ضئيلاً أو تظنه تقصيراً في شأن القرآن الكريم، فإنما هو بداية الطريق، وقليل دائم خير من كثير منقطع. ونحن نرى اندفاعاً من الشباب نحو الاستكثار من تلاوة القرآن، فيقرؤون القرآن بشغف وحماس ثم لا يلبثون أن ينقطعوا شهوراً عن تلاوته.

إن هذه الطريقة - أعني تلاوته في أربعة أشهر للطالب المبتدئ - سيستفيد الطالب منها قيمةً تربوية وهي الالتزام، كما سيتهياً بعدها للارتقاء المتدرج فيطلب بنفسه أن يكون ورده

اليومي أكثر من نصف حزب.

ويتم الارتقاء بعد التأكد من نجاح الطالب في الالتزام بورده اليومي - بنسبة معقولة - إلى تلاوة حزب واحد من القرآن الكريم في كل يوم، أي ما يعادل عشر صفحات من القرآن الكريم وفق طبعة المدينة المنورة، وهذا يعني أنه سيختم القرآن كل شهرين، وهذا عين ما كان عليه جماعة من السلف الصالح رضي الله عنهم ورحمهم. ويستمر على هذه الحال لستين آخرين، ما يعني أنه سيختم القرآن في هذه الستين اثنتي عشرة ختمة، وهذا إنجاز كبير في العمل التربوي، حيث سيكون لدينا شريحة من الشباب يعيشون مع القرآن كل يوم بمسؤولية شخصية ورقابة داخلية. فله كم من الأجور العظيمة والحسنات التي ستصب في ميزان هذا المربي، من تلاوات طلابه الدائمة ما بقوا أحياء!

ولا شك أن هذا الهدف التربوي بحاجة إلى تنظيم إداري، لنضمن الحد الأدنى من النجاح، وأياً ما كانت الجدولة الزمانية للورد اليومي فإن المقصود هو التدرج في الاستكثار من التلاوة والالتزام بقدر معين من القرآن يومياً، وجعل ذلك هدفاً تربوياً.

ميزان الحفظ والتلاوة:

العُرف الذي يجري في الحلقات القرآنية أن ورد الطالب اليومي هو المقدار الذي يحفظه كل يوم ويراجعه كأحد الواجبات المقررة عليه في انضمامه للحلقة، وهذا الواجب يستغرق جُلَّ أو كَلَّ وقت الطالب ووقت المعلم، وهو أيضًا يحوز على نصيب الأسد من الأهداف التربوية والتعليمية للحلقة. أمَّا إذا اقتنعنا بأهمية تغيير خريطة الأهداف التربوية والتعليمية للحلقات القرآنية وفقًا لما كان عليه صحابة نبينا ﷺ وسلفنا الصالح ﷺ فإنه يتحتم القول بأن التربية على تلاوة القرآن الكريم أحد أهم معالم التربية القرآنية في الحلقات، وأن المنهج الذي لا يعتمد التربية على تلاوة القرآن الكريم ضعيف المخرجات.

من جانب آخر؛ فإنَّ هذه المفردة - أعني التربية على تلاوة القرآن الكريم - من شأنها أن تزاخم المفردة الأخرى: حفظ القرآن الكريم، وعليه فإن على الحلقة القرآنية أن تعيد الموازنة بين الأهداف التربوية، وتقرر نصيب كل من حفظ القرآن الكريم وتلاوته الجديدين بالقدر الذي يضمن سلامة الهدف.

ولا شك أن ذلك يؤدي إلى نقصٍ في مقرر الحفظ لصالح مقرر التلاوة. أرجو ألا تنزعج المؤسسة القرآنية من هذا الأمر؛ فإن المهمة المنوطة بها أعمق من تخريج نسخٍ جديدة من المصاحف المتحركة، إن المهمة الأعظم الملقاة على هذه المؤسسات تكمن في التربية القرآنية وتخريج جيل ملازم للقرآن الكريم حفظًا وتلاوة وعملاً.

وحين نقارن بين شاب أعانه الله تعالى على حفظ كتابه، فخته غيبًا، ثم هو لا يلتزم بتلاوته في حياته اليومية، وبين شاب لم يوفق لحفظ القرآن الكريم، ربما لقصورٍ في قدراته، لكنه ملتزم بتلاوته طوال حياته.. فإن الآخر الملتزم بتلاوته هو من يحوز على درجات التفضيل في معاييرنا التربوية.

من هنا نبدأ!

أفضّل أن تبدأ الحلقات في العمل على تحقيق هذا الهدف التربوي الكبير في شهر شوال أي بعد شهر رمضان المبارك؛ فأبرز معلم لهذا الشهر أنه شهر القرآن الكريم:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ

أَهْدَى وَأَلْفُرْقَانَ ﴿البقرة: ١٨٥﴾، وقد احتدم السباق فيه من شباب الإسلام: يختمون القرآن الكريم تلاوةً مرةً أو أكثر، ويقومون به في إمامتهم بالناس لصلاة التراويح، كما قامت سوق الحلقات القرآنية المكثفة. لا شك أن هذا المناخ الممتلئ بالرحمة والسكينة المجلل بالخشوع والدموع أوجد في نفوس الشباب لذة لقراءة القرآن الكريم وختمه، وأوجد حبًا ملازمته، لاسيما في العشر الأواخر من رمضان. هذه المعاني القلبية التي أورثها القرآن في نفوس الشباب ينبغي ألا تضيع هدرًا في شهر شوال: حيث الاحتفالات والضحك الهائل من المناسبات الاجتماعية والترفيهية والانقطاع عن المحاضن التربوية؛ فإن ذلك سيؤدي إلى ذبول تلك المعاني القلبية التي أورثها القرآن الكريم في قلوب قارئيه في شهر رمضان، فيضيع المقصود منه، ويتراجع المستوى الإيماني.

ماذا لو اعتبر المربون شهرَ رمضان فترة إحماءٍ وتدريبٍ على تلاوة القرآن الكريم، واعتبروا شهر شوال نقطة الانطلاقة في التربية على تلاوة القرآن الكريم، والتزام ختمه وفق المقترح الأنف الذكر فرسموا الخطط لهذا المشروع العظيم واستثمروا

الوهج القرآني في قلوب الشباب، وجعلوا من التربية على تلاوة القرآن الكريم جزءاً من المنهج التربوي ومفردة رئيسية فيه؛ فإن الفرصة سانحة ولا تزال السوق قائمة ولما تنقُص لذة القرآن من القلوب بعد رمضان.

اللهم ارزقنا تلاوة كتابك آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

- جمع القرآن في خلافة أبي بكر الصديق.
- المدارس القرآنية في خلافة عمر بن الخطاب.
- جمع المصحف في خلافة عثمان بن عفان.
- ملحوظات عامة على المشاريع الراشدة.
- المشاريع القرآنية التي نريد.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

كان النبي ﷺ مهتماً بمسألة حفظ القرآن الكريم، مما أثر على سلوكه التعليمي، فكان من شدة حرصه على حفظ القرآن إذا جاءه جبريل بالوحي يردّد معه الآيات، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي: أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده^(١).

كما حرص الصحابة ﷺ على حفظ القرآن أو ما تيسر منه، وتسبق إلى ذلك جمٌّ غفير منهم، وقد قُتل ممن حرصوا على حفظه في بئر معونة سبعون رجلاً، أما في معركة اليمامة وحدها فقد قُتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة العريقين ثلاثمائة وستون شهيداً^(٢)، كلهم ممن يحفظ القرآن أو أجزاء منه.

وبرز من هذا الجم الغفير سبعة ذكرهم البخاري في صحيحه، وهم: عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو زيد بن السكن وأبو الدرداء ﷺ حيث جمعوا القرآن كله في صدورهم

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ٢٢٣.

وعرضوه على النبي ﷺ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب». وعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك ؓ: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: «أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»، وعن أنس بن مالك ؓ قال: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد».

إلى جانب العناية بحفظ كتاب الله في الصدور، اتجهت عناية النبي ﷺ بكتابته فاتخذ كُتَّابًا للقرآن من أجلاء الصحابة ؓ كعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وأبي بن كعب وزيد بن ثابت؛ تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها ويرشدهم إلى موضعها من سورتها. وكان القرآن يكتب في العُسب والرخاف والكرانيف والرقاع والأقتاب وقطع الأديم والأكتاف، وتحمل الصحابة في ذلك مشقة عظيمة.

أَمَّا الْعُسْب فَهِيَ جَمْعُ عَسِيبٍ، وَهُوَ جَرِيدُ النَّخْلِ، كَانُوا يَكْشِطُونَ الْخُوصَ^(١)، وَيَكْتَبُونَ فِي الطَّرْفِ الْعَرِيضِ، وَقِيلَ: الْعَسِيبُ طَرَفُ الْجَرِيدَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي لَمْ يَنْبِتْ عَلَيْهِ الْخُوصُ. وَأَمَّا اللَّيْخَافُ جَمْعُ لَيْخَفَةٍ، فَهِيَ صَفَائِحُ الْحِجَارَةِ الرَّقَاقِ. وَأَمَّا الرَّقَّاعُ فَهِيَ جَمْعُ رُقْعَةٍ، وَهِيَ جِلْدٌ أَوْ وَرَقٌ أَوْ كَاغِدٌ. وَأَمَّا الْأَقْتَابُ، فَهِيَ جَمْعُ قَتَبٍ، وَهُوَ الْخَشَبُ الَّذِي يُوضَعُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ لِيُرْكَبَ عَلَيْهِ^(٢). وَأَمَّا الْكِرَانِيفُ فَهِيَ جَمْعُ كِرْنِافَةٍ وَهِيَ أَصْلُ السَّعْفَةِ الْغَلِيظَةِ^(٣). وَأَمَّا الْأَكْتِافُ، فَهِيَ جَمْعُ كَتِّفٍ، وَهُوَ عَظْمٌ عَرِيضٌ يَكُونُ فِي أَصْلِ كَتْفِ الْحَيَوَانِ^(٤). وَأَمَّا قَطْعُ الْأَدِيمِ، فَالْأَدِيمُ هُوَ الْجِلْدُ، وَقِيلَ: هُوَ الْجِلْدُ الْمَدْبُوعُ^(٥).

وإتماماً للعناية بالقرآن الكريم، فقد كان جبريل عليه السلام يعارض النبي ﷺ بالقرآن مرة في رمضان من كل سنة، وعارضه مرتين في السنة الأخيرة من حياته ﷺ، حيث كانت العرصة

(١) الخُوصُ، بالضم: ورق النخل. انظر القاموس المحيط ص ٧٩٨.

(٢) انظر فتح الباري ٦٢٩/٨ وما بعده.

(٣) النهاية في غريب الحديث ١٦٨/٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث ١٥٠/٤.

(٥) لسان العرب ٩/١٢.

الأخيرة هي الصورة النهائية للقرآن في حياة النبي ﷺ. وهي المثبتة في المصحف الذي بين أيدينا اليوم، عن أبي هريرة ؓ قال: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض»^(١).

وثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن النبي ﷺ، وإنما ترك جمعه في مصحف واحد فحسب، لأن النسخ كان يرد على بعض الآيات، فلو جمعه في مصحف واحد ثم رفعت تلاوة بعض الآيات لأدى إلى الاختلاف واختلاط الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ ثم وفق الله تعالى لجمعه الخلفاء الراشدين^(٢).

لقد سبق سلفنا الصالح في تنفيذ المشاريع القرآنية سبقاً عظيماً تحمده الأمة إلى اليوم، فهذا الصديق أبو بكر ؓ ينفذ مشروعاً في جمع القرآن الكريم مكتوباً، بعد أن كان مشوراً في صدور الرجال، وهذا الفاروق عمر ؓ يقيم المدارس القرآنية العظيمة في الأمصار، وهذا عثمان بن عفان ؓ يجمع الناس على

(١) البخاري ٣/٣٤١ ح (٤٩٩٧، ٤٩٩٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/٢٥٣.

— الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

مصحف واحد بين دفتين، هو هذا الذي بين يديك؛ فأعظم بها من مشاريع لا تزال الأمة تنفياً ظلها وترتوي من معينها.

ستعرض في الورقات القادمة بإذن الله هذه المنجزات العظيمة، بشيء من التفصيل والتحليل، ونعيش أجواءها التربوية والإدارية نستلهم منها الدروس والعبر. والله الموفق.

جمع القرآن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

جرى قدر الله تعالى بوفاة نبيه ﷺ في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وتعاقب البلاء على أمة الإسلام، حيث ارتدَّت قبائل من العرب فناجزهم المسلمون، وخرج في اليمامة مسيلمة الكذاب يدَّعي النبوة وتبعه كثيرون، فقاتله المسلمون في موقعة عظيمة شديدة، استحرَّ فيها القتل بالناس، ونصر الله عباده الموحدين، وقُتل مسيلمة الكذاب، وقُتل معه جمعٌ كبير من أتباعه، ولم يسلم المسلمون من مقتلة عظيمة طالتهم، وكان للقراء من الصحابة كتيبة مستقلة، تميزت بالبسالة والشجاعة، قُتل منها عددٌ كبير؛ مما حفَّز التفكير الإستراتيجي عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فشعر بخطرٍ كبير على مستقبل الأمة الإسلامية إثر فقد القراء المتتابع في ساحات الجهاد، وخشيَ ضياع القرآن، لاسيما بعد مقتل أحد الذين أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم؛ وهو سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما في اليمامة^(١).

(١) فتح الباري ٦٢٧/٨.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يولي أمر التعليم عنايته، تدلُّ على ذلك أمورٌ منها مشورته لأبي بكر رضي الله عنه أن يُبقي معاذ بن جبل رضي الله عنه في المدينة، ولذلك قال عنه حين خرج إلى الشام: «لقد أحلَّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه، وفيما كان يفتيهم به، ولقد كنتُ كلمتُ أبا بكر أن يجسه لحاجة الناس إليه، فأبى عليّ، وقال: رجلٌ أراد وجهًا، يعني الشهادة، فلا أحبسه»^(١).

ومما أشار به عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أبي بكر رضي الله عنه أن يجمع القرآن المكتوب في أدوات متفرقة ومتنوعة؛ ليكون في صُحفٍ مجموعة في مكان واحد عند الخليفة. كان ذلك في السنة الثانية عشرة من الهجرة.

لم يكن أبو بكر ولا عمر ولا زيد رضي الله عنهم حين جمع القرآن بحاجة إلى ذلك في زمنهم، فقد كان القرآن محفوظًا في الصدور ومكتوبًا في الألواح، لكن التفكير الإستراتيجي والنظرة بعيدة المدى تجعل أمثال هؤلاء الأفذاذ يستشرفون مستقبل أمتهم ويتوقعون تحدياته وفرصه، ويضعون حلولًا لمشكلاته.

(١) سير أعلام النبلاء ١/٤٥٢.

التفكير الإستراتيجي والنظرة الاستشرافية التي لا تقصر البصر على إنجازات اليوم ونجاحاته، وإنما ترمي ببصرها إلى المستقبل البعيد وتحدياته ومستجداته هي من أقوى عوامل نجاح المشاريع واستمرار الإنتاج وديمومة الأثر، ولا أدلّ على ذلك من استفادة الأمة عبر القرون وإلى اليوم من مشروع جمع القرآن.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله فتبّع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فتبعت القرآن، أجمعه من العُصب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها^(١).

هذا أثرٌ عظيم، يبيِّن فيه زيد بن ثابت رضي الله عنه كيف بدأت فكرة جمع المصحف في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. حيث كانت المبادرة الذاتية البناء من عمر رضي الله عنه حين قدّم تصوّرًا عن مشروع جمع القرآن إلى أبي بكر رضي الله عنه، وذلك بعد أن تبين له وجه المصلحة فيها، حيث كانت معركة اليمامة، فخشي عمر رضي الله عنه أن يضيع القرآن، ما جعله يستشعر المسؤولية ويقدم هذه الفكرة ويحث عليها: «إنَّ القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن». قال ابن هبيرة:

(١) البخاري ٣/٣٣٧ رقم (٤٩٨٦).

«في هذا الحديث من الفقه اعتمادُ المصلحة، وأن لا يجبن المؤمن عنها؛ وإن لم يكن وردَ فيها نص»^(١).

هذه الفكرة جديدة لم يُسبق إليها، والناس حديثو عهدٍ بنبوءة، كارهون للابتداع، خائفون من تنكب هدي النبي ﷺ، وهو ﷺ لم يأمر في يوم من الأيام بجمع القرآن؛ فكيف ينشرح صدر عمر ﷺ لاقتراحِ محدث؟

في واقع الأمر إن عدم أمر النبي ﷺ بجمع القرآن المكتوب له ما يبرره، قال الخطابي وغيره: «يحتمل أن يكون ﷺ إنما لم يجمع القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً»^(٢). لكنَّ أبا بكر ﷺ أثر الاتِّباع ونفر من الابتداع، فقال لعمر: «كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟». إنها حساسية المنهج، وأصالته: لبُّ الاتِّباع، وهو المرتكز

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح ١ / ٨١.

(٢) فتح الباري ٨ / ٦٢٨، وانظر كلام الزركشي في البرهان الذي أوردته قبل صفحات.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

الثاني لصحة الأعمال وقبولها بعد الإخلاص، وهو ذاته الأمر الذي استراب منه زيد بن ثابت رضي الله عنه، وراجع فيه أبا بكر رضي الله عنه مع علمهما بما يترتب عليه من مصلحة حفظ الشريعة وهي مصلحة عظمت لا يقوم بها إلا حراس الشريعة وحماة الكتاب، فتورعا لأنهما لم يجدا لهذه المصلحة أصلاً في سنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى استطاع عمر - وهو الملهم المحدث - أن يحلّ العضلة ويقنعهما بما رآه. قال ابن هبيرة: «وفيه من الفقه أيضاً أن المؤمن قد يتخوف من الإقدام على الأمر حتى يتيقن جوازه»^(١)، وهذه إشارة مهمة في التأصيل الشرعي للأعمال والمشروعات.

لا مجال لرفض الأفكار الجديدة في ساعة طرحها:

نعم.. ثمة مساحة للحوار البناء حول شرعية هذه الأفكار وجدواها وأبعادها، حواراً بين مبدع هذه الفكرة وبين من يهيمه الأمر من القيادات، ليصلا إلى كلمة سواء، أو يقنع أحدهما الآخر. هنا استطاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد المناقشات العلمية الهادئة أن يقنع أبا بكر الصديق رضي الله عنه بمشروعية هذه الفكرة، هذا الحوار ليس شأنًا طارئاً، بل هو الأصل في إدارتهم للأعمال،

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح ٨٣ / ١.

ففي مسألة قتال مانعي الزكاة حدث حوار شبيه بهذا أقنع فيه الخليفة أبو بكر رضي الله عنه عمر بن الخطاب وسائر الصحابة معه بمشروعية هذا النوع من القتال.

قال عمر: «هذا والله خير» مبيّناً أن هذه المسألة من قبيل المصالح المرسلّة حيث لم ينه رضي الله عنه عن جمع القرآن مكتوباً ولم يأمر به لعدم وجود المقتضي لذلك وهو الخوف من ضياعه، بينما في خلافة أبي بكر وحين أهدف القراء نحورهم للعدو دفاعاً عن بيضة الإسلام فإن المقتضي حينها قائم، كما كان حضور النسخ مانعاً لجمعه مكتوباً، قال الشاطبي: «وحاصل الأمر أن جمع المصحف كان مسكوتاً عنه في زمانه رضي الله عنه»^(١)، وقال ابن الباقلائي: وقد فهم عمر أن ترك النبي رضي الله عنه جمعه لا دلالة فيه على المنع، ورجع أبو بكر لما رأى وجه الإصابة في ذلك، وأنه ليس في المنقول ولا في المعقول ما ينافيه، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه، ثم تابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك^(٢).

(١) الموافقات ٣/ ٤١.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

تدرّج الخليفة أبو بكر رضي الله عنه في العرض على زيد، فلم يأمره من أول الأمر، وهو ولي الأمر، وإنما عرض عليه الفكرة من أساسها، حتى إذا انشرح لها صدر زيد بن ثابت؛ عرض عليه أن يقوم بهذه المهمة الكبيرة، «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه».

هذا المشروع الجديد والذي يتطلب عملاً دؤوباً احترامياً، بحاجة إلى معايير تتوافر فيمن يقوم به، وحين أمر أبو بكر زيداً بجمع القرآن ابتداءً بذكر هذه المعايير المتوافرة فيه، وهي أربعة معايير:

١. أن يكون شاباً: لما في الشباب من النشاط والقدرة البدنية التي لا تتوافر في كبار السن، ومشروع جمع القرآن في عهد أبي بكر بحاجة إلى «تتبع»، والتتبع يلزم فيه أمران: النشاط المستمر، والحذق، وقد كان زيد بن ثابت يبلغ من العمر ثلاثاً وعشرين حين جمع القرآن في خلافة أبي بكر، فهو لا يزال في أول شبابه ونشاطه وهمتته، بينما تجاوز عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الأربعين من عمره آنذاك، وهو أعلم الصحابة بكتاب الله، فكان هذا المعيار أحد

الأسباب في اختيار زيد بن ثابت دون ابن مسعود رضي الله عنهما.

٢. أن يكون عاقلاً: ومن معاني العقل العلم بصفات الأشياء، من حسنها وقبحها، وكما لها ونقصاتها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين^(١)، ومن معانيه: التثبت في الأمور، والرجل العاقل هو الجامع لأمره ورأيه^(٢).

ولقد بلغ العقل يزيد بن ثابت رضي الله عنه أن يكون أحد الأذكياء الموهوبين، فهو شيخ الفرضيين ومفتي المدينة زمن الخلفاء.

٣. أن يكون ثقة: فهو ثقة في الرواية والنقل، وهذه ترقية من أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو الذي إليه منتهى التحري في القول والقبول^(٣). هذا وقد كان كان زيد شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل، وهي التي بين فيها ما نسخ وما بقي، قال أبو عبد الرحمن السلمي: «قرأ زيد بن ثابت على رسول

(١) القاموس المحيط ص ١٣٣٦.

(٢) لسان العرب ٤٥٨/١١.

(٣) تذكرة الحفاظ ٥/١.

الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سُميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقَرَأُ الناس بها حتى مات»^(١).

٤. أن يكون كتب الوحي للنبي ﷺ: يقول زيد: «كنت جاره [أي: رسول الله ﷺ] فكان إذا نزل الوحي أرسل إليّ، فكتبت الوحي»^(٢).

هذه المعايير الأربعة مجتمعة جعلت أبا بكر ﷺ يختار زيد بن ثابت ﷺ لمهمة جمع القرآن، حيث تجلّت هذه الحادثة عن قدرة قيادية لدى أبي بكر ﷺ، وهي القدرة على معرفة مواهب الأفراد وقدراتهم، فالقائد يستطيع تحليل شخصيات أتباعه وفهمها، من خلال سبرهم ومعايشتهم وتكليفهم بالمهام، ومن خلال الاستشارة أيضًا.

كما أن القائد له قدرة على اختيار الشخص المناسب، للعمل المناسب، في المرحلة المناسبة، وهذه من أخص خصائص

(١) شرح السنة ٤/٥٢٦.

(٢) مجمع الزوائد ٩/١٧ وقال: إسناده حسن.

القيادة الجيدة، فهي تجمع بين أمرين، أولهما: فهم طبيعة العمل ووضوح الأهداف، وثانيهما: اختيار الصالح لها.

وكذلك فإنَّ القائد الجيد هو الذي يحاور الأفراد ويناقشهم ويسعى لإقناعهم، مادام في الأمر فسحة، وهو في الوقت ذاته يستطيع أن يؤثر عليهم ويقنعهم بفكرته، بل يصل بهم إلى أن يتبنوا أفكاره ويكونوا جنودًا مخلصين لها، قال زيد: «كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما».

القائد الجيد لا يقوم بإصدار الأوامر من أبعاده العاجية، ولا يستسيغ أن ينفذ الأتباع أمره دون اقتناع منهم، لما في ذلك من ضعف أخلاقيات القيادة الفاعلة، وأيضًا لما في ذلك من أثر على المهمات والأعمال؛ فتفشل أو تضعف. إن القيادة كما تعني القدرة على التخطيط والتوجيه فهي أيضًا تعني القدرة على التحفيز والتأثير في الأتباع للقيام بالمهام والأعمال.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

بدأ زيد بن ثابت تنفيذ المهمة، يقول رضي الله عنه: «لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن». لقد كانت مهمة شاقة، بحاجة إلى جدية في العمل، ونشاط في البدن، كما كانت بحاجة إلى العقل العلمي الرزين، والقدرة اللغوية، لكنَّ الله يسَّرَ لزيد هذا العمل.

بدأ زيد بن ثابت رضي الله عنه في مهمته الشاقة، معتمداً على المحفوظ في صدور القراء والمكتوب لدى الكتاب في الرقاع والعصب واللخاف وغيرها من أدوات الكتابة البسيطة آنذاك، وقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به»، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان، وهذا يدلُّ على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد أن يجده مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً؛ مع كون زيد كان يحفظه، وكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط، وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتُب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ^(١).

(١) انظر فتح الباري ٨/ ٦٣٠.

وفرغ زيد بن ثابت رضي الله عنه من كتابة القرآن في مصحف واحد؛ هو عبارة عن صحف مجموعة، وامتاز هذا الإنجاز والإنتاج بما يلي:

١. أن العمل على جمع القرآن راعى أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.

٢. اقتصر في هذا المصحف على ما لم تُنسخ تلاوته.

٣. أجمع الصحابة عليه وارتضوه.

٤. كان شاملاً للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن تيسيراً على الأمة^(١).

وكان هذا المصحف يعتبر المرجع الرئيسي للعرضة الأخيرة من كتاب الله تعالى، مع وجود ما بقي من المصاحف المكتوبة المفرقة والموجودة عند الصحابة رضي الله عنهم.

وبقي هذا المصحف محفوظاً عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفاه الله، ثم بقي عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته حتى توفاه الله،

(١) مناهل العرفان ١/٢٥٣، بتصرف.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

ثم بقي عند حفصة رضي الله عنها حتى طلبه عثمان بن عفان ﷺ للجمع الثاني.

وفي بقاءه عند حفصة رضي الله عنها درس، وهو أنه لا يمكن أن يكون الناس كلهم زيد بن ثابت ﷺ في قدراته وعلمه، فالناس قدرات متفاوتة: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وإن كان الرسل عليهم الصلاة والسلام قد فاضل المولى سبحانه بينهم؛ فسائر الناس من باب أولى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. والقائد الجيد ينظر إلى الجميع بعين العدل ويمجدهم؛ كل بحسب طاقته وما يناسبه، وتأمل دور أم المؤمنين حفصة بنت عمر في جمع القرآن فهو دور محدود، لكنه مهم، ومع ذلك لا يستطيعه كل أحد.

المدارس القرآنية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحديث عن جهود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تعليم القرآن الكريم حديث متشعب وطويل، ويملك على الفخر والاعتزاز. لقد كان هذا العملاق يجهد ليله ونهاره لتثبيت دعائم الدين وتأسيس حضارة المسلمين، وكان ينظر إلى الجانب التعليمي والتربوي بالحجم نفسه الذي كان ينظر فيه إلى الجانب الجهادي والعسكري والفتوحي، ولربما أكبر، وكان هو بذاته لا ينفك عن تعلّم القرآن الكريم، قال ابنه عبد الله: «تعلّم عمر البقرة في اثنتي عشرة سنة، فلمّا تعلّمها نحرَ جزوراً»^(١). وكان له حلقة يتدارس فيها القرآن وتفسيره مع ابن عباس وابن زيد وغيرهما^(٢). وفي الجانب الآخر كان رضي الله عنه يصبُّ اهتمامه على تعليم الناس كتاب الله، ولذلك رتب لثلاثة معلمين بالمدينة - كانوا يعلمون الصبيان - رزقاً شهرياً، كل واحد منهم خمسة عشر درهماً^(٣).

(١) تاريخ الإسلام ٢/١٤٦.

(٢) تفسير الطبري ٢/٣١٩.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٤/٣٤٦ رقم (٢٠٨٢٨).

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

وحين وجّه الجيوش إلى الأمصار لم يغفل جانب التربية والتعليم، فكانت إحدى مهام الإمارة لمن تولى المصر بعد فتحه بالجهاد تعليم الناس، فأرسل إلى البصرة أبا موسى الأشعري رضي الله عنه فلما ذهب إليهم قام في الناس خطيباً فقال: إن أمير المؤمنين بعثني إليكم أعلمكم كتاب ربكم عز وجل وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وأنظف لكم طرقكم^(١). وبعث الإمام الكبير عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى الكوفة، وبعث إليهم كتاباً فيه: «إني قد بعثت إليكم عماراً أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد، من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقعدوا بهما، قد آثرتكم بعبد الله على نفسي»، وفي رواية: «يا أهل الكوفة! أتم رأس العرب وجمجمتها، وسهمي الذي أرمي به إن أتاني شيء من هاهنا وهاهنا؛ قد بعثت إليكم بعبد الله، وخرت لكم، وآثرتكم به على نفسي»^(٢).

قال الخطيب البغدادي: «بعثه إلى أهل الكوفة ليقرئهم القرآن ويعلمهم الشرائع والأحكام، فبث عبد الله فيهم علماً كثيراً،

(١) حلية الأولياء ١/٢٥٧.

(٢) الطبقات الكبرى ٨/١٣٠-١٣١.

وفقه منهم جمًّا غفيرًا»^(١).

وكتب يزيد بن أبي سفيان والي الشام إلى عمر: إن أهل الشام قد كثروا، وملؤوا المدائن واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم، فأعني برجالٍ يُعلِّمُونهم. فدعا عمر الخمسة: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء وأبي بن كعب وأبا أيوب الأنصاري، فقال: «إن إخوانكم قد استعانوني من يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني يرحمكم الله بثلاثة منكم إن أحببتهم، وإن انتدب ثلاثة منكم فليخرجوا»، فقالوا: ما كنا لنستهم؛ هذا شيخ كبير - لأبي أيوب - وأما هذا فسقيم - لأبي - فخرج معاذ وعبادة وأبو الدرداء. فقال عمر: «ابدؤوا بحمص، فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقن، فإذا رأيتم ذلك، فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتهم منهم، فليقيم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين». قال: فقدموا حمص فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس أقام بها عبادة بن الصامت، وخرج أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين فمات في طاعون عمواس، ثم صار عبادة بعد إلى

(١) تاريخ دار السلام ١/ ٤٨٢.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

فلسطين، وبها مات، ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات^(١).

وهذا يعني أن أمراء الأمصار كانوا على إدراك تام من سياسة عمر بن الخطاب التعليمية مما كان يؤكد عليهم، قال رضي الله عنه في إحدى خطبه: «اللهم إني أشهدك على أمراء الأمصار، فإني بعثتهم يعلمون الناس دينهم وسنة نبيهم»^(٢). كما أبقى رضي الله عنه عددًا من أئمة القرآن والتفسير في المدينة النبوية، كعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فما لبثت تلك الأمصار والديار عامرة بالقراء والعلماء، بفضل الله تعالى ثم بفضل الاهتمام العمري بتعليم القرآن الكريم، ناهيك عن عواصم الإسلام كمكة والمدينة.

وتخرّج هذه المدارس أئمة التابعين رحمهم الله كعطاء ومكحول والأسود وعبد الله بن عامر وسعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير وابن أبي ليلى وإبراهيم النخعي، وسائر الثلة التي انتفعت بها أمة الإسلام إلى هذا الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٤٤.

(٢) عصر الخلافة الراشدة ص ٢٧٢.

وسنستعرض بإذن الله في هذه الورقات نموذجين تعليميين أو مدرستين قرآنتين: مدرسة ابن مسعود بالكوفة ومدرسة أبي الدرداء بدمشق، لنطلّ على معالم التعليم القرآني في ظل إدارتهما رضي الله عنهما، ونقتبس من نور هديهما، فهما من أجل علماء الصحابة وهما ممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ.

مدرسة الإمام الرباني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

بمسجد الكوفة :

بعد التكليف العُمري انطلق عبد الله بن مسعود مع أخيه عمار بن ياسر رضي الله عنهما إلى الكوفة لأداء المهمة، وابتنى دارًا إلى جانب المسجد^(١).

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ممن يتحرى في الأداء ويشدّد في الرواية ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ.^(٢)، يقول الذهبي عنه: «كان معدودًا في أذكياء العالم»^(٣)، وأورد عن حذيفة رضي الله عنه قوله عنه: «إنَّ أشبه الناس هديًا ودلاً وقضاءً وخطبة برسول الله صلى الله عليه وسلم من حين يخرج إلى بيته إلى أن يرجع لعبد الله بن مسعود»^(٤). ويقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن نفسه: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب

(١) الطبقات الكبرى ٨/ ١٣٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٠.

الله تبلغه الإبل لركبت إليه»^(١).

وتراوحت إقامة المعلم الرباني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة ما بين السنة السابعة عشرة تقريبًا إلى السنة الثانية والثلاثين تقريبًا من الهجرة، زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، أي أنه مكث في الكوفة قرابة الخمس عشرة سنة، وتخرج على يديه وبين ناظره جيل من أغزر الناس علمًا بكتاب الله العزيز وفهمًا لمعانيه وأحكامه، وأجودهم أداء له، حيث كان هو في الأساس إمامًا في أداء القرآن الكريم وفهم معانيه وأحكامه، قال أبو مسعود رضي الله عنه: «لا والله، لا أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أحدًا أعلم بكتاب الله من هذا القائم»^(٢).

لقد قام بجهد جبار وتاريخي في تحريج القراء والعلماء، أقرأهم القرآن وعلمهم أحكامه، ورباهم على أتباعه. أشار قيس بن مروان إلى مثابرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تعليم الناس القرآن الكريم، حيث أتى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة، وتركت بها رجلاً

(١) البخاري ٣/٣٤١ ح (٥٠٠٢).

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٤٩٠.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

يملي المصاحف عن ظهر قلب. فغضب عمر، وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرجل، فقال: ومن هو؟ ويحك! فقال: ابن مسعود. فما زال يطفئ غضبه ويتسرى عنه حتى عاد إلى حاله، ثم قال: «ويحك! والله ما أعلم بقي من الناس أحدٌ هو أحقُّ بذلك منه»^(١).

كان تلاميذ مدرسة المعلم القدوة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يتأثرون به ويقتدون به، في سمته وتعليمه، فهذا زيد بن وهب يقول: «رأيت بعيني عبد الله أثرين أسودين من البكاء»^(٢). وكان علقمة بن قيس يُشَبَّه بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(٣)، بل قال ابن مسعود عنه: «ما أقرأ شيئاً وما أعلم شيئاً إلا وعلقمة يقرؤه ويعلمه»^(٤).

كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يعلم تلاميذه أحكام الآيات وأدائها ويربهم عليها وفق طريقة متدرجة، لا عجلة فيها ولا

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨٥.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٤٨.

إسراع، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي وهو ممن عرض القرآن على ابن مسعود رضي الله عنه: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به. وسيرت بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم»^(١).

معنى إضافي تفيده هاتان الروايتان في إقراء القرآن وتعليمه، وهو تعليم التلاميذ أحكام الآيات وأدائها والتربية عليها بتدرج بحيث لا ينتقل إلى غيرها من الآيات إلا بعد أن يرى منهم التأثير والاستيعاب والتطبيق.

لقد كان تعليم القرآن يقتضي فهم المراد من آياته، ومن خلال ذلك نقل التلاميذ كثيرًا من مرويات التفسير، عن مسروق بن الأجدع قال: «جاء رجل إلى عبد الله فقال: إني تركت في المسجد رجلًا يفسر القرآن برأيه، يقول في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠] إلى آخرها: يعشاهم يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام! قال: فقال عبد الله: «من علم علمًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٩، ٢٧٠.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

أعلم. فإن من فقه الرجل أن يقول ما لا يعلم: الله أعلم. إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحطٌ، وجهدوا حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فينظر ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ فأتى رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله! استسق الله لمضر، فإنهم قد هلكوا، قال: فدعاهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ ﴿١٢﴾﴾ فلما أصابهم المرة الثانية عادوا، فنزلت: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ يوم بدر»^(١).

كما حفظ تلاميذ عبد الله بن مسعود ﷺ الكثير من وصاياه وتوجيهاته التربوية، منها: «إن هذا القرآن مآدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء»، ومنها: «إنما هذه القلوب أوعية؛ فأشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره، وكان يخوفهم من الذنوب ويبين خطرهما على الحفظ، يقول: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلمه للخطيئة يعملها»^(٢). إلى غير ذلك من الكلمات

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر ٢١٧/٥ رقم (٣٦١٣).

(٢) حلية الأولياء ١/١٣٠-١٣١.

النافعة والتوجيهات التربوية التي يتربى عليها شباب الأمة منذ ذلك الوقت، جيلاً بعد جيل، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا بها.

وحين عزم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الرجوع إلى المدينة النبوية زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه جمع تلامذته، فقال: «والله إني لأرجو أن يكون قد أصبح اليوم منكم من أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين من الدين والفقهِ والعلم بالقرآن. إن هذا القرآن نزل على حروف، والله إن كان الرجلان ليختصمان أشدَّ ما اختصما في شيء قط، فإذا قال القارئ: هذا أقرأني، قال: أحسنت، وإذا قال الآخر، قال: كلا كما محسن، فأقرأنا: إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، واعتبروا ذلك بقول أحدكم لصاحبه: كذب وفجر، ويقول له إذا صدَّقه: صدقت وبررت. إن هذا القرآن لا يختلف، يُسْتَشَنُّ ولا يَنْفَعُ لكثرة الردِّ، فمن قرأه على حرف فلا يدعه رغبةً عنه، ومن قرأه على شيء من تلك الحروف التي علَّم رسول الله فلا يدعه رغبةً عنه، فإنه من يجحد بأية منه يجحد به كلِّه، فإنما هو كقول أحدكم لصاحبه: اعجل، وحيِّ هلا، والله لو أعلم رجلاً أعلم بما أنزل الله على محمد منِّي لطلبتَه، حتى أزدادَ علمَه إلى علمي. إنه سيكون قومٌ

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

يُميتون الصلاة، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم تطوعًا. وإن رسول الله كان يعارض بالقرآن في كل رمضان، وإني عرّضتُ في العام الذي قُبِض فيه مرتين، فأنبأني أني محسن، وقد قرأتُ من في رسول الله ﷺ سبعين سورة»^(١) ثم رحل إلى المدينة النبوية.

وبقي مسجد الكوفة عامرًا بالقرءاء والحفظة وطلبة العلم، لهم دويٌّ بالقرآن، ذات مرة سمع الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بهذا المسجد ضجة شديدة، فقال: «ما هؤلاء؟» قالوا: قوم يقرءون القرآن أو يتعلمون القرآن، فقال: «أما إنهم كانوا أحبَّ الناس إلى رسول الله»^(٢). وقد خلّف عبد الله بن مسعود ﷺ تركة عظيمة من أوعية العلم وحملة القرآن، أفادت منهم الأمة الإسلامية في كل الأمصار وعبر الأزمان، يأتي في مقدمتهم العشرات من الرجال الثقات، قال إبراهيم التيمي: «كان فينا ستون شيخًا من أصحاب عبد الله»^(٣)، وعلى رأسهم ستة هم أبرز التلاميذ وأنجب الحفاظ يسرد أسماءهم إبراهيم حين قال: «كان أصحاب

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر ٥ / ٣٢٤ رقم (٣٨٤٥).

(٢) مجمع الزوائد ٧ / ١٦٢.

(٣) الطبقات الكبرى ٦ / ١٠.

عبد الله الذين يُقرءون القرآن ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس»^(١).

قراءة تربوية وإدارية في مدرسة عبد الله بن

مسعود ﷺ القرآنية:

أولاً: التدرج في التربية والتعليم:

قال علقمة بن قيس: «قرأت القرآن في ستين»^(٢)، وهو أكبر تلاميذ ابن مسعود ﷺ قدرًا وفهمًا وعلماً، وهذا يعني أن ابن مسعود ﷺ أخذ بالمنهج النبوي في تعليم القرآن (كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى...) الأمر الذي ورثه التلاميذ في تعليمهم لطلابهم، كما كان المقرئ أبو عبد الرحمن السلمي يفعل، حيث كان يعلم الطلاب خمس آيات خمس آيات، ولم يكن تحديد عدد الآيات مقصداً، بل الفكرة الكامنة في تحديد الآيات هي التدرج في حفظ القرآن والتربية على معانيه وأحكامه وآدابه. لقد كانت

(١) سير أعلام النبلاء ٥٧/٤.

(٢) معرفة القراء الكبار ١/٤٥.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

تلك الأجيال على قدرٍ عالٍ من قوة الذاكرة وسرعة الحفظ، إلا أنَّ المنهجية المتبعة هي التدرج في الحفظ بغرض التحقق من انعكاس تأثيره على سلوك الحافظ وسمته.

وكذلك كان التوجيه والإرشاد والموعظة، عن عبد الله بن مرداس قال: «كان عبد الله يخطبنا كل خمسٍ على رجلية، فنشتهي أن يزيد»^(١)، يجبون أن يستمعوا إلى المزيد من حديثه الشيق، الحديث الذي يرفرف بأرواحهم نحو الآخرة، لكنه لا يستعجل الغرس لأنَّ ذلك مضرٌّ بالمتربي.

ثانياً: التلازم بين حفظ القرآن والتربية على أحكامه وآدابه:

يقول أبو عبد الرحمن السلمي: «كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به»، هكذا كان هدي النبي ﷺ في تعليمه القرآن لأصحابه، وهكذا كان أصحابه في تعليمهم القرآن لطلابهم: تعليم القرآن حفظاً وتجويداً وأداءً وأحكاماً وآداباً، ولم يكونوا بحال من الأحوال يستسيغون أن يحفظ المرء كتاب الله ثم هو

(١) سير أعلام النبلاء ١/٤٧٢.

لا يعقل معانيه، أو لا يتأدب بآدابه، أو لا يعمل بأحكامه، لذلك أخبر عن قومٍ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم، إخبارًا على سبيل الإنكار؛ أن يحفظ المرء القرآن حفظًا مجودًا لكن القرآن لا يصل إلى قلبه وعقله ووجدانه.

إذن، لم يكن الحفظ المجرد طريقة متبعة عند ابن مسعود رضي الله عنه، بل كان يقرنه ببيان معاني القرآن وأحكامه وآدابه.

قال مسروق: «كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفسرها عامة النهار»^(١)، إذن التعليق على الآيات وشرحها والتربية عليها، وبيان مراد الله منها كل ذلك من مهام معلّم القرآن، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه مع كونه مشددًا في الأداء متحرّيًا في الضبط فهو أيضًا لا يُغفل جانب المعاني والأحكام، قال الأسود: «لقد رأيت عبد الله يعلم علقمة التشهد كما يعلمه السورة من القرآن»^(٢).

وكان رضي الله عنه يبين الأخطاء حال وجود فهم خاطئ، يحدثنا

(١) تفسير الطبري ١/٣٦.

(٢) الطبقات الكبرى ٨/٢٠٩.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

عمرو بن شرحبيل: «أن ابن مسعود رضي الله عنه قال له: يا أبا ميسرة! ما تقول في الخنس الجوار الكنس؟ قال: قلت: لا أعلمها إلا بقر الوحش. قال ابن مسعود: وأنا لا أعلم فيها إلا ما قلت»^(١).
وكما في رواية مسروق السابقة حول الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا يدل على وجود منهجية لتفسير القرآن الكريم، تعلّمها التلاميذ، لذلك جاء مسروق مستنكرًا هذا النوع من التفسير، وهو التفسير بالرأي، المخالف للتفسير الذي يسمعه من ابن مسعود رضي الله عنه.

وامتألت كتب التفسير بأقوال ابن مسعود رضي الله عنه التي نقلها تلاميذه في مسجد الكوفة وأصبحت عمدة يرجع إليها طلاب العلم، ومما استقرّ عليه الأمر أن ابن مسعود رضي الله عنه يعدُّ في كبار مفسري الصحابة.

كما ظهر أثر التربية القرآنية على سلوك تلاميذه ومواقفهم، قال الشعبي: «ما رأيت أحدًا كان أعظم حلماً ولا أكثر علماً ولا أكفَّ عن الدماء من أصحاب عبد الله إلا ما كان من أصحاب

(١) الطبقات الكبرى ١٠٦/٦.

رسول الله ﷺ»^(١).

ثالثاً: الاعتناء بالطاقات المتميزة والطلاب النجباء
(الموهوبون):

كان مسجد الكوفة يمتلئ بالتلاميذ وطلبة القرآن، لكن كتب التراجم أفاضت بالحديث عن ستة منهم، كانوا على قدر عالٍ من التميز، إلى درجة أن قابوس بن أبي ظبيان سأل أباه قائلاً: «لأي شيء كنت تأتي علقمة وتدع أصحاب النبي ﷺ؟» فقال أبوه: «أدركت ناساً من أصحاب النبي يسألون علقمة ويستفتونه»^(٢)، بل إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه»^(٣).

أما الستة النجباء الذين أصبحوا من كبار «أصحاب» عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، والذين أقرؤوا الناس القرآن وعلموهم السنة وصدر الناس عن رأيهم فهم: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وعبيدة السلماني، وأبو ميسرة

(١) الطبقات الكبرى ٨ / ١٣٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٨.

عمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس. كما سبق ذكر ذلك.

الروايات تفيد بأن نخبة من تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كانوا على قدر عالٍ من الفهم والنجابة والحرص على الاستفادة، ومن ثمَّ زادت عنايته بهم، بتعليمهم وتربيتهم، حتى وصلوا إلى علوِّ في الشأن، وتسنموا قياد التعليم والإقراء.

رابعاً: التوجيه التربوي:

لم يكن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مقرأً فحسب، بل كان موجَّهاً، وبعبارة أخرى قد تكون هي الأكثر صواباً: لم يكن المقرءون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يفصلون بين الإقراء والتربية. كان ابن مسعود رضي الله عنه مربيًا عجيَّبًا، نقل عنه تلاميذه الكثير من التوجيهات التربوية التي ينتفع بها الناس إلى يومنا هذا، كقوله: «ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليته إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون...»، ومن توجيهاته أيضًا: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٍ ينهى

عنه»^(١). وكان يحرص أن تقع توجهاته الموقع الحسن، ويتخذ الإجراءات في ذلك، مثل التفريق بين المواعظ بمدة زمنية طردًا للملل والسامة.

خامسًا: معايشة التلاميذ بغرض التربية:

لم يكن معلم القرآن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ليعلم الطلاب وهو في معزل عن مخالطتهم ومعايشتهم. كيف وقد تلقى هذا الهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم!

تأمل دلالة هذا الأثر الذي رواه إبراهيم أن ابن مسعود رضي الله عنه كنى علقمة أبا شبل، قبل أن يولد له، قال فسئل، فحدث علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كناه أبا عبد الرحمن قبل أن يولد له^(٢). وروى إبراهيم أيضًا عن علقمة قال: «كنت رجلًا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إليّ، فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا فذاك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله يقول: إن حسن

(١) حلية الأولياء ١/ ١٣٠.

(٢) مستدرک الحاكم ٣/ ٣٥٤.

الصوت زينة القرآن»^(١).

لقد كان الإمام الرباني ابن مسعود رضي الله عنه يدرك أن التربية الإيمانية تقتضي المعيشة والمخالطة، لما لها من فاعلية في تعميق المعاني الإيمانية، وتمتد المعيشة إلى المشاركة في شؤون الحياة اليومية كالأكل والشرب، قال علقمة: أتى عبد الله بشراب، فقال: أعط علقمة، أعط مسروقاً، فكلهم قال: إني صائم. فقال ابن مسعود: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا نُنْقَلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]^(٢).

ولهذا المعنى تأثر الطلاب كثيراً بشيخهم ابن مسعود رضي الله عنه، وظهر ذلك التأثير على سمتهم وسلوكهم، قال معمر جلسائه: «قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله هدياً ودلاً وسمتاً فقاموا معه حتى جلسوا إلى علقمة»^(٣).

سادساً: إعداد القيادات:

مكث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يعلم القرآن في مسجد الكوفة

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٥.

قراية الخمس عشرة سنة، كان يدرك - كأى مربّب حاذق - أنه مهما طال به الزمان في هذه المهمة العظيمة فإنه يوماً ما سيرتك مكانه، بوفاة أو رحيل، فكان لزاماً أن يبنى صفّاً قيادياً يرث الرسالة من بعده، ويبلغها للأجيال القادمة.

ولقد كان من بين تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من اشتهروا بـ«الأصحاب» وعلى رأسهم الستة الذين ذكرتهم سابقاً، قال العجلي: «كان عبيدة أحد أصحاب عبد الله بن مسعود الذين يقرؤون ويفتون»^(١).

وقال ابن المديني: «لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه وقاموا بقوله في الفقه إلا ثلاثة: زيد بن ثابت وابن مسعود وابن عباس، وأعلم الناس بابن مسعود: علقمة والأسود وعبيدة والحارث»^(٢). وما ذكره ابن المديني إضافة إلى المرويات الأخرى يمكن أن يعطينا تصوّراً ذهنياً عن طبقات تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه التعليمية والتربوية فمنها عموم التلاميذ، وهم يمثلون قاعدة الهرم، ويعلوهم الأصحاب، وهم أقل من

(١) سير أعلام النبلاء ٤ / ٤١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٥ .

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

العموم ممن حمل علم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ونقله إلى الأمة، ويعلوهم الخاصة من الأصحاب وهم الستة: علقمة والأسود ومسروق وعبيدة وأبو ميسرة والحارث، أما علقمة بن قيس فيتربع على رأس الهرم التعليمي حيث قال عنه شيخه: ما أعلم شيئاً ولا أقرأ شيئاً إلا وعلقمة يعلمه أو يقرؤه.

قد يحتاج عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى هذه القيادات لتساعده في مهمته التعليمية والتربوية، وأحياناً يمنحها الفرصة لتخوض غمار التجربة الجديدة وتتعلم منها، هذا ما يفسر كون عبيد بن نضلة أحد القراء النجباء قرأ على ابن مسعود رضي الله عنه وقرأ أيضاً على علقمة^(١).

في موقف آخر، وفي الحج تحديداً، يحدثنا رباح بن أبي المثني قائلاً: «كان عبد الله وعلقمة يصفان الناس صفتين عند أبواب كندة فيقرئ عبد الله رجلاً ويقارئ علقمة رجلاً، فإذا فرغاً تذاكرا أبواب المناسك وأبواب الحلال والحرام. فإذا رأيت علقمة فلا يضررك ألا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمياً وهدياً»^(٢).

(١) الطبقات الكبرى ٦ / ٢١١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٥.

سابعاً: التقييم:

تنقل المرويات ثناء عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أبرز تلاميذه: علقمة بن قيس، هذا الثناء هو تعديل لعلقمة، وباللغة التربوية: تقييم.

وحين اجتمع بطلابه في ختام عمله المبارك قال رضي الله عنه لهم: «والله إنني لأرجو أن يكون قد أصبح اليوم منكم من أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين من الدين والفقهِ والعلم بالقرآن»^(١). إن هذا الكلام يعدُّ ضرباً من التقييم لمن اجتمع بهم من تلاميذه، ولهذا عبّر عن شعوره بالارتياح لنتيجة جهده التعليمي خلال تلك المدّة الزمنية التي قضاها في مسجد الكوفة.

نستطيع القول إن مسجد الكوفة الذي مكث فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خمسة عشر عاماً لم يقتصر الإقراء فيه على تسميع آيات القرآن وتجويدها، بل تعدى ذلك إلى تعليم أحكام القرآن والتربية على آدابه ومواعظه، وكان التعليم يسير وفق منهج وآليات. فرضى الله عنه وأرضاه، وجزاه عن أمة الإسلام خير الجزاء، وهنيئاً له الأجر الذي لا ينقطع عنه بعد موته إن شاء الله.

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر ٥ / ٣٢٤ رقم (٣٨٤٥).

حلقات الإمام الرباني أبي الدرداء رضي الله عنه بجامعة دمشق:

مكث أبو الدرداء رضي الله عنه في دمشق خمسة عشر عامًا تقريبًا، يقرئ الناس القرآن ويعلمهم أحكامه وآدابه، ويرجع الفضل في إبداع فكرة حلقات القرآن الكريم إلى الله سبحانه وتعالى ثم إليه فهو الذي سنَّ هذه الحِلَق لتعليم القرآن الكريم^(١). وكان تلاميذه يزدون يومًا بعد يوم حتى تجاوزوا الألف تلميذ، وكان منظرهم وهم يحيطون بأستاذهم في دخوله جامع دمشق وخروجه منه يضاهي منظر السلطان ومعه أتباعه، إجلالًا وتوقيرًا وحرصًا^(٢).

تزايد عدد التلاميذ جدًّا، ففي دمشق الكثير من يحرص على تعلُّم القرآن الكريم، ووجود مقرئ كأبي الدرداء رضي الله عنه يعد غنيمة يجب اقتناصها، فبلغ عدد التلاميذ ألفًا وستمائة، يقول مسلم بن مشكم: «قال لي أبو الدرداء: اعدد من في مجلسنا. قال: فجاءوا ألفًا وستمائة ونيِّفًا، فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ ١/ ٢٥.

صلى الصبح انفتل وقرأ جزءاً فيحذقون به يسمعون ألفاظه»^(١). هذه الرواية من مسلم بن مشكم تصور لنا شيئاً من إدارة هذه الحلقات، فالتلاميذ ينخرطون ضمن مجموعات صغيرة، وكل مجموعة تضم عشرة من التلاميذ، وهذا يعني أن جامع دمشق يحتضن أكثر من ستين ومائة حلقة.

كما أن أبا الدرداء يبدأ عمله من صلاة الفجر، حيث يبدأ بقراءة جزئه على مسمع من التلاميذ بينما هم يحذقون به يستمعون ويتعلمون منه الأداء وضبط الألفاظ.

سويد بن عبد العزيز له رواية تضيف لنا فائدة في طريقة إدارته لحلقات الجامع، يقول: «كان أبو الدرداء إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك»^(٢)، هذه الرواية أفادت أن أبا الدرداء رضي الله عنه يتابع سير الحلقات من مكان محدد هو المحراب،

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٦.

(٢) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٨.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

كما أفادت وجود «العريف» على كل حلقة من التلاميذ، والعريف هنا هو القيّم والسيد على الحلقة يلي أمور التلاميذ ويتعرف الشيخ منه أحوالهم^(١) فهو يقوم مقام أبي الدرداء رضي الله عنه ويرجع هذا العريف إليه في تنظيم أمر الحلقة.

كما تفيد رواية سويد أن التلاميذ يقرؤون على «العريف» فيجيزهم إذا أجادوا، أو يصحح غلطهم، فإذا غلط العريف رجع إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ليصحح غلظه.

وفي حين أجاز العريف التلميذ فإن هذا التلميذ يجب عليه أن يعرض ما حفظه على أبي الدرداء رضي الله عنه ليجيزه إجازة نهائية^(٢)، وبهذا يصبح العريف مسؤولاً عن العشرة الذين يقرؤون عليه، إما يصحح أغلطهم، أو يحيلهم إلى أبي الدرداء رضي الله عنه ليعرضوا عليه فيجيزهم.

(١) انظر في هذا المعنى لسان العرب ٩/ ٢٣٨.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٥٣.

قراءة تربوية وإدارية في حلقات أبي الدرداء القرآنية:

الروايات التي تعرضت لحلقات أبي الدرداء رضي الله عنه شحيحة،
وهنا نلاحظ أمرين:

أولهما: أن الاعتناء بنقل آليات العمل التربوي والإداري لتعليم
القرآن كان قليلاً في عهد الصحابة وتابعيهم، ولعل ذلك يرجع -
والله أعلم - لتركيز جهودهم على العمل ومتابعة أهداف العمل
التعليمي، ولانعدام التصنيف في عهدهم.

وثانيهما: أن تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه كانوا أكثر نقلاً لعلمه
وتوجيهاته من تلاميذ أبي الدرداء رضي الله عنه.

ولكننا من خلال هذه الروايات القليلة جداً يمكننا أن
نلتقط بعض الإشارات التي ستفيدنا في إدارة الحلقات تربوياً:

أولاً: التنظيم الإداري:

ويظهر في عدة جوانب، أهمها: الهيكل التنظيمي الهرمي
لإدارة الحلقات.. فالروايات تفيد ترؤس أبي الدرداء رضي الله عنه لإدارة

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

الحلقات، حيث المسؤولية الكاملة عن سيرها وعن التلاميذ الملتحقين بها، ويقع «العرفاء» في التنظيم الإداري لهذه الحلقات تحت رئسهم، وهم التلاميذ النجباء، حيث يشرف على أعمالهم، ويحمل عنهم ما لا يستطيعون حمله، وفي المقابل يقومون مقام أبي الدرداء داخل الحلقات، ويتجاوز عددهم ستين ومائة عريف، ثم يقع في قاعدة هذا العمل التلاميذ داخل حلقاتهم، بحيث ينتظم في كل حلقة عشرة من التلاميذ، ويتم التواصل الإداري وفق هذا التنظيم الإداري: «فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفه، فإذا غلط عريفهم، رجع إلى أبي الدرداء يسأله عن ذلك»^(١).

الجانب الثاني: توزيع الأدوار: فهؤلاء النجباء يوكل أبو الدرداء ﷺ إليهم مهمة العرافة، ومسلم بن مشكم يوكل إليه مهمة الإحصاء.

الجانب الثالث: التفويض: كان التلاميذ النجباء الذين عينهم أبو الدرداء ﷺ عرفاء في حلقاتهم يقومون بمهام المعلم، يقرئون التلاميذ القرآن ويصححون أغلاطهم ويحيلونهم إلى أبي الدرداء ليجيزهم، ويتابعونهم.

(١) معرفة القراء الكبار ١/٣٨.

الجانِب الرابع: البرنامج اليومي المنظم: تفيدنا الروايات - على قَلَّتْها - وجود برنامج يومي لهذه الحلقات، يسير بشكل واحد ومنظم، يبدأ بصلاة الفجر، ثم يتلوها وردُّ يقرؤه أبو الدرداء رضي الله عنه، بينما يحيط به التلاميذ، يستمعون إلى قراءته، ويلاحظون أداءه ومخارج الحروف، فيصحِّحون ألفاظهم على قراءته، ثم تتشكل الحلق، في كل حلقة عشرة تلاميذ، وعليهم عريف، وهذا يعني ثبات كل تلميذ في حلقاته، ومن يجيزه العريف يحيله إلى أبي الدرداء رضي الله عنه للإجازة النهائية، وإلا صحح العريف للتلميذ، وإن غلط العريف صحح له أبو الدرداء رضي الله عنه.

هذا البرنامج اليومي المنظم مما استحدثه أبو الدرداء رضي الله عنه، حيث دعت الحاجة إليه لكثرة التلاميذ، ولخطورة البرنامج (إقراء القرآن)، كما أن دمشق تعدُّ حاضرة ضاربة في التاريخ موعلة في التمدن، ولديها تفنن تشربته بحكم موقعها ومكانتها، فكان هذا التنظيم الذي استحدثه أبو الدرداء رضي الله عنه في تعليم القرآن الكريم مواكبةً منه لمتطلبات الزمان والمكان، وانفتاحاً على واقعه، فكانت النتيجة: نجاح في الأداء، وازدياد في عدد التلاميذ الذين حفظوا القرآن الكريم أو أجزاء منه.

إننا بحاجة ملحة إلى أن نقف هنا وقفة تفكّر وتأمل في الطريقة التي يفكر بها أصحاب النبي ﷺ وهم يحملون رسالة القرآن ودعوة الإسلام للناس، وكيف يفرقون بين الثابت والمتغير، وبين الأصيل والمحدث الدخيل، وبين الوسائل والأهداف، وبين المشترك والخاص.

ثانيًا: إعداد القيادات:

وذلك من خلال تفويض العرفاء والإشراف عليهم، لقد كان ذلك بمثابة «التدريب على رأس العمل»، ويظهر ذلك جليًا في أفضلهم: عبد الله بن عامر اليحصبي، أحد رؤوس القراءات فيما بعد، فقد أصبحت حلقات جامع دمشق من المواطن التي تخرّج القراء والحفاظ والمجوّدين.

ثالثًا: المتابعة:

لم يكن أبو الدرداء رضي الله عنه متكئًا على أريكته أو قابعًا في برجه العاجي، بل كان يطوف على الحلقات، فإذا أحكم الرجل في حلقاته تحول إليه يعرض إليه^(١).

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٢/٣٥٣.

أيُّ جهد بشري يحتاج إلى متابعة ليتحقق تقويمه وتجويده وتطويره، وإلا فإن الإحصاءات والتقارير لوحدها تظهر الحسن وتستر القبيح، وتخدع المسؤول، فمن اللازم أن تكون المتابعة أحد أركان الإدارة الناجحة.

رابعاً: التوجيه التربوي:

لقد حفلت كتب التراجم وكتب الرقائق بالتوجيهات التربوية التي كان أبو الدرداء رضي الله عنه يريُّ بها تلاميذه، والتي تفيض بنور الوحي، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ويُلُّ للذي لا يعلم مرّة، وويُلُّ للذي يعلم ولا يعمل سبع مرات»^(١)، كلمات وتوجيهات متنوعة يصحُّح بها مسار التعلُّم ومسار التعبُّد ومسار التكبُّب، أفادت منها الأُمَّة إلى وقتنا هذا، لقد كانت هذه التوجيهات مؤثرةً في تكوين شخصية حافظ القرآن، وحافزةً له في الازدياد من الطاعات.

خامساً: المعاشة للتلاميذ:

عن أبي مالك قال: «كان أبو الدرداء يصلي، ثم يُقِرُّ ويقرأ، حتى إذا أراد القيام قال لأصحابه: هل من وليمة أو عقيقة نشهدها؟»

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٧.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

فإن قالوا: نعم، وإلا قال: اللهم إني أشهدك إني صائم»^(١).

الصحابة يدركون - وهم الذين تربوا على يد النبي ﷺ - أن التربية والتعليم لا يتمان بدون معايشة، بل كثير من التوجيهات التربوية إنما تنبع من ملاحظات أو ثغرات أو فرص يقتنصها المرابي أثناء معايشته لتلاميذه.

سادساً: اهتمامه ببيان معاني القرآن الكريم وتفسيره:

لم يكن أبو الدرداء ؓ يغفل الجانب التعليمي في بيان معاني كلام الله تعالى، قال ؓ: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله عز وجل: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢] قال: «السابق والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب، والظالم لنفسه يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة»^(٢).

في ختام هذا العرض لأبرز مدرستين قرآنيتين في عصر الخلافة الراشدة، نجد أنهما لم تكونا مجرد حلقات لحفظ القرآن الكريم، بل كانتا جامعتين لحفظ القرآن وضبطه وتعليم أحكامه وآدابه.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٦.

(٢) مستدرک الحاكم ٢/ ٤٦٢.

جمع المصحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

باتت البلدان والأمصار عامرة بالمجاهدين والعلماء والقراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين (العراق والشام ومصر واليمن والحجاز)، وصارت لسائر الآفاق جاهزية للفتح الإسلامي، حتى جاء الدور على أرمينية وأذربيجان في المشرق، فأمر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يجتمع لفتحها جند العراق وجند الشام. فاختلط جند العراق بجند الشام وفيهم قراء العراق الذين قرأوا على عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري، وفيهم قراء الشام الذين قرؤوا على أبي الدرداء والمقداد بن الأسود رضي الله عنه. قال ابن كثير: «جعل من لا يعلم سوغان القراءة على سبعة أحرف يفضّل قراءته على قراءة غيره، وربما خطأ الآخر أو كَفَّره، فأدى ذلك إلى اختلافٍ شديد، وانتشار في الكلام السيء بين الناس»^(١).

الجدير بالذكر أنه في ذلك الوقت كانت الصحف التي جمع زيد بن ثابت فيها القرآن في عهد أبي بكر موجودة عند حفصة أم

(١) البداية والنهاية ٧ / ٢٠٥.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

المؤمنين رضي الله عنها، وهي أوراق فيها سور القرآن الكريم، قد جمع في كل سورة كل آياتها، لكن هذه السور مفرقة في أوراق مجردة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم» ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق»^(١).

(١) البخاري ٣/٣٣٨ ح (٤٩٨٧).

قال ابن كثير رحمه الله في ترجمة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «من مناقبه الكبار وحسناته العظيمة أنه جمع الناس على قراءة واحدة، وكتب المصحف على العريضة الأخيرة التي درسها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر سني حياته... وجمع عثمان الصحابة وشاورهم في ذلك، ورأى أن يكتب المصحف على حرف واحد، وأن يجمع الناس في سائر الأقاليم على القراءة به دون ما سواه، لما رأى في ذلك من مصلحة كف المنازعة ودفع الاختلاف، فاستدعى بالمصحف، وأمر زيد بن ثابت الأنصاري أن يكتب، وأن يملي عليه سعيد بن العاص الأموي، بحضرة عبد الله بن الزبير الأسدي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، وأمرهم إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، فكتب لأهل الشام مصحفًا، ولأهل مصر آخر، وبعث إلى البصرة مصحفًا، وإلى الكوفة بآخر، وأرسل إلى مكة مصحفًا، وإلى اليمن مثله، وأقرَّ بالمدينة مصحفًا. ويقال لهذه المصاحف: الأئمة. وليست كلها بخط عثمان، بل ولا واحد منها، وإنما هي بخط زيد بن ثابت، وإنما يقال لهذه المصاحف العثمانية نسبة إلى أمره وزمانه، وإمارته. قال الواقدي: لما نسخ عثمان المصاحف دخل عليه أبو هريرة، فقال: أصبت ووفقت. أشهد لسمعت

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

رسول الله يقول: إن أشد أمتي حَبَّالي قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، يعملون بما في الورق المعلق. فقلت: أي ورق؟ حتى رأيت المصاحف. قال: فأعجب ذلك عثمان، وأمر لأبي هريرة بعشرة آلاف، ثم عمد إلى بقية المصاحف التي بأيدي الناس مما يخالف ما كتبه فحرقه لئلا يقع بسببه اختلاف^(١). وكتبت المصاحف مجردة من النقط والشكل، لعدم الحاجة إلى ذلك في ذلك الوقت، ولكي تحتمل الأحرف الأخرى، فإن لم تحتمل غير حرف واحد كُتبت بلسان قريش^(٢).

في رواية مصعب بن سعد: «قال عثمان: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله زيد بن ثابت. قال: فأبي الناس أعرب [أفصح]؟ قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليمل سعيد وليكتب زيد»^(٣). وأخرج ابن أبي داود من طريق أبي قلابة قال: «لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضاً فبلغ

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٠٥ بتصرف يسير.

(٢) جمال القراء ص ١٦١.

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٣٤.

ذلك عثمان فخطب فقال: أتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافًا»^(١)، لكنه لم يُحدث شيئاً حتى جاءه حذيفة رضي الله عنه بخبر الاختلاف، عن أبي الشعثاء قال: «قال حذيفة: يقول أهل الكوفة قراءة ابن مسعود ويقول أهل البصرة قراءة أبي موسى، والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لآمرنه أن يجعلها قراءة واحدة»^(٢).

هنا يتملكك العجب وتأخذ الدهشة بتلايبك، حين تجد - دائماً - حسَّ المسؤولية لدى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فهم ذوو المبادرات الفذة، فكما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو صاحب مبادرة جمع القرآن في الصحف، فإن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه هو صاحب مبادرة جمع الصحف في مصحف واحد على حرف واحد. وهذه في حقيقة الأمر هي الصورة الصحيحة والوضع المثالي لأصحاب الدعوة: أنهم أصحاب مبادرات فذة، تنطلق من تصور جيد للواقع واستشراف للمستقبل.

(١) فتح الباري ٨ / ٦٣٤.

(٢) فتح الباري ٨ / ٦٣٤.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

في المقابل تجدد القائد الفذّ يستشير أهل الرأي في جماعته، ويطلع على آرائهم، ويقارن بينها، قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «والله ما فعل عثمان الذي فعل في المصحف إلا عن ملأ منا... قال: أرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد؛ فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت»^(١).

ثم إن القرارات الإستراتيجية والتي يمتد تأثيرها ليطال الأجيال، عندما تسبقها إجراءات للتأمل والمشورة والدراسة وجمع البيانات وتحليلها، وتقييم البدائل والخيارات فإنها حتماً ستكفل بالنجاح والسداد والتوفيق، وسيكون لها الأثر الإيجابي والكبير بإذن الله. وقراراً كهذا، أعني جمع الناس على حرف واحد، هو من أمثلة هذا النوع من القرارات الإستراتيجية، فعثمان بن عفان عليه السلام لاحظ المشكلة ابتداءً، لكنه تريث واستشرف أبعادها، ووعظ الناس واستمع إليهم، واستشار الصحابة، ثم صدر القرار، فكان الخير لهذه الأمة جمعاء.

إن العمل لدين الله يلزمه بعد الاستعانة بالله تعالى التخطيط، والتخطيط الجيد هو الذي يشتمل على رؤية واضحة لأهداف

(١) فتح الباري ٨ / ٦٣٤.

العمل على ضوء المقاصد الشرعية، مع استشراف المستقبل، وآليات العمل وضوابطه وقيمه، وتكوين فرق العمل المشرفة والمنفذة مع الفصل بينهما.

تكوّن فريق العمل لكتابة المصحف ونسخه من الصحف من زيد بن ثابت الأنصاري، وسعيد بن العاص القرشي الأموي، وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، وكان لكل فرد مهمة واضحة ومحددة، فزيد بن ثابت يكتب، وسعيد بن العاص يملي، وعبد الله وعبد الرحمن يشهدون الكتابة والإملاء ويرجحان عند الاختلاف، والخليفة عثمان يحسم الخلاف إذا لم يترجح. قال ابن شهاب: «فاختلفوا يومئذ في التابوت والتابوة، فقال القرشيون: التابوت. وقال زيد: التابوة. فرفع اختلافهم إلى عثمان. فقال: اكتبوه: التابوت، فإنه نزل بلسان قريش»^(١) مستدلاً على هذا الضابط بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

محددات اختيار فريق العمل واضحة، ومحددات نجاح العمل واضحة، وعليه يمكن قياس نجاح العمل وإدارته. هكذا فلتكن المشاريع القرآنية.

(١) فتح الباري ٨/ ٦٢٩.

ملحوظات عامة على المشاريع الراشدة

كان للحركة الجهادية والدعوية أثرٌ بالغ في الريادة العلمية حيث تم جمع القرآن وتدوينه بطريقة رائعة محكمة على أيدي من ذكرنا في عهد أبي بكر وعثمان واقتفى الناس أثرهم في ذلك الرأي الحسن فجمعوا العلم ودونوه وكتبوه^(١) وكان مبعث ذلك والدافع إليه أثر من آثار الجهاد في سبيل الله تعالى، وتعليم الناس دين الله في الأمصار، حيث إن المشروع القرآني المعجزة: (جمع القرآن في عهد أبي بكر) كان دافعه نازلة مقتل القراء في اليمامة. وتشيد المدارس القرآنية في الأمصار أتى نتيجة للفتوحات الكبيرة والواسعة في البلدان والأمصار، مما استدعي التوازي بين التوسع في الفتح وتعليم الناس في تلك الأمصار. والجمع في عهد عثمان بن عفان كان منشؤه أثناء الفتوحات الإسلامية وتفرق القراء في تلك الأمصار، وأخذ كل مصر عمّن وفد إليه من القراء قراءته، فكان إذا جمع الناس موطنٌ من مواطن الغزو والجهاد اختلفوا في أوجه القراءات، فكانت نازلة أخرى أثرت الساحة العلمية وأسهمت في تشييد حضارة الإسلام.

(١) الاعتصام ١/ ٢٣٠.

إن الحراك الدعوي والجهادي له أثره الإيجابي، وإن من آثاره الإيجابية اليوم - وكلها كذلك - هذا الإقبال الكبير على التدئين. وهل كان إسلام عمر الفاروق رضي الله عنه إلا نتاجاً من أثر ذلك الحراك! ولا تزال فضائل الدعوة والجهاد تترى على الناس كافة.

في جانب آخر، وببساطة لا يشوبها تعقيد، فإن عصر الصحابة رضي الله عنهم يمتاز بالاعتراف العملي بالتخصصات، فكما أن الحراك الجهادي له أساطينه وقادته والمبرزون فيه فكذلك الحراك العلمي له قادته وأساطينه والمبرزون فيه: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة عامر بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان أمثلة على النبوغ الجهادي، وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل أمثلة على النبوغ العلمي، وأبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أمثلة على النبوغ الإستراتيجي.

والمذهل حقاً أن يكون في مقدور السلطة العليا في الدولة توظيف هذه التخصصات ببراعة وذكاء، ولا أدلّ على ذلك من ندب الخليفة عمر لعبد الله بن مسعود إلى الكوفة، فابن مسعود عملاق في علم القرآن وأحكام الشريعة، والكوفة فيها قبائل

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

العرب وحماة بيضة الإسلام، فكان لهذا القرار تأثير كبير في كثرة الذين قرؤوا القرآن وتفقهوا في الدين من قاطني الكوفة، إلى درجة أن بعض أصحاب النبي ﷺ كان يستفتي علقمة تلميذ ابن مسعود، كما مرَّ معنا، بينما لم يرسله إلى البصرة، لأن البصرة كانت بحاجة إلى شخصية كأبي موسى الأشعري، حيث عرض الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ على أبي موسى الأشعري ﷺ إمرة البصرة، وقال له: إني أرسلك إلى قوم عسكر الشيطان بين أظهرهم. قال أبو موسى: فلا ترسلني. قال عمر: إن بها جهاداً ورباطاً. فأرسله إلى البصرة. قال الحسن البصري: «ما قدمها [يقصد البصرة] راكبٌ خيرٌ لأهلها من أبي موسى»^(١). وكانت مدَّة بقاء أبي موسى الأشعري ﷺ بالبصرة تقارب الثنتي عشرة سنة، والله أعلم.

ورجلٌ كزيد بن ثابت يُستدعى عند الحاجة، فينجز بتوفيق الله أعظم مشروعات عرفتها حضارة الإسلام: جمع القرآن في مرحلته.

إن هذين الأمرين، أعني الاعتراف بالتخصصات وتوظيف أصحابها توظيفاً أمثل، مما يستحق أن تقف عنده المؤسسات القرآنية وقفه تأمل واعتبار واقتداء.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٨٩.

هل نحن بحاجة إلى مشاريع قرآنية؟

برغم الوعد الصادق من الله بحفظ كتابه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] إلا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يدركون تمامًا أن من طبيعة هذا الدين أنه لا يقوم بذاته، بل يقوم على كواهل طائفة من البشر، تتحمل في سبيل ذلك ما شاء الله مما يقدره على عباده الصالحين ويشيهم عليه، ولهذا كان الخوف من ذهاب القرآن، وكان الشعور بمسؤولية حفظ القرآن، وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم. فالناس أدوات لحفظ القرآن الكريم، حفظ حروفه ومعانيه وأحكامه وتحكيمة وتنزيله في حياة الناس.

وفي كل مرة يقام للقرآن الكريم مشروع يُحفظ به تجد الأثر الكبير في واقع الأمة والنهوض بها من الدون إلى الأعلى، وحين تنصرف الأمة عن المشاريع القرآنية فإنها تضعف وتتمزق، ولعل هذا هو سرُّ ضعف المسلمين داخليًا برغم الفتوحات والإنجازات التي قدمتها الدولة الإسلامية في أزمان فائتة؛ بينما في عهد الخلافة الراشدة كانت حركة الجهاد في سبيل الله تسير متوائمة مع مشاريع حفظ القرآن الكريم.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

هذه النقطة بالذات هي التي تفسر لي إجابة سفيان الثوري رحمه الله (ت ١٦١ هـ)، وقد عاصر الحركة الجهادية، حين سُئل عن الرجل يغزو أحب إليك أو يقرأ القرآن؟ فقال: يقرأ القرآن، لأن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١).

وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الخلفاء الراشدين (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)^(٢)، فإن من سنتهم القيام بالمشاريع القرآنية النوعية، وإن على المؤسسات القرآنية اليوم أن تقوم بهذا الواجب في ظل العداء العالمي لهذا القرآن، والذي يتخذ مسارات عديدة، منها صرفه عن توجيه الأمة، ومنها صرف الأمة عن حفظه وتحكيمه ومعايشته والاهتداء به والاعتزاز به، ومنها التشكيك في جدوى فعاليته في هذا العصر، ومزاحمته بالنظريات الحديثة، وغير ذلك مما يواجهه النشء المسلم اليوم بالتزامن مع طوفان الانفتاح والانحلال الهادفين إلى اقتلاع هويته الإسلامية التي صنعها القرآن الكريم.

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٨.

(٢) الترمذي ٤٤/٥ ح (٢٦٧٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

لقد أدرك الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم أن الأمة المسلمة لا قيام لها ولا نهوض ولا نصر ولا رفعة ولا خيرية بدون القرآن الكريم، فجعلوا العناية به إستراتيجية واضحة الرؤية والأهداف، وأدرك الناس بعد ذلك عمق رؤيتهم وصدق خطتهم.

إن المشاريع القرآنية، صغر حجمها أو كبر، هي لبنة في بناء الأمة المسلمة، وسبيل من سبل الارتقاء بالدعوة الإسلامية، ومعلم مهم من معالم التربية الإسلامية، وسيحمد الناس فيما بعد بناءً يقوم على رعاية كتاب الله العزيز، وستحمد الأجيال التصاقها به.

المشاريع القرآنية التي نريد

المشروع في لغة الإداريين هو: مجهود مؤقت يتم القيام به للحصول على نتيجة محددة.

وبتفصيل هذا التعريف يمكننا القول إن لفظة «مجهود» تعني مجموعة من الأنشطة والأعمال. و«مؤقت» أي له بداية ونهاية محددتان. و«نتيجة» أي الهدف الذي أقيم المشروع لأجله، وهذه النتيجة قد تكون منتجًا محسوسًا (مادة)، وقد تكون خدمة.

ماذا يحتاج المجتمع من المؤسسات القرآنية؟

إذا كنا نتحدثنا عن أثر القرآن في بناء الأمة، وحاجة الأمة إلى مشاريع قرآنية فإنه يمكن تسليط الضوء على الاحتياجات المجتمعية من المؤسسات القرآنية، والتي من خلالها ستكون هذه المؤسسات قادرة على صياغة مشاريع قرآنية تلبى تلك الاحتياجات:

- المجتمع بحاجة إلى قرّاء يتخلقون بأخلاق القرآن، ويتمسكون بهديه، ويلتزمون آدابه، ويجتهدون في تطبيق أحكامه،

يرجع إليهم المجتمع في معرفة دين الله، ويلتفُّ عليهم عند حلول النوازل والمستجدات والكوارث والملمات، ويصدر عن رأيهم حين تدلُّهم المحن وتنتشر الفتن، فإن هذا هو مقتضى الأمر الإلهي: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]؛ قرّاء يجددون لنا سمات السلف الصالح في عباداتهم ومعاملاتهم وفكرهم وعلمهم.

- والمجتمع بحاجة إلى مدارس قرآنية، لا يكون همُّها متمحورًا فقط حول الحفظ والتلاوة، بل مدارس تعتني بالبعد الإنساني في الطلاب، فتلبي احتياجاتهم النفسية وتراعي خصائص مراحلهم العمرية، وتنمي شخصياتهم، وتصقل مواهبهم، وتعالج اضطراباتهم، وتعمل على تحقيق التوازن والتكامل في وجدانهم وسلوكهم.

- والمجتمع بحاجة إلى أئمة مساجد يؤمنون الناس في صلاة التراويح والقيام في شهر رمضان، أئمة مساجد متقنين لما يحفظونه من القرآن الكريم، يجيدون القيام بواجبات الإمامة، كالأداء الجيد والحفظ المتقن ومواجهة الجمهور والقدرة على الإلقاء والإجابة عن الأسئلة وإدارة أعمال المسجد في رمضان.

الفصل الثالث: المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة

فإن الناس في شهر رمضان يقبلون على المساجد ويحبون سماع كلام الله، وحين أقام عمر صلاة التراويح في شهر رمضان جعل سيّد القراء أبي بن كعب رضي الله عنهما إمامًا للناس^(١).

- والمجتمع بحاجة إلى تعلّم أحكام القرآن الكريم، وآدابه، ومفاهيمه، وتصوراته، بأسلوب يتلائم مع مستوياتهم العمرية والعلمية، من دون تعقيد أو تمييع، فإن القرآن الكريم أحد شقي الهداية كما جاء في حديث النبي ﷺ: «تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله»^(٢).

- والمجتمع بحاجة إلى أن يتعلّم كيف يتدبر القرآن الكريم، بحاجة إلى أن تكون لديه تلك الملكة العظيمة «التدبر»، ليقوم كلُّ فرد في المجتمع بتدبر القرآن واستلها م معانيه وإشاراته، امثالاً لقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فإن القرآن إنما نزل للتدبر والاهتداء.

- والمجتمع بحاجة إلى تنمية نسائه وفتياته تنمية حقيقية

(١) انظر صحيح البخاري ٢/٦٠ ح (٢٠١٠).

(٢) أبو داود ٢/١٨٢ ح (١٩٠٥).

تلائم فطرهن، وتلبي احتياجاتهن، وتفعل أدوارهن في المجتمع، تنمية منطلقة من كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن الله تكفل في كتابه بالهداية إلى الأفضل والأحسن والأكمل والأجمل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، تنمية لا تأبه بالشعارات الزائفة والنداءات المهزومة والتي لا ترى في تنمية المرأة إلا التمرد على الرجل وحرية الإغواء.

- والمجتمع بحاجة إلى متخصصين ومتخصصات في علوم القرآن وأدائه وتفسيره، يثرون الساحة بكنوز القرآن الكريم ويُطلعون الناس على ما توصلت إليه أبحاثهم ودراساتهم، من خلال مؤتمرات أو دروس أو حلقات مرئية عبر القنوات الفضائية أو مؤلفات ومجلات علمية وغيرها.

- والمجتمع بحاجة إلى معرفة القصص القرآني للأنبياء وغيرهم، وقصص الأمم السابقة، واستلهام الدروس والعبر منها، ليقصدوا منها بما هو محلُّ الاقتداء كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ويجذروا منها ما هو محل الحذر والشؤم والنقيصة كما قال الله تعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

- والمجتمع بحاجة إلى موهوبين ومبدعين وكتاب ومثقفين يستلهمون مسيرتهم من كتاب الله، ويعمرون الأرض بهدي القرآن في مجالاتهم، وبينون حضارة قرآنية متفردة متميزة، ويطوِّعون الفكر والمادة في خدمة القرآن وأحكامه وهديه.

- والمجتمع بحاجة إلى تحصين فكري ضد سلبيات الانفتاح العالمي الوافدة إليه، من الأفكار والمبادئ والقيم الرديئة والهادمة، فإن لهذا الانفتاح تبعات ومضاعفات نريد تخلص المجتمع من آثارها، وتحصينه ضدها، فالمجتمع اليوم ترد عليه الكثير من الشبهات والشهوات من خارجه، تمزق فكره وعقيدته وهويته، ولا ينفع إلا أن نبني حصناً يحميه بإذن الله أو سدّاً يصدُّ هذا الطوفان.

- والمجتمع بحاجة إلى تقنية تستضيء بكتاب الله؛ تقنية لا تحدش قيم المجتمع ومبادئه، ولا تهدم عقيدته وهويته، تقنية تبادر وتنجز، وتقدم كل ما هو مفيد ونافع، وكل ما من شأنه يبنى ولا يهدم.

- والمجتمع بحاجة إلى معرفة السيرة النبوية لسيدنا محمد ﷺ من خلال العرض القرآني المميز والوقّاد، حيث عرض القرآن الكريم سيرته عرضاً عجيّباً، تتطرق فيه إلى الجو العام للأحداث وخلجات الصدور، وجعل من حياة محمد ﷺ كتاباً مفتوحاً يقرؤه كل قارئ للقرآن الكريم، والله حكمة في التعرض لجزئيات صغيرة في حياة نبينا ﷺ، إننا بحاجة إلى التعرف على هذه الجزئيات وطريقة عرضها في القرآن الكريم وكيف عاجلها وناقشها: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

المشاريع القرآنية التي نريد:

لا مشكلة من كون المشروع الذي يراد منه خدمة كتاب الله صغير الحجم أو كبير الحجم، فإن هذه مسألة ترجع إلى الهدف من هذا المشروع والشريحة المستفيدة منه والإمكانات المتاحة، غير أننا بحاجة إلى مشاريع «نوعية» تضرب أطنابها في عمق الهدف، ولنا أن نصف هذه المشاريع بأنها:

١. واضحة الرؤية محددة الأهداف: قد تمَّ التخطيط لها بناء على معطيات حقيقية وإحصاءات رقمية، ولدى القائمون عليها تصوُّرٌ عما تؤول إليه الحال بتنفيذها، فهي ليست مشاريع يتمُّ الاتفاق عليها بناء على مؤثرات عاطفية أو تقليدًا ومحاكاة لقوم آخرين لديهم الفكرة نفسها. كل مشروع قرآني قام في عصر الخلافة الراشدة كان واضح الرؤية والأهداف.

٢. وهي مشاريع إبداعية: تفتقت الأذهان عنها بسبب الحاجة إليها، وكما قيل: الحاجة أم الاختراع، وبالتالي فأصحابها يغامرون لأنهم يفعلون شيئاً جديداً، أو يصنعون منتجاً جديداً، وقد يقابل هذا الإبداع مقاومة من نوع ما، يحتاج معه إلى أدوار إقناعية. وإنما يكون الإبداع في الوسائل والأساليب والتقنيات وليس في المنهج، فإن المنهج واحد لا يتغير، وهذا يتطلب مستوى من الوعي وحواراً يجتمع فيه رواد المؤسسة القرآنية على فكرة التفريق بين المنهج وبين الوسائل والأساليب والتقنيات، وقد كان جمع القرآن الكريم مشروعاً إبداعياً غير مسبوق.

٣. وهي مشاريع ذات رؤية شرعية مؤصلة: لها ما يبررها من مصادر الاستدلال، بعيدة كل البعد عن باب البدعة، فنحن إنما نريد أن نتقرب إلى الله بمثل هذه المشاريع، لا أن نفتح بها باباً من أبواب الضلالة، وبذلك يتلقاها أهل العلم والإيمان بالقبول بعد توضيح كل المبررات الشرعية للمشروع كما تقبل أبو بكر رضي الله عنه فكرة جمع القرآن بعد حوار علمي مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٤. وهي مشاريع تقوم على عملٍ إداري منظم: يوزع الأدوار، ويحدد المهام، ويضع المعايير، ويقوم الأداء، ويوظف الطاقات؛ فلا مجال فيه للتساهل التنظيمي، ولا مجال فيه لتغليب جانب العلاقات على جانب الإنجاز، وبنظرة في طريقة الخلفاء الراشدين في مشاريعهم القرآنية يتضح لنا أهمية الجانب الإداري في المشروع. تأمل تشكيل لجنة في عهد عثمان رضي الله عنه وتوزيع الأدوار ووضع معايير (كلغة قریش) للرجوع إليها عند الاختلاف، وإقضاء ابن مسعود عنها.

٥. وهي مشاريع متخصصة، تستهدف شيئاً محدداً: حفظاً، أو تلاوة، أو إتقاناً، أو تفسيراً، أو إمامة، أو غير ذلك

من الأمثلة الكثيرة، فليس من النافع تشتيت الجهود وبعثرة الأفكار.

٦. وهي مشاريع تلبى حاجات الأمة الحقيقية: فإن الناس اليوم تنوعت حاجاتهم إلى القرآن الكريم، بحسب أعمارهم، ومجتمعاتهم، وبحسب ما يعتنقونه من أفكار وما يمارسونه من سلوك. لاحظ أن مشاريع الخلفاء الراشدين جاءت تلبية لاحتياجات حقيقية، ومتنوعة، فنفع الله بها نفعًا عظيمًا.

٧. وهي مشاريع متينة تليق بكتاب الله تعالى: وليست بالهزيلة، تعتمد الخطط الجيدة، والأهداف الطموحة، والطاقات الشابة، ألا ترى أن أحد مبررات تكليف أبي بكر الصديق لزيد بن ثابت رضي الله عنهما أنه شاب! فكلّفه بجمع القرآن برغم وجود الأكابر كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إن تكليف الشباب بالمشاريع قوّة، ولا ينقص ذلك من قدر الأكابر، ولكلّ جهة هو مولّيها. ومتينة في الطرح فلا تعتمد الوسائل الهزيلة والمهترئة، وإنما تعتمد أفضل الأساليب المحققة للهدف من المشروع، ولو كانت الوسيلة في ظاهرها عادية.

اتجاهات المشاريع القرآنية:

لو أعدنا النظر في المشاريع القرآنية في عصر الخلافة الراشدة لوجدنا أنها اتخذت ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: الوصول بالقرآن الكريم إلى مرحلة التثبيت والأمان والحماية من الضياع: وهذا ما حدث في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث كان الباعث لجمع القرآن هو قتل القراء وخوف ضياعه. ويمكن تسمية هذا الاتجاه باللغة الإدارية: إنتاج (مادة): حيث أصبح لديهم القرآن مجموعاً كتابة بمعايير معينة، وهذا ما لم يكن موجوداً من قبل، وهو إنتاج محسوس.

الاتجاه الثاني: تكوين قاعدة عريضة من العلماء والقراء المتقنين والمجودين: وهذا ما حدث في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث انتشر تعليم القرآن في الأمصار والمدائن، وأصبح حملة القرآن في كل مكان. ويمكن تسمية هذا الاتجاه باللغة الإدارية: خط إنتاج جديد (خدمة): حيث أصبح في مدائن الإسلام الأعداد الغفيرة من الذين يحفظون القرآن الكريم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم ويفهمون معانيه وأحكامه وآدابه. وبهذا حُفَظ القرآن

من جانبين: حفظه مكتوبًا، ومحفوظًا في الصدور.

الاتجاه الثالث: سدُّ ثغرات وحل مشكلات وتهذيب من الشوائب التي لحقت بالاتجاهين الأولين - وهو أمر طبيعي - للوصول بالقرآن الكريم إلى أفضل ما يمكن الوصول إليه من الاستقرار والإبداع. حيث ألغيت أحرف القرآن ونسخ القرآن إلا حرفًا واحدًا ومصحفًا واحدًا اعتمده الصحابة وانفقوا عليه، وكان الباعث إلى هذا الاتجاه: اختلاف القراء جرأء التعليم المختلف في الأمصار. ويمكن تسمية هذا الاتجاه باللغة الإدارية: «تحسين المنتج»: حيث أصبح القرآن الكريم مجموعًا في مصحف واحد وبحرف واحد بدلًا عن كونه مجموعًا في رقاع ومصحف، وبعدهً أحرف.

وأيًا كانت اتجاهات المشاريع القرآنية: إنتاجًا (سواءً كان الإنتاج مادةً أو خدمة) أو تحسينًا، فإن على المؤسسات القرآنية اليوم أن تفكّر بهذه الطريقة: ما هي حاجة المجتمع منها؟ وما هي أدوات قياس حاجات المجتمع؟ وما هو الاتجاه المناسب والأفضل لعمل المشاريع؟ وهل هي مشاريع إنتاج مواد أم إنتاج خدمات أم تحسين منتجات؟ كما ينبغي أن تتدب من يوثق بهم

من الشباب لإدارة هذه المشاريع ويتقنوا مهاراتها وأدواتها، لتكون بإذن الله خطوات في خدمة القرآن الكريم الخدمة الحقيقية.

وفي واقع الأمر هناك بعض المؤسسات القرآنية أدركت مسؤوليتها في حفظ القرآن الكريم بالمعنى الشمولي للحفظ، فقدّمت مشاريع قرآنية احترافية تُعدُّ فخراً لها، ونفع الله بها البلاد والعباد، لكنها قليلة جداً، والمأمول من سائر المؤسسات المعنية بكتاب الله أن تنحو هذا النحو، وتتجه هذا الاتجاه، فإن مشروعاً واحداً بمنهجيته السلفية وتقنياته الإدارية خيرٌ من كثير من الجهود والأوقات المهذرة في أهدافٍ ضعيفة أو أعمالٍ لم يُنظر فيها إلى المآل نظرة علمية.

يا رؤاد المؤسسات القرآنية!

بين يديكم نماذج لمشاريع نوعية واتجاهاتها، وعرض لحاجات المجتمع منكم، وسمات المشاريع الرائدة؛ تأملوها وأعيدوا النظر فيها، وأروا الله في قرآنه من مؤسساتكم خيراً.. وأنتم أهلٌ لذلك.

قائمة المراجع

- (١) د. إبراهيم بن صالح الحميضي، جمال القراء، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ.
- (٢) أ.د. إبراهيم بن مبارك الدوسري، إطار مرجعي للتقويم التربوي، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي ١٤٢٢هـ.
- (٣) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية.
- (٤) ابن الأثير الجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ.
- (٥) الأجرى، أخلاق حملة القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.
- (٦) أحمد بن حنبل، المسند، ت: أحمد شاكر، دار المعارف.
- (٧) د. أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي ٢٠١١م.
- (٨) أحمد عبد الرحمن البناء، الفتح الرباني لترتيب مسند

الإمام أحمد الشيباني، دار إحياء التراث العربي.

(٩) الإدارة العامة للإشراف التربوي، دليل مفاهيم الإشراف التربوي، وزارة التربية والتعليم ١٤٢٧هـ.

(١٠) د. أكرم ضياء العمري، عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(١١) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(١٢) الألباني، السلسلة الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ.

(١٣) الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(١٤) الألباني، صحيح سنن أبي داود، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

- (١٥) الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- (١٦) باحثون، الموهوبون أساليب اكتشافهم وسبل رعايتهم في التعليم الأساسي، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤١٨هـ.
- (١٧) البخاري، الجامع الصحيح، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
- (١٨) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.
- (١٩) البغوي، شرح السنة، ت: زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- (٢٠) البغوي، معالم التنزيل، ت: محمد النمر، د. عثمان جمعة ضميرية، سلمان مسلم الحرس، دار طيبة، الإصدار الثاني، الطبعة الثالثة ١٤٣١هـ.
- (٢١) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

- (٢٢) أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- (٢٣) الترمذي، الجامع الصحيح، ت: أحمد شاكر، دار عمران.
- (٢٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع ابن قاسم.
- (٢٥) ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد، ت: موسى الدويش، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
- (٢٦) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر ١٤٠٨هـ.
- (٢٧) ابن جماعة الكناني، تذكرة السامع والمتكلم، ت: عبد السلام عمر علي، دار الضياء، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
- (٢٨) ابن الجوزي، صيد الخاطر، المكتبة التجارية، الطبعة الثالثة ١٤١٥هـ.
- (٢٩) الحاكم، المستدرک علی الصحیحین، ت: مصطفى

- عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.
- (٣٠) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ت: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ.
- (٣١) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، مطبعة علي صبيح بمصر، الطبعة الأولى ١٣٤٧ هـ.
- (٣٢) ابن حزم، كتاب الأخلاق والسير، ت: إيفار رياض، دار ابن حزم، الطبعة الثانية ١٤٢٨ هـ.
- (٣٣) الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، ت: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.
- (٣٤) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (تاريخ مدينة السلام)، ت: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤٣٣ هـ.
- (٣٥) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

(٣٦) أبو داود، السنن، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية.

(٣٧) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ.

(٣٨) الذهبي، معرفة القراء الكبار، ت: الدكتور طيار آلتي قولاج، دار عالم الكتب ١٤٢٤هـ.

(٣٩) الذهبي، تاريخ الإسلام، ت: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية ٢٠١١م.

(٤٠) الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية.

(٤١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٤٢) ابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف، ت: ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(٤٣) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ت: شعيب

- الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ.
- (٤٤) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية ١٤١٦هـ.
- (٤٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى (كتاب الطبقات الكبير)، ت: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ.
- (٤٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة عشرة ١٤١٢هـ.
- (٤٧) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
- (٤٨) الشاطبي، الموافقات، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.
- (٤٩) الشاطبي، الاعتصام، ت: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- (٥٠) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين،

ت: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

(٥١) الشوكاني، فتح القدير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ.

(٥٢) صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، الطبعة السابعة عشرة ١٤٢٦ هـ.

(٥٣) الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير (مصورة).

(٥٤) الطبراني، المعجم الكبير، ت: حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة الزهراء، الطبعة الثانية.

(٥٥) ابن عبد البر، ت: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الحادية عشرة ١٤٣٥ هـ.

(٥٦) عبد الرحمن بن سعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اعتنى به: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الطبعة الرابعة ١٤٣٥ هـ.

(٥٧) د. عبد العزيز بن سعود العمر، لغة التربويين، مكتب

التربية العربي لدول الخليج ١٤٢٨هـ.

٥٨) أبو العلا المباركفوري، تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية.

٥٩) د. علي بن إبراهيم الزهراني، أثر الحلقات القرآنية في تحقيق الأمن الاجتماعي، بحث مقدم للملتقى الثالث للجمعيات الخيرية ١٤٢٩هـ.

٦٠) عماد بن سيف العبد اللطيف، أثر حلقات تحفيظ القرآن الكريم على التحصيل الدراسي والقيم الخلقية، دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ.

٦١) د. عماد الدين خليل، دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة.

٦٢) د. فتحي عبد الرحمن جروان، الموهبة والتفوق والإبداع، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٦٣) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة.

- ٦٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية.
- ٦٥) ابن القيم، مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.
- ٦٦) ابن القيم، زاد المعاد، ت: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ.
- ٦٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ت: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ.
- ٦٨) ابن كثير، البداية والنهاية، دار الحديث ١٤١٤هـ.
- ٦٩) ابن ماجه، السنن، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- ٧٠) الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية.
- ٧١) د. محمد صالح علي جان، المناهج بين الأصالة والتغريب، دار الطرفين، الطبعة الأولى.
- ٧٢) محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق،

الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ.

(٧٣) د. محمد لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

(٧٤) مركز البحوث والدراسات بمجلة البيان، التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس ١٤٣٥هـ.

(٧٥) مسلم، المسند الصحيح المختصر من السنن، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، توزيع دار الكتب العلمية.

(٧٦) المقرئزي، مختصر كتاب قيام رمضان لشيخ الإسلام محمد بن نصر المروزي، مكتبة المنار، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(٧٧) ابن الملقن، الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، ت: عبد العزيز بن أحمد المشيقح، دار العاصمة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

(٧٨) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

(٧٩) أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر.

(٨٠) النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

(٨١) النووي، التبيان في آداب حملة القرآن، ت: زهير شفيق الكبي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٨٢) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، ت: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

(٨٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ت: مصطفى السقا، وإبراهيم البياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

(٨٤) هوارد قاردنر، أطر العقل (نظرية الذكاءات المتعددة)، ترجمة د. محمد بلال الجيوسي، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٢٥هـ.

٨٥) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية
١٤٠٨هـ.

٨٦) أبو يعلى الحنبلي، طبقات الحنابلة، دار المعرفة.
